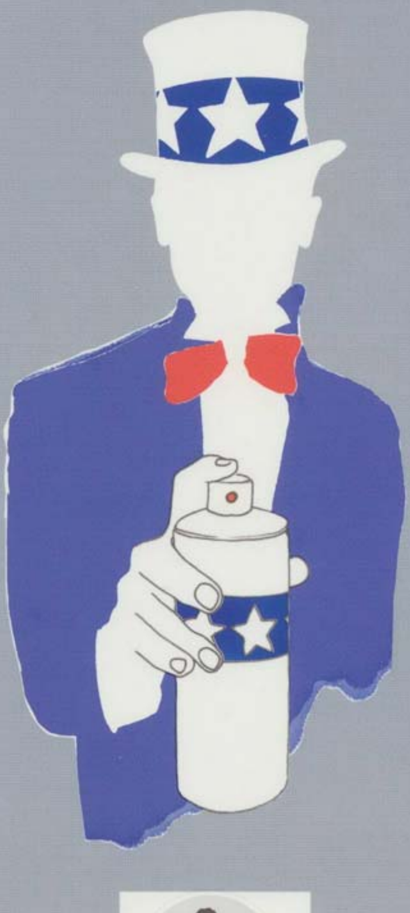
مُنير العَكْش

أميركا والإبادات الثقافية

لعنة كنعان الإنكليزية



رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مُنير العَكْش

أميركا والإبادات الثقافية

«لعنة كنعان» الإنكليزية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

أميركا والإبادات الثقافية

America and the Cultural Genocides
The English Curse of Canaan
Munir Akesh

First Published in July 2009

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 427 - 1

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: أحمد عثمان
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

المقدمة

على مدى خمسمائة سنة، تعرَّض هنود أميركا لحملات غزو إسبانية وبرتغالية وفرنسية وهولندية وإنكليزية سلبتهم إنسانيتهم، وأنزلت بهم فنوناً عجيبة من القتل والتدمير، ونظرت كلها إلى حياتهم ولغاتهم وأديانهم باحتقار، لكن الإنكليز (أو الزنابير(*)) وحدهم كانوا الأكثر عنجهية وعدوانية وإصراراً على تدمير الحياة الهندية واقتلاعها من الذاكرة الإنسانية. وحدهم جاءوا بفكرة مسبقة عن أميركا، نسجوها من لحم فكرة إسرائيل التاريخية؛ فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ. فاستنسخوا بذلك أحداثها، وتقمصوا أبطالها وجعلوها قدرهم المتجلي.

هذه الفكرة، كما بينت في أعمال سابقة، هي التي أرست الثوابت التاريخية الخمسة التي رافقت كل تاريخ أميركا:

(*) «الزنابير» WASPS هو الاسم المختصر والمتداول في الولايات المتحدة للبيض الأنكلوسكسون البروتستانت. وهو لا يقتضي مدحاً ولا ذماً. وسأستخدمه بهذا المعنى كلما اقتضى الأمر. المهم في هذا التعبير أنه يشمل «البيض الأنكلو سكسون البروتستانت» في وطنهم الأم بريطانيا وفي كل مكان استعمروه. والكتاب بهذا المعنى يراهم أمة واحدة، ويعتبر انتقال مركز الثقل من لندن إلى واشنطن لا يشكل انقطاعاً في المسيرة ولا يختلف عن انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد.

(١) المعنى الإسرائيلي لأميركا،

(٢) عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي،

(٣) الدور الخلاصي للعالم،

(٤) قدرية التوسع اللانهائي،

(٥) حق التضحية بالآخر(*).

وقد سلخت هذه الفكرة جلدها من حقبة لحقبة، وجددت لغتها من جيل لجيل، وطورت معاذيرها مع كل تطور جديد كالثورة الصناعية، ومع كل نظرية علمية جديدة كنظرية التطور، لكن جوهرها ومعناها وأهدافها لازمت المستعمرين الإنكليز وقناعاتهم وتاريخهم وسياساتهم، واستحوذت على ألبابهم وعقولهم. كذلك ظلت حوافز هذه الفكرة وحروبها «الخيرية» ورسالتها الحضارية واحدة لا تحول ولا تزول: إنعاش الأسطورة: إنعاش أسطورة «لعنة كنعان» التي نسجها بدو رعاع متسيبون حاقدون على كل حضارات عصرهم؛ نسجوها من هاجس نهب هذه الحضارات بأهلها وأرضها وسمائها، وأورثوا الزنابير (الذين يرضعون هذه الأسطورة قبل حليب أمهاتهم) عنجهية «الجلاد المقدس» وأبلغ آداب «مسخ الآخر» و«عبادة الذات» و«تقديس الجريمة».

«الحضارة» ـ وما أكثر تردادها واستهلاكها وابتذالها وتكنّي الزنابير بها ـ لم تستعر معناها من الأسطورة المؤسسة وحسب، بل إنها نسجت منها كذلك تصوراتها ومعاييرها ونظامها القيمي والأخلاقي. فالفكرة بلغتِها الأم تزعم فيما تزعم:

• أن احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ عمل مقدس أمر به الله. وبالتالي فإنه يسمو على أخلاق البشر، وأعراف البشر، وقوانين البشر، وحياة البشر، وحريات البشر.

• أن فكرة أميركا تجسد مشيئة الله في أرض كنعان الجديدة [أميركا] وأهلها

(*) هذه الخصائص التي ينطلق منها هذا الكتاب درستها بتفصيل وتوثيق في «حق التضحية بالآخر» و«تلمود العم سام» ، ومن غير المستحسن تكرار ذلك.

وثقافتها كما جسدت فكرة إسرائيل مشيئة الله في أرض كنعان القديمة [فلسطين] وأهلها وثقافتها.

• أن المستوطنين الإنكليز كالإسرائيليين التاريخيين استثناء وجودي يحتكر لنفسه الاضطلاع بإرادة الله ويختص وحده بتنفيذها.

• أن معاملة السكان الأصليين لا تخضع للقوانين الأخلاقية أو الإنسانية، أو المبادىء العقلية بل يحكمها ما نسجه العبرانيون من أساطير عن تجربتهم مع الكنعانيين. وهذا ما جعل المستعمرين الإنكليز الذين يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً يطلقون اسم الكنعانيين على كل الشعوب التي أبادوها.

• أن نجاح فكرة أميركا في العالم الجديد يشكل مثالاً طيباً يمكن تكراره حيثما اشتهى شعب الله. فالأرض ـ كما يقول لانسلوت أندروس Lancelot Andrewes «صحن من اللحم موضوع على المائدة يقطع منه الإنسان [الأبيض] ما يشتهي». وما تحقق في كنعان المجاز ليس إلا خطوة على طريق كنعان الحقيقة: فلسطين والعالم العربي.

□ □ □

هذا الكتاب ليس مستقلاً بذاته. إنه متابعة لأعمال سبقته وتأسيس عليها. وقد يكون محطة على طريق لا حيلة لي في معرفة نهايتها.

على مدى هذه المسيرة الطويلة من كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة لم يغب عن أنبياء فكرة أميركا وجنرالاتها أن احتلال الأرض والإبادة الجسدية ليست كل شيء وأنه لا بد من كسر العمود الفقري لضحيتهم، ألا وهو «لغتهم وثقافتهم وتراثهم الروحي». هذه الإبادة الثقافية أو «المحرقة الأخيرة للوجود» بتعبير رسل مينز Russell Means أحد زعماء الحركة الهندية هي موضوع هذا الكتاب. وكنت قد جمعت شيئاً من أصوله وبنيت تصوره العام على مدى سنوات طويلة، لكنني لم أنصرف إلى العمل فيه انصرافاً جدياً إلا في صيف ٢٠٠٣.

خمس سنوات طارت شَعاعاً، لكن كثيراً من لحظاتها كانت أطول من خمس

سنوات. وأنا هنا لا أتحدث عن قراءة الكتب في البيت أو في هذه المكتبة الجامعية أو تلك، فهذا أيسر العمل وأحبه وأمتعه، لكنني أتحدث عن الساعات الطويلة التي أمضيتها بعيداً عن البيت في القراءة والبحث والتنقيب المضني في صناديق الوثائق الحكومية التي تضم آلاف آلاف الأوراق: وثائق المحفوظات الوطنية National Archive ووزارة الداخلية، أو وثائق قرن ونصف القرن من سجلات مفوضي الشؤون الهندية، أو محفوظات الكونغرس والمنظمات التاريخية، ومعظمها مكتوب بخطوط سقيمة، أو بلغة قديمة. وهذا ما يوجب عليّ الاعتراف بجميل كل من أعانني على فك مغاليق هذه النصوص وخاصة الزميلة الدكتورة مارغريت باربر.

صحيح أن كثيراً من هذه الوثائق تسجيل لأحداث عادية أو تافهة تدفعك أحياناً إلى الملل أو اليأس، لكنك ما أن تعثر على وثيقة ذات صلة بالبحث حتى يتجدد نشاطك، خاصة أنها تعصر قلبك ومقلتيك كلما فكرت في أنها ليست مجرد ورقة بل شريط مصور من مأساة تعجز كل مخيلات الرعب عن محاكاتها؛ مأساة أبطالها بشر مثلي ومثلك، كانوا، كما يقول زعيم هندي في إحدى هذه الوثائق، «كشجرة تساقطت أوراقها فكنستها الريح إلى الأبد».

منير العَكش

بوسطن، ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨

«يجب مساعدة الحضارة على إبادة الهنود كما أمر الله يشوع أن يبيد الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم، ثم إنه عوقب على تقاعسه عن الانصياع لأمر الله».

من محاضر جلسات الكونغرس ٣٣، الجلسة ٢٣

«لا أظن أبداً أننا سنقهر هذا البلد [الهند] ما لم نكسر عظام عموده الفقري التي هي لغته، وثقافته، وتراثه الروحي».

توماس مكولاي،

مهندس سياسة التعليم الإنكليزية للشعوب المستعمَرة

الفصل الأول

التطهير الثقافي

«وقفتُ بجانب وزير الحرب وقلت له إن عليه أن يجمع كل الهنود في مكان مناسب ويذبحهم مرة وإلى الأبد. وقلت له: إذا لم توافق على هذه الخطة فإن البديل الناجع هو الصابون والتعليم soap and education. فالصابون والتعليم أنجع من المذبحة المباشرة، وأدوَم وأعظم فتكاً. إن الهنود قد يتعافون بعد مجزرة أو شبه مجزرة، لكنك حين تُعلّم الهندي وتغسله فإنك ستقضي عليه حتماً، عاجلاً أم آجلاً. التعليم والصابون سينسفان كيانه ويدمران قواعد وجوده. وقلت له: سيدي، اقصف كل هندي من هنود السهول بالصابون والتعليم، ودعه يموت».

مارك توين Mark Twain، ١٨٦٧

لم يكن لفرحي حدود وأنا أرى بين طلاب الفصل الدراسي الجديد فتاة من سكان أميركا الأصليين لا تخطىء العين ملامحها «الهندية» برغم شعرها القصير ومظهرها «الأبيض» المبالغ فيه. كانت في السادسة عشرة، وكان اسمها الأول «سِنْغ سُك Singsouk». ولدهشتي، فإنني حين ناديتها باسمها لم تجب. ولم ينفع النداء الثاني، بل زاد وجهها شحوباً واضطراباً وزادني حرجاً. ومع انتهاء المحاضرة دَنَتْ مني وقالت

وشفتاها ومنخراها يرتجفان: «أرجو أن تناديني جينيفر Jennifer[١]. هل يزعجك أن تناديني جينيفر؟ لا أريد أحداً أن يناديني سِنْغ سُك».

قرأت الكثير عن ظاهرة «الخوف من الذات autophobia» و«كراهية الذات self-hatered» و«العنصرية ضد الذات internalized racism» وعن الإرهاب الثقافي والنفسي «الأبيض» الذي جعل بعض السكان الأصليين يعتبر هويته كابوساً، ويجاهر بالقول: «أتمنى لو أنني لم أخلق هندياً» [٢]، لكن وجه الفتاة وهي تدعوني إلى أن أناديها باسم إنكليزي ذي أصول سلتية Celtic وليس باسمها الهندي كان أبلغ من أي كتاب. إنه سرد حي لفصل مأساوي آخر من فصول «فكرة أميركا» ـ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة ـ حتّمت على هؤلاء الأشقياء الذين نجوا بأعجوبة من أطول حرب وأدمى إبادة في التاريخ البشري أن «يتطهّروا» من أسمائهم وأخلاقهم وثقافاتهم وأجسادهم ويُمثّلوا دور الموتى.

هناك شعوب «هندية» كثيرة لم تفقد أسماءها الحقيقية وحسب بل صارت لا تُعرَف ولا تُعَرِّف نفسها إلا بالاسم الذي شنّعها به غُزاتُها. ففي عام ١٧١٢ مثلاً، أطلق غزاة الشمال الأميركي على عنقود كبير من الشعوب الناطقة بلغة «أوجيبوا Ojibwa» اسم «سو Sioux» أو «الأفاعي المخاتلة» . وللمزيد من الإيلام فقد استعاروا الكلمة nadouessioux من لغة الضحايا، ثم اختصروها إلى «سو» لتتناغم مع أنظمتهم اللغوية وترتاح لها حناجرهم المرهفة. ثلاثة قرون وسادِيّة الزنابير تفرض على هذا الضحية القدرية من أبناء شعوب لاكوتا Lakota (تحالف الأصدقاء) في سهول الشمال الأميركي أن يعرّف بنفسه بأنه «أفعى مخاتلة»: «سو» ، وتُكرهه رسمياً على أن يلقنها لأبنائه وأحفاده إلى أن صارت اليوم عَلماً عليه، وأبرز خصائص هويته.

في سياق هذا الاقتلاع والإخضاع والتعرية الثقافية، أو «المحرقة الأخيرة للوجود الهندي» ، بتعبير رسل مينز Russell Means أحد أبرز وجوه الحركة الهندية Indian Movement، مَسَخَت «فكرةُ أميركا» جسدَ ضحيّتها «الهندي» وثقافتَه إلى «مادة ملوّثة مؤذية للإنسان والطبيعة، لا بد من تطهيرها» أو التطهر منها. بل مَسَخَتها، كما يقول المؤرخ جيمس راولس James J Rawls إلى «قذارة أحط من كل القذارات، وحُثالات دميمة... تدب مع الهوام والحشرات»[٣] ولا بد لها من صابون الحضارة.

ربما كانت هذه التعرية الثقافية هي التعبير الأمثل عن برامج التعليم التي فرضتها فكرة أميركا (فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة) في مدارس الهنود الداخلية Indian Boarding Schools حيث تُزرع في الطفل الهندي ذاكرةُ الغزاة ولغتُهم وملَكةُ حكمهم ومزاجُهم وأخلاقُهم ودينُهم، وحيث يتدرب هذا الطفل الشقي على الاشمئزاز من نفسه وأمه وأبيه، وأخته وأخيه، وقومه ولغته ودينه، ويشحن بالخوف من هنديته، والنظر إلى نفسه وإلى العالم بعيون جلاديه.

في سياق هذه الجراحة الدماغية تركز حرب الإبادة على الأطفال الهنود وعقولهم فيُحقنُ الطفل باحترام الدولة الأميركية وعلَمِها ورموزِها وبضرورة أن يحارب من أجلها، ويُدَرَّب على الإيمان بفكرة «القدر المتجلي Manifest Destiny» الذي قضى بزحف «الحضارة» فوق كل أراضي وأرواح الهنود. وهنا يتعلم الطفل أن ما جرى لأهله وبلده كان مواجهة بين بربرية وحضارة، وأن لا خيار أمامه، ولا أمل لديه إلا بالإذعان. وفعلاً فقد نشرت مجلة Atalantic Monthly (نوفمبر/ت٢، ١٨٨٢) مقالاً بعنوان «كيف يمكن للهمج الأميركيين أن يتحضروا» ذكرت فيه أن هدف تعليم الهنود هو «أن ينظروا بمشاعر الاشمئزاز إلى هنديتهم look with feeling of repugnance on their native state».

مما يتعلمه الطفل الهندي في هذه المدرسة، مثلاً، أن ما جرى لبلاده التي سُلبت وقومه الذين أبيدوا كان من نعم الله. عليه أن يتعلم أن هذه

> البلاد [أميركا] وطن أسسه حجّاج/قديسون [من أوصاف المستعمرين الأوائل] ورِعون مسالمون تجشموا مخاطر الإبحار في المحيط ابتغاء مرضاة الله ونزولاً على إرادته... [وأن] هذه البلاد لم تكن قبل مجيء الإنسان الأبيض إلا مجاهل تسكنها الوحوش وكائنات ما دون البشر لا تختلف عن تلك الوحوش. لهذا اعتدت على رسل الحضارة الذين تميزوا بالنبل والخير والشجاعة، وكانوا مثالاً يحتذى في تنفيذ إرادة الله(٤).

ويبين المفوض الهندي توماس مورغن Thomas Morgan طبيعة ما يجب أن يتعلمه الطفل الهندي ليصبح متمدناً، فيقول:

لا بد من غرس محبة الدولة الأميركية في عقله وقلبه. عليه أن ينظر إلى الولايات المتحدة كوطن صديق ضحّى من أجله، وأعطاه الكثير. عليه أن ينسى ما يقوله أهله عن البيض ويعرف أن كل ما حصل كان لمصلحته. عليه أن يتخذ من أبطال التاريخ الأميركي وعظمائه مثالاً يحتذى، وأن يشعر بالفخر بما أنجزوه. وعليه أن لا يسمع أو يعرف شيئاً عما جرى للهنود، أو عمّا يسمى بظلم الإنسان الأبيض للهنود. فإذا كان تاريخه التعيس يشير إلى شيء مما جرى فإن من الواجب نفي ذلك كليّاً وإفهامه أن ما حصل كان لمصلحته وأن مستقبلاً باهراً ينتظره(٥).

وعلى الرغم من أن الهنود، كما تقول پاولا غَن آلن Paula Gunn Allen الشاعرة والباحثة الأكاديمية، «يغتسلون أكثر من الأوروبيين»(٦)، بل على الرغم من «أن الأوروبيين كانوا يسخرون من عادة الاغتسال اليومي، صباحاً، لدى الهنود»(٧) بشهادة شاهد عيان هو الرحالة البريطاني جون لوسون John Lawson، فإن «ثروة الأمم»، إمعانا في السادية، لم تكتف بوصف الجسد الهندي بالقذارة وبأنه «مادة ملوّثة مؤذية للإنسان والطبيعة، لا بد من تطهيرها» والتطهر منها بل إنها استثمرت ذلك في الدعاية لمنتجاتها. فشركة بروكتر أند غامبل Procter and Gamble مثلاً، نشرت إعلاناً عن صابون آيفوري Ivory الذي تنتجه لا يقل بلاغةً عن وجه الفتاة سِنْغ سُك. كان الإعلان مرفقاً برسم مهين يَظهَر فيه الرجل الهندي وهو يرتدي ما كان يرتديه الرئيس جورج واشنطن في المناسبات الرسمية، ويعتمر قبعة العم سام، وينشد «قصيدةً» هجائية لنفسه وقومه يوحد فيها بين القذارة البدنية والنفسية وبين الإنسان الهندي، ويتهم نفسه وأهله بالتوحش والعنف والولوغ في دم المستوطنين الأبرياء:

لطالما كنا صعاليك متوحشين مخيفين / لا تستهوينا فنون السلام / نلتحف أغطيةً ملوثة بالشحم / ملطخةً بلحم الجواميس ودم المستوطنين (!)/ وكنا في قيظ الصيف وغباره / لا نغتسل إلا نادراً، من شهر إلى شهر / لكن صابون آيفوري كان شعاعاً من الضوء / غسلَ حياتنا الشقية بالنور./ وها نحن الآن، بفضل صابون آيفوري، متمدنون طيبون / نحترم القوانين كما ينبغي/ ونلبس الكتّان والشاش والمشدات / تماماً كما يلبس بيض الوجوه من الناس. / لهذا فإنني أحمل معي حيثما أذهب / قطعة من صابون آيفوري / لأشهد

العالمَ على ما تكرمّت به المدنيةُ عليّ وعلى زوجتي / وكيف طهرتنا وجعلتنا بهجة للناظرين(٨).

في كتابه الوثائقي عن السياسة الأميركية تجاه السكان الأصليين يخصص الأب اليسوعي المؤرخ فرانسيس بروشا Francis Paul Prucha فصلاً كاملاً لحرب التطهير الثقافية التي استعان فيها الزنابير بسلاح التعليم والتمدين على إبادة السكان الأصليين بالطريقة التي استعانوا فيها بالنار والحصار وسلاح الجراثيم. وكذلك فعل دافيد والَس آدامس David Wallace Adams في كتابه الذي يفصح عنوانه عنه: «تعليم بهدف الإبادة Education For Extinction» الحائز على جائزة The Caughey Western History Association في التاريخ. هنا يتفق الكتابان والكاتبان على أن الذي تولى حرب التطهير الثقافية وألحق أكبر الضرر بثقافات الهنود وأديانهم، وحياتهم وأملاكهم أيضاً، هو «مكتب الشؤون الهندية Bureau of Indian Affairs» أو ما يمكن تسميته باصطلاحاتنا الحديثة: السلطة الوطنية الهندية. وكان هذا المكتب قد تأسس في عام ١٨٠٦ باسم «مديرية الشؤون الهندية» وأُلحِق بوزارة الحرب الأميركية قبل أن يُلحق بوزارة الداخلية في ١٨٦٩ ويتولى رئاسته الأولى نكرةٌ من هنود الإروكوا Iroquois يدعى هاسانواند Hasanoanda لكنه سمّى نفسه إيلي صاموئيل باركر Ely Samuel Parker، وقص شعره، وبالغ في «بياض» مظهره حتى قيل إنه كان يُحلي قَبَّة قميصه المُنَشّاة بعقدة رقبة على شكل فراشة papillon لا يخلعها إلا في الفِراش. كل الطواويس الذين عملوا في هذا المكتب «خَلَقَهم» الزنابير لإعطاء وجه هندي لفكرة أميركا، فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة ـ طواويس منفوشة الذيل تبدو لمن أمامَها بهجة للناظرين، أما أهلها الذين يقفون خلفها فيرون منظراً مختلفاً لا يسر العين.

لأكثر من قرن كان هذا «المكتب» يلجأ إلى كل وسيلة متاحة، بما في ذلك العنف والخطف لاقتلاع أطفال الهنود من أحضان أمهاتهم وثقافاتهم في أصغر سن ممكنة (الرابعة في أغلب الأحيان) وشحنهم إلى معسكرات أشغال شاقة سميت تجاوزاً بالمدارس،

أولاً، ليتعلموا كيف ينظرون إلى إنفسهم والعالم بعيون غُزاتهم،

وثانياً، ليعملوا بالسخرة في المصانع والمزارع الملحقة بهذه المدارس،

وثالثاً، ليكونوا ألغاماً أو أحصنة طروادة في حرب تجريد الهنود من «هنديتهم» وتزييت جَرَّافة الاستيطان والنهب والإبادة الجسدية[٩].

ولكي تؤتي هذه الأهداف النبيلة ثمارها كان لا بد للمدارس الهندية من نظام عسكري صارم، تَوَلّى فَرضَه جنرالات «فكرة أميركا» وجنرالات «ثروة الأمم» وطواويس الاستعمار الداخلي في «مكتب الشؤون الهندية» ، فقضى «بموجب الإحصاءات الرسمية على أكثر من ٥٠ بالمئة من هؤلاء الأطفال. وبكلمة أخرى، قضت هذه المدارس على ربع الهنود الناجين من المذابح المباشرة على مدى خمسة أجيال متعاقبة»[١٠].

كان الكونغرس قد أولى «مكتب الشؤون الهندية» سلطةَ فرضِ عقوبات اقتصادية وجسدية على الآباء الذين يرفضون تسليم أولادهم إلى «وكلاء» هذه المدارس (ونادراً ما كان يوليه سلطة). بذلك كان زبانية «المكتب» (والجيش، في حالات الاستعصاء) يقتحمون المعزل الهندي ويحصدون كل أطفاله، مع التهديد في بعض الأحيان بالقتل والسلخ kill and scalp[١١]، لأن في ذلك مصلحة الأطفال[١٢]. تلك المصلحة النبيلة التي تحتاج إلى القتل والسلخ ختمت فصلاً جديد من تراجيديا الإبادة، «فالهدف النهائي لهذه المدارس هو القضاء نهائياً على الهنود»[١٣] كما يعلن ذلك آلن هاربر Allan Harper أحد أبرز المعنيين بالسياسة الهندية ورئيس جمعية الدفاع عن الهنود الأميركيين The American Indian Defense Association.

مِن أبسط العقوبات التي تفرضها الحكومة بالتعاون مع «مكتب الشؤون الهندية» فرض حصار خانق على المعزل الهندي الممانع، وقطع إمدادات التموين عنه لفترة طويلة، يليها اقتحام المعزل بالقوة واعتقال الآباء، وخطف الأبناء وقتل القادة والزعماء. وهذا ما اضطر كثير من الآباء إلى الفرار بأولادهم والاختباء في الجبال أو الغابات فيما كان زبانية المكتب، كما يقول المدير المسؤول عن معزلٍ للهنود الأباشي: «يطاردونهم ويصطادونهم كالأرانب البريةِ»[١٤].

الهوامش

(*) مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠) في رسالة استقالته من الحكومة، كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٧.

Mark Twain, The Facts Concerning the Recent Resignation (1867), reprinted in Mark Twain: *Collected Tales, Sketches, Speeches, & Essays* (1992), edited by Louis J. Budd.

(١) اسم إنكليزي حديث نسبياً، لم يعرف قبل ١٩٠٦. ويبدو أنه من أصول سلتية أو لعله تحريف لاسم Guinevere جينيفر الذي اشتهرت به زوجة الملك آرثر.

(٢) Andrea Smith, *Conquest: Sexual Violence and American Indian Genocide*, (Cambridge, MA, South End Press 2005) p. 8.

وهذه ظاهرة منتشرة لدى بعض العرب في الولايات المتحدة، وخاصة بين المهاجرين الجدد.

(٣) James J. Rawls, *Indians of California: The Changing Image* (Norman, University of Oklahoma, 1997). Quoted by Smith. Ibid, p. 9.

(٤) هناك الكثير من مثل هذه العجرفة الزنبورية في Horace E. Scudder, *A History of the United States of America* (Philadelphia: J. W. Butler, 1884), pp. iv, 21, 93-95, 418. And see Laurence M. Haupman, "Mythologizing Westward Expansion: Schoolbooks and the Image of the American Frontier before Turner". *The Western Historical Quarterly*, No. 3.

(٥) Michael. C. Coleman, *American Indian Children at School, 1850-1930*. (Jackson: University of Mississippi Press, 1993), p. 42.

(٦) Paula Gunn Allen, *The Sacred Hoop* (Boston, Beacon, 1986), p.217.

وانظر فصل Hunter, Scout, Warrior في كتاب:

Luther Standing Bear, Land of the Spotted Eagle, (Boston: Houghton Mifflin Company), 1933.

لهذا ربما غثت نفس الهنود من الرائحة الكريهة التي كانت تفوح دائماً مما يسمى بـ«الحجاج» الإنكليز الذين جاءوا على متن السفينة مايفلور وأسسوا مستعمرة بليموث. ولقد جهد الهنود في إقناع رسل الحضارة بضرورة الاغتسال اليومي ولكن عبثاً. أكثر من ذلك، فمن المؤكد أن سكان شمال أوروبا، وبريطانيا بشكل خاص كانوا نادراً ما يغتسلون، وكانوا يعتبرون الاغتسال عادة غير صحية، ويرون في تغيير الثياب على مدى سنوات أمراً معيباً.

يقول روبرت لويب مؤرخ ما يسمى بالحجاج:

«إن معظمهم تعود على شظف العيش crude way of living في إنكلترا. لهذا [قال هندي لآخر:] قبل

أن يصل [المستوطن] جون ستجد أنه هو وعائلته على غرار كل الذين هنا [من المستوطنين] تفوح منهم رائحة كريهة خاصة حين تضطر إلى أن تكون معهم في مكان مغلق». ويضيف المؤرخ لويب مفسراً: ذلك لأنهم لا يغتسلون ولا يعرفون الحمّام. ليس هذا بسبب الكسل بل لأنهم يعتقدون أن تنظيف الجسم بالصابون والماء مضر بالصحة. ومما يزيد الأمر سوءاً أنهم لا ينظفون ثيابهم سوى مرة أو مرتين في السنة. وبما أنهم جميعاً تفوح منهم نفس الروائح الكريهة فإنك لا تجد أحداً منهم يستهجنها».

انظر:

Robert Loeb, Jr., *Meet The Real Pilgrims* (Garden City, New York. Doubleday, 1979), pp. 23, 87.

وانظر في إصرار الهنود على تعليم الحجاج عادة الاغتسال وما قابلها من عجرفة القذارة:

Feenie Ziner, *Squanto* (Hammden Conn., Linner Books, 1988), p. 141.

جننغز، وهو أحد أبرز مؤرخي أميركا يقول : إن هؤلاء الهنود [الهمج] كانوا يعتبرون «النظافة من الإيمان» و الاغتسال اليومي طقساً مقدساً. أنظر:

Francis Jennings, *The Invasion of America* (Norton Library, 1975), p. 50.

(٧) John Lawson, *A New Voyage to Carolina* (1709), (March of America Facsimile Series, No. 35, Ann Arbor, Michigan, 1966), Vol. II, p. 365.

(٨) Andre Lopez, *Pagans in Our Midst* (Mohawk Nation: Akwesasne Notes, n.d.), p. 119.

(٩) لا يستطيع المرء إلا أن يربط هنا بين ما جرى في هذه المدارس التي أفني فيها ربع الهنود الناجين من مختلف أشكال الإبادات وبين تصريح لكونداليزا رايس (يوم كانت مستشارة للأمن القومي) حول ضرورة «تغيير العقل العراقي كمقدمة لتغيير العقل العربي» وعشرات التصريحات والتلميحات الأميركية الرسمية إلى ضرورة إعادة النظر في مناهج التدريس العربية وضرورة استئصال جذور الكراهية في الثقافة العربية السائدة وفرض رقابة على ثقافة المساجد، ووضع حد لما يسمى بعداء السامية في وسائل الإعلام، وبذل كل مستطاع لتغيير سلوك العرب ونظرتهم السائدة للولايات المتحدة وإسرائيل، بل وعن ضرورة قصف العواصم العربية بالقنابل النووية في حال فشل مثل هذه المحاولات. منها:

«إن الغالبية العظمى من الأميركيين تتمنى أن ترى قنبلة نووية تُلقى فوق عاصمة عربية كبرى. ولا يعنيهم أن يعرفوا ما هي. إنهم يريدون استخدام السلاح النووي دونما تحفظ. إن الغطاء الملوث بجراثيم الجدري الذي أعطي لهنود الشيروكي أثناء مسيرتهم [نقلهم بالقوة فيما يعرف بمسيرة الدموع] غرباً يعتبر شيئاً تافهاً قياساً بما أتمنى أن يُصار بهؤلاء الناس». ــ ميشال سافاج ، مذيع وكاتب شعبي واسع الانتشار.

[T]he largest percentage of Americans would like to see a nuclear weapon dropped on a major Arab capital. They don't even care which one. They'd like an indiscriminate use of a nuclear weapon... Smallpox in a blanket, which the U.S. Army gave to the Cherokee Indians on their long march to the West, was nothing

compared to what I'd like to see done to these people.

— Michael Savage [Michael Alan Weiner], From the May 12, 2004 *Savage Nation*.

«إنني أستطيع أن أقود طيارة محملة برأسين نووين فأطلقهما دفعة واحدة. وهكذا نرتاح من سورية نهائياً». النائب سام جونسون.

You know, I can fly an F15-, put two nukes on ém and I'll make one pass. We won't have to worry about Syria anymore. (The crowd roared with applause).

— Rep. Sam Johnson, R. Texas, Feb 19, 2005.

(١٠) George E. Tinker, "Tracing a Contour of Colonialism: American Indians and the Trajectory of Educational Imperialism", Preface, in Ward Churchill's *Kill the Indian Save the Man, The Genocidal Impact of American Indian Residential Schools*, (San Francisco, City Lights Books 2004), p. xviii, xxxiv.

ولم يكن أطفال الهنود في كندا أفضل حالاً من إخوانهم في الولايات المتحدة، فقد صرح دنكن كامبل سكوت Duncan Campbell Scott أن تلاميذ هذه المدارس لم يعيشوا ليستفيدوا مما تعلموه وأنهم قضوا قبل أن يتخرجوا منها.

A. Shortt and A. G. Doughty (eds). *Canada and its Provinces*, Vol. ix (Toronto, 1913), p. 615.

وكحالهم في السجون ومعسكرات التعذيب، فقد كانت إدارة المدرسة حين تشعر باقتراب الطفل من الموت ترسله ليموت عند أهله. وبذلك لا يدخل في إحصائيات موتى المدرسة. Churchill, *Kill The Indian*, p.34.

وقد اعترف مفتش الشؤون الهندية وليم مكورنل William McCornell أن مئات الفتيان والفتيان أرسلوا على عجل ليموتوا عند أهلهم عام ١٨٩٩. Ibid, 36.

(١١) David Wallace Adams, *Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experience*, 1875-1928. (Lawrence: University Press of Kansas, 1980). p. 216.

(١٢) *The United States Statutes at Large* (the Government Printing Office), Vol. 26, p. 1014.

لطالما كان تفسير الحكومة وعملائها لرفض الآباء تسليم أولادهم «أن هؤلاء لم يتمدنوا وأنهم ينظرون إلى التعليم نظرة الحيوانات إلى الدستور». انظر التقرير السنوي لمفوض الشؤون الهندية إلى وزير الداخلية عام ١٨٨٢:

The Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs, 1882, 152.

أما مفوض الشؤون الهندية وليم دول William Dole فبرر «القتل والسلخ» بأنهما ضروريان «لإنقاذ أطفال الهنود من العادات الكريهة لآبائهم ومن لا أخلاقيتهم» ، وهناك من وصف تعلق الطفل الهندي بآبائه بأنه مثل «علاقة الخنزير بقطيعه». انظر:

Ibid, 37th Congress, 3rd Cession, 1863, p.172, and 50th Congress, 1st Cession, 1888, p. 262.

صحيح أن هذه المدارس كانت عملاً مؤسساتياً لعزم الزنابير على قتل هندية الطفل وزرع دماغ أبيض في جمجمته لكنها كانت تُعرض على أنها رحلة شيقة تأخذ الأطفال الهنود من ظلمات الهمجية إلى أنوار الحضارة. أما بالنسبة للطفل وأهله فإنها كانت رحلة بلا عودة ولا سيما بعد ١٨٧٠ حين رسا القرار على نقل المدارس بعيداً عن المعازل والقرى الهندية للحيلولة دون أي تواصل بين الأطفال وأهلهم، وحيث لا طاقة لهم على مثل هذا التواصل كما اقترح المفوض لدى الأباشي P. P. Wilcox، وكما تأكد ذلك في عدد من التقارير السنوية لمفوضي الشؤون الهندية. انظر تقارير السنوات التالية:

Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs, 174:1879; 67:1883; 257:1896; 237:1899.

(١٣) Allen G. Harper, "Canada's Indian Administration: Basic Concepts and Objectives", *American Indegina*, Vol. 5, No.2. 1945, p.127.

(١٤) *The Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1886, 417.

في موسم قطف الأطفال، مع بداية فصل الخريف تتخذ مقاومة الآباء لخطف أولادهم أشكالاً مختلفة، كأن يقف المعزل صفاً واحداً في وجه زبانية الحكومة ومكتب الشؤون الهندية، أو الهرب بالأطفال إلى الجبال والغابات. كما أن هذه المقاومة تستمر إلى ما بعد نقل الأطفال إلى المدارس إما بتنظيم عمليات تهريب فردية أو باقتحام جماعي للمدرسة وتحرير الأطفال، أو باللجوء إلى القضاء الذي لا تتجاوب الدولة مع أحكامه عندما تصدر لصالح الهنود.

الفصل الثاني

استباحة الجسد

«[إنهم يعتبرون] الهنود الحمر والكنعانيين تجسيداً حيّاً للفاحشة الجنسية، ويقولون إنّ أجسادهم وأرواحهم نجس، لا حرمة لها. لهذا يستحقون التدمير الجماعي».

المؤرخة أندريا سميث (من شعب الشيروكي)

لم يتورع طواويس «مكتب الشؤون الهندية» عن إقطاع هذه المدارس الداخلية؛ مدارسِ أبنائهم لثروة الأمم التي أقطعتها بدورها لإرساليات التبشير، واستأجرت لذلك، بتعبير المؤرخ الشيروكي جورج تينكر George E. Tinker:

> حثالات المجتمع very dregs of the society [الأميركي] من متخرجي السجون وأصحاب السوابق والساديين ومغتصبي الأطفال pedophiles والمتقاعدين العسكريين والأمنيين لتمدين أطفال الهنود والإشراف على هذه المدارس وإدارتها[١].

لهذا لم تخل مدرسة واحدة، وبنسب مختلفة، من الاغتصاب الجنسي. حتى إن بعض الآباء امتنعوا عن الإنجاب خوفاً من جلادي المدارس الداخلية ونظام «النقل»

[الترانسفير] الذي فرضه المكتب وشركات «التمدين» المتعاقدة معه. ويروي تينكر بكثير من الحزن قصة أخ له بالتبني (واسمه دوني Donnie) انتحر وهو في الثانية والخمسين. لقد اختطفه زبانية «مكتب الشؤون الهندية» من ذراعي أمه في مَعزل Pine Ridge. عندما كان في الخامسة. لم ينفع بكاء الأم ولا ضراعة الأب، فقد وضعوا في يديه القيد أمام أعينهما، وساقوه إلى سيارة تغص بالأطفال. وهناك ربطوه بالسلسلة المعدنية الطويلة التي تصفّد الأطفال جميعاً، ثم شحنوهم إلى مدرسة القديس فرانسيس St. Francis التي أولى «المكتب» إدارتها إلى إرسالية تبشيرية.

منذ تلك اللحظة كُتبت قصة انتحار «دوني»، فقد بدأ منهاجُ تمدينه في الأيام الأولى لدخوله المدرسة بافتراسه جنسياً من ناظر يصفه بأنه أبيض عملاق، كان ينسلّ ليلاً إلى مهجعه المزين بصورة «الرب الأبيض»، ويغتصبه هو ورفيق غرفته «كونراد Conrad» الذي كان بعمره. كان الناظر يعرّيهما معاً، ويتناوب عليهما حتى تبلغ حضارة شعب الله ذروتها[٢].

وكانت هناك غزوات افتراس مفاجئة يشنّها عليهما بعض العاملين، أو وجوه لم يرياها من قبل. أما كونراد فكان أسعد حظاً. لقد انتحر قبل أن يبلغ الخامسة عشرة[٣].

قصة الاغتصاب الجنسي في هذه المدارس تكاد تكون بعمر فكرة تمدين أطفال الهنود. فهذه المدارس كما وصفها دوغلاس هوغارث Douglas Hogarth أحد قضاة المحكمة العليا في كندا «ليست أكثر من مؤسسات للإرهاب الجنسي وأوكار لاغتصاب الغلمان pedophilia»[٤]. هنا يجبر أطفال الهنود في كل لحظة على مواجهة الحقيقة المرة، وهي أنهم هم وأهلهم وكل من تبقى من شعوبهم على قيد الحياة عاجزون عن منع الإذلال أو الإهانة أو أي شكل من أشكال العدوان عليهم لأنهم ضعفاء ظنوا أن «السلام» سيوقف المذبحة، ولأن سلطتهم الوطنية في «مكتب الشؤون الهندية» ليست إلا أحد أسلحة الغزاة. صار من مسلّمات حياتهم الجديدة أن يتعرضوا لهذا العدوان في أية لحظة لأنه حق من حقوق مفترسيهم الذين يعملون ناظرين ومشرفين ومعلمين ومبشرين وكلاء عن الله.

أمام هذا «الإرهاب الجنسي» الذي اعتمدته سلطات المدارس كلها بدون استثناء لم تقتصر معاناة الطفل على صدمة عاطفية أو أمراض نفسية وجنسية، بل كان عليه حتماً

أن يفقد الأمل في المقاومة وأن ينهار كليّاً وتنهار معه كل هنديته فلا يبقى أمامه إلا أن ينتحر أو أن يستسلم لشهوات رسل الحضارة. إنها في النهاية إحدى حتميات «فكرة أميركا» المستعارة من فكرة إسرائيل التاريخية. فالاستعمار الجنسي للشعوب الأميركية الأصلية وجرائم الاغتصاب والعنف الجسدي التي مدّن بها شعب الله الإنكليزي ضحاياه من السكان الأصليين ظواهر طبيعية، ذلك لأن بنية الاستعمار الإنكليزي لشمال أميركا، أي فكرة أميركا نفسها، فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، صيغت من مادة وأخلاق الاغتصاب والعنف الجنسي. وهي لا تزال إلى الآن ترسم سياسة الزنابير وأخلاقهم تجاه سكان مستعمراتهم من سيدني إلى واشنطن ومن نيوزيلاندة إلى بغداد(٥).

الدراسات الإحصائية لظاهرة الاغتصاب في مدارس الأطفال الهنود حديثة نسبياً. فتقرير المجلس القبلي لهنود كاريبو Cariboo (١٩٩١) يذكر استناداً إلى شهادات ١٨٧ تلميذاً أن ٨٩ منهم تعرضوا للاغتصاب، ورفض ٦٠ تلميذاً الإجابة، بينما قال ٣٨ تلميذاً إنهم لم يتعرضوا(٦). أما التقرير الذي أعدته وزارة الصحة عام ١٩٩٣ فيقول إن نسبة اغتصاب الأطفال في بعض هذه المدارس، ما بين أعوام ١٩٥٠ و١٩٨٠، كانت عامّة طامّة (١٠٠٪) لم يَستثنِ أحداً منهم أو منهن(٧).

وهناك تقرير يعود إلى عام ١٨٩٠ يتحدث عن راهبات إنجيليات في مدرسة Moose Factory Indian Residential School كُنَّ يُدخلن أطفال الهمجية معهن إلى الحمّام (.. إلخ). ويروي، نقلاً عن شهادات التلاميذ، كيف كنّ يتلوين أمام هؤلاء الأطفال ويتأوهن وهنّ يعلمنهم دروساً في المدنية(٨). أما آرثر بلينت Arthur Henry Plint الناظر الأبيض في مدرسة Alberni، فقد اعترف أثناء محاكمته بأنه «مدّن» كل الأطفال الذين كانوا تحت نِظارته وهم بين السادسة والثالثة عشرة. وأقر بأنه فعل ذلك منذ اللحظة التي تعيّن فيها حتى لحظة تقاعده (١٩٤٨ ـ ١٩٦٨)، وبشكل يومي تقريباً(٩).

وحين بدأت الدعاوى تزداد، والفضائح تنتشر وتذاع يومياً في أوائل تسعينيات القرن العشرين، أدار الزنابير أسطوانة «التحقيق في الأمر» فتشكلت لجان تحقيق كثيرة لم تُدِنْ أحداً(١٠)، بل خلصت كعادتها إلى أن هذه الحوادث فردية منعزلة غريبة عن

طريقة الحياة الأميركية. ثم انتخى الكونغرس فسنّ قانون «حماية الطفل الهندي The Indian Child Protection Act» الذي ينَصّ على ضرورة إجراء تحقيقات دقيقة وصارمة. قبل تعيين أي موظف أو أستاذ في هذه المدارس. غير أن هذا القانون الذي لم يُسَلَّح بميزانية كافية ولم يحظ برغبة صادقة في تطبيقه ظل حبراً على ورق. وأخيراً رصد الكونغرس ٣٥٠ مليون دولار لشراء صمت الضحايا، فأنشأ مؤسسة وقفية لتطييب الخواطر Aboriginal Healing Foundation كانت مصيدة زنبورية جديدة راحت تساوم الضحايا المشاغبين على صمتهم وعلى ما يطلبونه ثمناً للتنازل عن هنديتهم(١١).

□ □ □

قصة دوني وكونراد ليست إلا مشهداً سريعاً واحداً من أحشاء «فكرة أميركا»؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. كل هندي في أميركا اليوم هو إما «دوني» أو إنسان آخر يبكيه. إن حياة هؤلاء الهنود هي مكابدة يومية مع ما جنته عليهم مدارس المدنية على مدى خمسة أجيال من افتراس لممتلكاتهم وتاريخهم وثقافاتهم وأديانهم وهوياتهم لا يقل عنجهية عن افتراس أعراضهم.

استباحة الجسد الهندي المكنعن بالقوة على مدى خمسة قرون من الاستعمار الجنسي الذي وصمَ فيه الغزاةُ هذا الجسد بالنجاسة والقذارة الفطرية عبّرت عنه الشاعرة كريستو Chrysto (من هنود مينوميني):

حدثِتِني [يا جدتي العجوز] أن كل من شاورتِهنّ

من بنات جنسنا يخفن أن يكنّ هنديات

لأن رجلاً أبيض اغتصبهن

أو قتل أخاهن

أو طاردهن في الطرقات

أو أهانهن، أو فعل كل هذه الموبقات بهن.

هذا خبزنا، خبز البغضاء

نأكله [منذ مجيء الإنسان الأبيض] كل يوم
حتى أنا، صرت أكره في بعض الأحيان
أن أكون هندية[١٢].

هنا أيضاً لجأت «فكرة أميركا» إلى تبرير هذا الاغتصاب أخلاقياً، وذلك بالعودة إلى نبعها الأول ومثالها الأعلى: «فكرة إسرائيل التاريخية». لم تكتف مخيلة الزنابير بمسخ أجساد الهنود إلى «حثالات دميمة تدب مع الهوام والحشرات»، أو بالتوحيد بينها وبين القذر، بل استمدت كل صور هذا المسخ والتشنيع والاستباحة من صورة الكنعاني [الفلسطيني] كما رسمها العبرانيون في أساطيرهم. لقد ظلت على مدى أربعة قرون «تشبّه أجساد الهنود بأجساد الكنعانيين الدنسة التي أحل الله لشعبه أن يفعل بها ما يشاء»[١٣] وتنسج من هذا الإسقاط كل الأخلاق اللازمة لأن تسلبهم أوطانهم وتفتك بثقافاتهم وأرواحهم وأعراضهم وهي مرتاحة الضمير مطمئنة إلى أنها تطيع أوامر ربها وتطمع في ثوابه.

منذ أولى موجات غزو شعب الله الإنكليزي لشمال أميركا، استشنع الكاهن المستوطن ألكسندر ويتيكر» Alexander Whitaker (1613) الملقب برسول مستعمرة ڤرجينيا «Apostle of Virginia» أجساد الهنود فأسقط لعنة الكنعانيين على سكان أميركا الأصليين ووصمهم هم أيضاً بأنهم: «يعيشون عرايا الأجساد، ولا يستحيون من فواحشهم... إن أسماءهم فاجرة كأجسادهم لأنهم يعبدون الشيطان.. وإلههم يشبه الوحش» [١٤]. أما والتر ريليه Walter Relegh أحد أنبياء الاستعمار الإنكليزي الأوائل فشبّه أميركا بالفتاة الجميلة العذراء التي لم يمسسها بشر، ودعا شعب الله لأن يفض بكارتها ويقطف جمالها دون حرج[١٥].

في ١٩٨٢ سوّقت شركة ميستيك Mystic لعبة فيديو إباحية للبالغين بعنوان «انتقام كَستر Custer Revenge» حيث يربح اللاعبون الذين يتقمصون شخصية الجنرال الدموي جورج كستر George Armstrong Custer نقطةً في كل مرة يغتصبون فيها الفتاة الهندية. وشعار اللعبة هو «سجّل إصابة[؟] واربح». ومما جاء في دليل اللعبة:

أنت الجنرال كَستر. غضبُك الآن في أوجه. مسدسكَ مُصوّب. لقد اصطدتَ

فتاة هندية فاتنة وقيّدتها. ولديك الآن فرصة لإعادة كتابة التاريخ[!] وكسب نقاط جديدة. هاهي الفتاة الهندية أمامك مقيدة اليدين، لكنها ترفض أن يفترعها [الجنرال] جورج [كستر...] إذا كنت تريد أن تنتقم فعليك بالمجازفة والجسارة [...] الانتقام عذب[١٦].

ولا تزال أسطورة «لعنة كنعان [الفلسطيني] ونسله» إلى اليوم تسكن نخاع الزنابير وترى «أن الهنود الحمر والكنعانيين تجسيد حي للفاحشة الجنسية، وأنّ أجسادهم وأرواحهم نجس، لا حرمة لها، وأنهم لهذا يستحقون التدمير الجماعي» [١٧]. وهي أسطورة أسقطوها على كل فريسة من فرائسهم، وجعلوها رمزاً لكل قربان يمجدون به «الرب الأبيض». لهذا قرنوها بالعنف المقدس الذي أفرغوا به قارتين كاملتين ومئات الجزائر من سكانها دون أن يرف لهم جفن. فما دام أن هذا الآخر الكنعاني لا يتنازل عن أرضه وثقافته طوعاً فلا بد إذن من العنف المقدس، ولا بد من التسامي بهذا العنف لجعله فضيلة أخلاقية. ليس غريباً إذاً أن يغضب الزنبور لأي مسّ بمشاعر الكلاب ولا يرف له جفن أمام قتل أو تعذيب الآخر «الكنعاني»، فالكلاب في النهاية حيوانات أليفة أما الكنعانيون فليسوا كذلك.

مع رواج تجارة العبيد حُشرت أجساد الأفارقة أيضاً في أحشاء هذه الأسطورة العبرانية. وسرعان ما جعلها شعب الله الإنكليزي قرابين نذرها الرب للعبودية[١٨]. فمنذ الموجة الأولى نجد أن كوتون ماذر Cotton Mather، أحد أقدس أنبياء الاستعمار الإنكليزي لأميركا استخار الأساطير العبرانية ليصبّ لعنة الله على الأفارقة ويسوقهم جميعاً إلى المسلخ الكنعاني. و«هناك أساطير كثيرة عن انتشار لون السواد في وجه كنعان بمجرد أن حلت عليه اللعنة، وعن انديزاح هذا السواد في أجساد نسله إلى الأبد». فالأفارقة، وفقاً لهذه الأنثروبولوجيا الزنبورية «من نسل كنعان إبن حام الذي طرده يشوع من فلسطين إلى أفريقيا» لينجب لشعب الله الإنكليزي ٦٠ مليون «عبد» كنعاني[١٩]، قضى معظمهم في المحيط طعاماً لسمك القرش. وقد شهد العصر الذهبي لشحن العبيد تتويجا دموياً لهذه الأسطورة حين أحل شعب الله الإنكليزي لنفسه أكل لحم عبيده. فحين تحطمت سفينة تدعى Tiger ونفد الزاد منها، لمعت عينا القبطان على لحم العبد الشاب إشارة إلى ضرورة أن تقع القرعة عليه. وكانت العادة، عندما يجوع البحارة أن يُجروا قرعةً بينهم لاختيار من يقتلونه ويأكلونه لإنقاذهم من الموت جوعاً.

هكذا «فاز» العبد الكنعاني بهذه القرعة فذبحوه وشربوا دمه وأكلوه مبتدئين بقلبه وكبده[٢٠].

بهذه الكنعنة القيصرية لأفريقيا، ولكل أرض استعمرها الزنابير، أحلوا لأنفسهم اغتصاب نساء العبيد السود وأطفالهم. ثم إنهم وجدوا في ذلك استثماراً رابحاً للأطفال الذين ستضعهن أمهاتهن عبيدا. فالإغتصاب الجنسي للجسد الملوّن، أفريقياً كان أم هنديا، أقصر الطرق لزيادة قطيع العبيد لدى السيد الأبيض، بل وأرخصها أيضا، ولطالما رددوا إنه لا يوجد شيء إسمه فتاة عفيفة ملوّنة إذا ما بلغت الرابعة عشرة من عُمْرها[٢١].

ولا يزال هؤلاء الزنابير إلى الآن يشبهون الكنعانيين السود (ومعهم المصريون أيضاً!) بالقرود، ويقولون إنهم «يشربون من المراحيض»، ويعتبرون قتلهم أو اغتصابهم أحياء أو أمواتاً عملاً أخلاقياً نبيلاً ومباحاً[٢٢]. بل إن هناك اعتقاداً شعبياً بأن «أكل لحم الإنسان الأسود يقوي الباه ويطيل العمر» كما سأبين لاحقاً.

وهناك شهادات كثيرة عن هذا التمدين والتطهير بالاغتصاب الجنسي للفتيات المكنعنات، تروي إحداها عذاب شقيّةٍ ملوّنة عثر بها الحظ فوُلدت سوداء في إسرائيل الله البيضاء.

تقول الشهادة: إن السيّد الإنكليزي الأبيض:

> ظل يسوطها بالكرباج لمدة أربعة أشهر، بل وفي المرحلة الأخيرة من الحمل والوضع والطّهر، وكان يقيدّها بسلاسل الحديد [...] ويكويها بالنار ويجلدها بالعصا والسوط مرة، بعد مرة، بعد مرة، مما أدى إلى كشح جلدها. كان يُجبرها على العمل في عضّة صقيع الشتاء، ويمنع عنها الطعام، ويرهقها بأعمال لا تطيقها لأنها لم تستجب لرغبته. وقد أصر على أن ينالها حية أو ميتة فسامها العذاب إلى أن فارقت الحياة» [٢٣].

هذا العنف المقدس الذي لا تعيش أسطورة لعنة كنعان إلا به ينبض في كل جارحة من جوارح الزنابير. إنهم يرضعونه في البيت والمدرسة والكنيسة والسياسة والإعلام. ولربما أن تمظهره الفردي من آن لآن يرسم صورة مصغّرة لما يعنيه العنف الجماعي

المقدس الذي تعيش به «فكرة أميركا» المستعارة من فكرة إسرائيل التاريخية. في (١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٨)، مثلاً، توفي في سجن ولاية مونتانا Montana State Prison زنبور يدعى نتنيال بارجونا Nathaniel Bar-Jonah. وبارجونا واحد من هذه الصور المصغرة عن مادة الاغتصاب والافتراس التي صيغت منها فكرة أميركا. وكان الرجل قد اغتصب عدداً كبيراً من هؤلاء الأطفال المكنعنين بالقوة ثم ذبحهم. وهذا أمر مألوف تقرأ قصصه بانتظام في الصحف المحلية. لكن اغتصابه للطفل الملون زاك رامزي Zach Ramsey كان حدثاً أكثر من عادي. إنه تعبير فاقع عن مركزية هذه الأسطورة العبرانية في أخلاق الزنابير وفي فكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. لم يكتف «نتنيال بارجونا» بالاعتداء الجنسي على الطفل بل ذبحَه وطبخَه وأولم على جثته وليمة لجيرانه وبينهم أهل الضحية[٢٤].

Bar-Jonah had butchered the boy and disposed of his body in meals served to neighbors.

ولم يكن ما يسمى بآباء أميركا المؤسسين بأحسن حالاً، فبنجامين فرانكلين Benjamin Franklin «مخترع فكرة الأمة الأميركية» مثلاً، اغتصب امرأة سوداء حملت منه طفلاً. وقد أجبر زوجته على رعايته في البيت، بينما اضطرت أم الولد للعمل في بيت فرانكلين خادمة لتبقى قريبة من طفلها[٢٥].

كان هذا ديدن شعب الله الإنكليزي حيثما أراد تمدين الوحوش والملونين الكنعانيين على اختلاف ألوانهم وأصقاعهم، من أستراليا ونيوزيلنده إلى ألاسكا، ومن جنوب أفريقيا إلى العراق. ففي أستراليا مثلاً «حكم القاضي الأبيض بأن اغتصاب رجل في الخمسين لفتاة من السكان الأصليين في الخامسة عشرة ليس جريمة ولا يتعارض مع الأخلاق»[٢٦]. كما تصف كاثرين بيبر Katherine Biber أستاذة القانون في جامعة مكوايري Macquarie بسدني كيف أن كنعانيي أستراليا «أُنذِروا المرة بعد المرة بأن سرقة أطفالهم، وسرقة أراضيهم، وسرقة أجورهم لا يعاقب عليها القانون»[٢٧].

إن وصف «الآخر» بالكنعاني، سواء في الأساطير العبرية المقدسة أو في تطبيقاتها التاريخية في العالم الجديد أو أستراليا أو جنوب أفريقيا أو أي مكان آخر زحف إليه

الشعب الإنكليزي المختار يعني الاستباحة المطلقة لحرية هذا الآخر وأرضه ورزقه وجسده وحياته، وتحويله إلى «فريسة». إن كل لغات الأرض لم تعرف ما يضاهي هذا المفهوم القرباني الذي استعاره شعب الله الإنكليزي من الأساطير العبرانية ليجعل من نفسه جلاداً مقدساً في كل كنعان جديدة رست سفنه على شواطئها.

على الضفة الأخرى من هذه الإنسانية نجد ثقافة أخلاقية مختلفة عند هؤلاء الضحايا الذين لا يكف الزنابير عن اتهامهم بالوحشية وأكل لحم البشر. وهناك شهادات كثيرة كتبها الغزاة أنفسهم عن بعض تفاصيل هذه الثقافة الأخلاقية المختلفة، أدت في كثير من الأحيان إلى هرب نساء البيض للعيش بين الهنود. فالجنرال جيمس كلينتون Major General James Clinton مثلاً يقول لجنوده قبل إرسالهم لتدمير شعب الإروكوا Iroquis عام ١٧٧٩: «برغم بشاعة هؤلاء المتوحشين فإنهم لا يعتدون أبداً على عفاف امرأة أسيرة لديهم»[٢٨]. بينما ترسم الأسيرة ماري رولاندسون Mary Rowlandson مشهداً حياً لذلك الحس الأخلاقي النبيل الذي اعتبرته مِن نعم الله عليها في الأسر، وستشهد به أمامه أيضاً، فتقول:

> «لقد أنعم الله عليّ بما كنت أتمنى... كنت في وسط أسود تزأر... أسود لا تخاف الله ولا الإنسان، ولا الشيطان، ومع ذلك لم تصدر من أحد منهم إساءة لعفافي، لا قولاً ولا فعلاً، لا نهاراً ولا ليلاً، سواء كنتُ وحدي أو مع آخرين. نعم. هناك من سيظن بأنني أقول هذا صيانة لعرضي. ولكن ليعلموا أن هذا ما سأشهد به أمام الله»[٢٩].

وتروي المؤرخة جون نَمياس June Namias عدداً من حوادث الأسر التي ترفض فيها المرأة البيضاء العودة إلى مستوطنتها، وتصر على البقاء مع الهنود[٣٠]. وتعزو ذلك إلى أن المجتمعات الهندية ليست كالأوروبية ذكورية patriarchal، ولهذا تشغل فيها المرأة دور القيادة الروحية أو السياسية أو العسكرية[٣١].

هذه الثقافة الأخلاقية المختلفة عَرّضتْ المجتمع «الحضاري» إلى بعض التحديات الحرجة أحياناً، ففي ١٨٩٩ كتبت صحيفة سيراكيوس هيرالد *Syracuse Herald-Journal* افتتاحية جريئة قارنت فيها بين منزلة المرأة في المجتمعين، واتهمت المجتمع الأبيض بالتخلف، فقالت:

«لا يزال المجتمع الأبيض إلى الآن متخلفاً عن مجتمع الإركوا Iroquis بالنسبة للمرأة، بل إنه غير مؤهل للنسج على منواله. إن لنساء الإروكوا منزلة شعبية محترمة ومركزاً متنفذاً. فلديهن مجلس خاص بهن... يتخذ مبادرات وقرارات خاصة بالقضايا العامة. وإن القضايا التي يتناولنها تحال إلى الزعماء والحكماء من الجنسين حيث توفَد امرأة من المجلس لتعرض هذه القضايا أمامهم. وهناك نساء زعيمات. إن المرأة تملك كل شيء، وهي صاحبة القرار النهائي في الأسرة»(٣٢).

بعد ثلاثة أيام، جاء رد الزنابير على هذا «التحدي» تحت عنوان «كغيرهم من أكلة لحوم البشر Like Other Cannibals» ليعبر عن ثقافة «أخلاقية» أخرى نابعة من «فكرة أميركا» المستعارة حرفياً من «فكرة إسرائيل التاريخية» ؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. فالمرأة الهندية كما يقول الرد:

مهما كان مركزها هي جزء من ذلك المجتمع [الذي] يأكل لحم البشر!. ثم إن الإنسان الأبيض في النهاية لا يتقذر أو يغتصب أو يسحق جسد العِرق الأضعف inferior race عبثاً بل من أجل تمدينه وتحرير روحه(٣٣).

وتحرير الروح من الجسد الكنعاني النجس تقليد عريق من تقاليد فكرة أميركا فكرة. في عام ١٨٦٢ مثلاً تسلت مجموعة من المستوطنين بامرأة هندية عجوز «فلما تعبوا قتلوها وسلخوا فروة رأسها وشقوا حلقها ومثلوا بجثتها بصورة [والكلام للمؤرخ جيمس راولس James Rawls] لا أستطيع الكتابة عنها، ثم قالوا لها: الآن تحررت روحك»(٣٤).

الهوامش

(١) Tinker, p. xviii.

(٢) هذا السيناريو الذي يرويه تينكر يكاد يكون مثالياً لكل قصص الاغتصاب التي سرد كثيراً من تفاصيلها «مَجْلِس الأمم الأولى Assembly of First Nations» في: *Breaking the Silence:* An *Interpretive Study of Residential School Impact and Healing as Illustrated by the Stories of First Nations Individuals* (Ottawa: Assembly of First Nations, 1994).

وكذلك في كتاب ذي عنوان يروي القصة كلها: «مسروق من أحضاننا: خطفُ أولاد الأمم الأولى...»:

Suzanna Fournier and Ernie Crey, *Stolen from our Embrace; The Abduction of First Nations Children*... (Vancouver, B. C.: Douglas and McIntyre, 1997).

(٣) لعل هذه واحد من الأسباب التي جعلت نسبة الإدمان على الكحول والانتحار بين الهنود أعلى نسبة في الولايات المتحدة. أما عن انتحار الأطفال الهنود بسبب اغتصابهم في هذه المدارس، فانظر الفصل الذي كتبه سي. إي. إليوت C. A. Elliot بعنوان: الانتهاك الجنسي والجسدي لأطفال الهنود في:

Sexually and Physically Abused Native Youth, David Lester, ed., *Suicide* 92 (Denver: American Association of Suicidology, (1992. pp. 61-62).

(٤) Agnes Grant, *No End of Grief: Indian Residential Schools in Canada*. (Canada, Pemmican Publicátions), 1996, p. 229.

(٥) See "Not an Indian Tradition: The Sexual Colonization of Native Peoples", *Hypatia, A Journal of Feminist Philosophy*-Volume 18, Number 2, Spring 2003, pp. 70-85.

وهناك شواهد كثيرة لتشبيه المستعمرين الأوائل «أميركا» بفتاة جميلة بكر يحق لشعب الله أن يفترعها. انظر مثلاً:

Giles Gunn, *New World Metaphysics: Readings on the Religious Meaning of the American Experience* (Oxford University Press, USA, 1981), p. 28.

قدمت فكرة إسرائيل التاريخية للحركة الاستعمارية الإنكليزية ولفكرة أميركا كل ما تحتاجان إليه من حجج ومعاذير أخلاقية وشرعية، وأضفت عليهما طابعاً مقدساً أشبه بالواجب الديني. هذا ما يجعل فكرة إسرائيل في ثقافة كل زنبور قدس الأقداس. إنه قد يكفر بالسيد المسيح ويلحد بالله ويكره اليهود ويحل لنفسه التمرد على كل المقدسات لكنه أبداً لا ينزل فكرة إسرائيل عن عرشها المقدس في أعلى البانتيون الأميركي. صحيح أن المبررات الرسمية لحركة الاستعمار الإنكليزية اعتمدت على الأفكار التي استمدها مفكرون وفلاسفة مثل هوغو غروتيوس Hugo Grotius وجون لوك John Locke من «القانون الطبيعي»، لكن غزاة العالم الجديد تبنوا أعذاراً ومبررات مختلفة لا تمت إلى القانون الطبيعي

بصلة. لقد قدمت فكرة إسرائيل التاريخية لهم بديلاً عن القانون الطبيعي وسابقة فريدة تقدس احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، تلك الفكرة التي قامت عليها أميركا وورثتها مذاهبها وأيديولوجياتها بدءاً من «القدر المتجلي Manifest Destiny» وانتهاء بما يسمى اليوم بالوطنية، والدين المدني. أنظر:

Richard Wasawo, "The Formation of Natural Law to Justify Colonialism", *New Literary History* 27 (1996): 743-59; Barbara Arneil, "The Wild Indian's Venison: Locke's Theory of Property and English Colonialism in America", *Political Studies* 44 (1996): 60-74. Robert Williams Jr., *The American Indian in Western Legal Thought* (New York: Oxford University Press, 1990); J. H. Parry, *The Age of Reconnaissance* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1996), 303- 20; David Armitage, *The Ideological Origins of the British Empire* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), esp. 61-99.

(٦) J. R. Miller, *Shingwauk's Vision: A History of Native Residential Schools*, (University of Toronto Press, 1996), p333.

(٧) *Toronto Globe and Mail*, June 1, 1990.

(٨) Roy MacGregor, *Chief: The Fareless Vision of Billy Diamond* (Toronto, Canada, Penguin, 1998), p.24.

(٩) Suzanna Fournier and Ernie Crey, *Stolen from our Embrace*, p. 71.

(١٠) «معظم هؤلاء المفترسين كانوا يعرفون تماماً أن لديهم حصانة عندما يعتدون جنسياً على الطفل الهندي. فقبل سنوات قليلة، كما يذكر تقرير *American Indian Report* الذي يصدر عن معهد Falmouth أخلي سبيل أحد هؤلاء المرضى بعد القبض عليه متلبساً ليعود إلى ممارسة جرائمه الجنسية من جديد في نفس المدرسة التي فتك فيها بأطفال الهنود على مدى سنوات طويلة.

Jeff Hinkle, "A Law Hidden Failure", *The American Idian Report*, Vol. xix, No. 1 (2003).

وفي عام ١٩٨٧ تبين لمكتب التحقيقات الفيدرالي أن جون بون John Boon المعلم في مدرسة أطفال هنود الهوبي Hopi بأريزونا قد اعتدى جنسياً على ١٤٢ طفلاً، وأن إدارة المدرسة التابعة مباشرة لمكتب الشؤون الهندية لم تحقق، ولم تحرك ساكناً.

Frederick M. Binder and David M. Reimers, *The Way We Lived: Essays and Documents In American Social History*. 4th edition, Volume I, 1877-1492 (New York: Houghton Mifflin Company, 2000).

وبرغم كثرة الشكاوى والاحتجاجات فإن مكتب الشؤون الهندية (السلطة الوطنية الهندية) الذي يفترض بأنه المرجع الأعلى لهذه المدارس كان كالشيطان الأخرس فقد ظل ينكر، ويرفض التحقيق أو التعرض لهذا الوباء. أما تقريره الأول فكان في عام ١٩٨٩، أي بعد مضي مائة وعشر سنوات عانى

فيها خمسة أجيال من أطفال الهنود من التمدين الجنسي في مدارس السلطة الوطنية الهندية نفسها. راجع في هذه الوباء المُعْدِي:

The American Indian Report, Vol. xix, No 1. (2003) and *The American Eagle*, No 2., 1994.

(١١) Ibid, p. 77.

(١٢) Chrystos, *Fugitive Colors* (Cleveland State University Poetry Center, April 1995).

(١٣) H. C. Porter, *The Inconstant Savage* (London, Gerald Duckworth &Co, 1979) pp. 91-115; A. Albert Cave, "Canaanites in in the Promised Land", *American Indian Quarterly*, Fall 1988, p277-297; Ronald Sanders, *Lost Tribes and Promised Lands* (Boston: Little Brown, 1978) pp. 46, 181, 292.

وتروي الباحثة الشيروكية Andrea Smith في كتابها *Conquest* أمثلة كثيرة عن هذا «التشييء» للجسد الكنعاني / الهندي المستباح ، منها أن جيم تومبسون Jimm Thompson حاكم ولاية إلينوي Illinois رفض في عام ١٩٩١ تغطية مقبرة هندية كانت الولاية قد فتحتها لعرض الجثث الهندية للعامة، ووجه رسالة إلى المحتجين مفادها أن عرض الهنود أحياء وأمواتاً مقبول. راجع:

Andrea Smith, *Conquest*, p. 11.

(١٤) Giles Gunn, *New World Metaphysics: Readings on the Religious Meaning of the American Experience* (Oxford University Press, USA, 1981), p. 43.

(١٥) Ibid., p. 29.

(١٦) عن نشرة إعلانية مرفقة مع الفيديو. والجنرال كستر من أكثر جنرالات الزنابير دموية وفتكاً بالهنود. ومن مآثره مذابح كثيرة منها مذبحة Little Big Horn ومذبحة هنود الشايين Cheyennes العزّل من السلاح على ضفة نهر Washita في أوكلاهوما. هناك سطا في البداية على كل ما لديهم من ماشية ومؤونة ولحم مقدد وطحين وملابس، ثم قتل شيوخهم ونساءهم وأطفالهم وأحرق القرية والحقول المزروعة حولها بمن فيها وما فيها. وقد قُتل مع أخويه وسريتهم في عام ١٨٧٦ أثناء عدوانهم على هنود السهول. ويعتبر كستر من أعظم أبطال التاريخ الأميركي في الكتب المدرسية، وله ـ تمجيداً لتاريخه ـ مدن وقرى وغابات ونصب وتماثيل وشوارع باسمه في كثير من الولايات الأميركية.

(١٧) Andrea Smith, "Rape and the War Against Native Women," in Ines Hernandez-Avila, ed., *Reading Native American Women: Critical/Creative Representations* (AltaMira Press, 2005), p. 64; Stan Hoig, *The Battle of Washita*, .(Norman, University of Oklahoma Press, 1976), pp. 137-139.

(١٨) أصدر كتبة الأساطير العبرانية حكماً أبدياً على كنعان ونسله بأن يبادوا أو أن يكونوا عبيداً للشعب المختار. وقد وصفته هذه الأساطير بأوصاف كثيرة من هذا الجنون العنصري الذي سكر بخمره كل تاريخ الاستعمار والعنصرية والتمييز والإبادات الجماعية. انظر «التكوين»: ١٩: ١ ـ ٣٨ و ٩: ٢٢ ـ ٢٧ و٢٨: ٢١ ـ ٢٢، و«التثنية» : ٢٨: ١٨، و«الملوك الأول» : ١٤: ٢٤، والثاني: ٢٣: ٧،

و«عاموس»: ٢: ٧.

(١٩) Cotton Mather, *Magnalia Christi Americana Or The Ecclesiastical History Of New England V1: From Its First Planting In The Year 1620 Unto The Year Of Our Lord* 1698 (Hartford: Silas Andrus and Son, 1858), Vol. 2, p. 440.

وعن أساطير انتشار لون السواد في وجه كنعان أنظر مثلاً:

David M. Goldenberg, *The Curse of Ham: Race and Slavery in Early Judaism, Christianity, and Islam* (Princeton University Press, 2003), p. 100, 171.

أما بالنسبة للرقم ٦٠ مليون، فقد تردد كثيراً في كتب ما يعرف بـ Middle Passage. وأخيرا ذكرته محطة CNN في معرض حديثها عن تجارة العبيد من أجل الجنس. انظر:

"Tackling London's sex slave shame," March 19, 2007. http://edition.cnn.com/2007/WORLD/europe/19/03/slavery.vanmarsh/index.html

(٢٠) W. Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law: The Story of the Tragic Last Voyage of the Mignonette and the Strange Legal Proceedings to Which It Gave Rise* (Chicago and London, Chicago University Press, 1984, p. 122.

(٢١) Angela Davis, *Women, Race and Class* (New York, Vintage, 1981). Quoted by Andrea Smith, *Conquest* p. 16.

(٢٢) هناك مئات النشرات اليومية والإلكترونية المليئة بمثل هذه البذاءات، لكنني أحيل القارئ على مصدر واحد قريب المتناول:

http://intolerant.wordpress.com /15/08/2007fuck-dead-niggers/ وسيجد القارئ في هذا الموقع صوراً توليفية (كولاج) لوجه أفريقي بجسد غوريلا، ونصباً مُذهّباً لتوت عنخ آمون وقد استبدل وجهه بوجه قرد.

أنصح بقراءة:

Charles S. Johnson, *Bitter Canaan, The Story of the Negro Republic*, (Transaction Publishers; New Ed. 1987).

(٢٣) Eugene Genovese, *Roll, Jordan, Roll* (New York, Vintage, 1976). Quoted by Andrea Smith, p. 16.

ولا يزال أطفال الفقراء في أميركا إلى الآن عرضة لهذا التشنيع الكنعاني الذي رسم الأخلاق اللازمة للاعتداء على ٤٠٠ طفل منهم في شهر واحد فقط من عام ٢٠٠٧ في مدينة لاس فيغاس. أنظر:

Boston Metro (AP), March 26, 2008. p. 6.

(٢٤) See: New York Times, "Charges Dropped In Child Killing," October 3, 2002, *Boston Now*, April 14, 2008; Great Falls Tribune, "Judge to hear testimony on Bar-Jonah's request for new trial," June 13, 2006.

(٢٥) Shelley Ross, *Fall From Grace: Scandal and Corruption in American Politics from 1702 to Present* (New York, Ballantine Books 1988). pp. 7-8.

(٢٦) http://www.feminist.com/news/news.126html

(٢٧) Katherine Biber, "Cannibal and Colonialism," *Sydnie Law Review*, 2005 Vol 27. p. 625.

(٢٨) William L. Stone, *Life of Joseph Brant-Thayendanegea Including The Indian Wars Of The American Revolution*, 2 vols. (New York: A. V. Blake, 1838), Vol. I, p. 404.

(٢٩) Mary Rowlandson, *Narrative of the Captivity and Restoration of Mrs. Mary Rowlandson* (Boston, Mass. Sabbath School Society, 1856). p. 109.

(٣٠) June Namias, *White Captives: Gender and Ethnicity on the American Frontier* (Chapel Hill University of N. Carolina Press April 1, 1993, pp. 21-46.

(٣١) Smith, *Conquest*, p. 18.

وفي كتابه «مقابلة مع الحُجاج» ، يقول المؤلف إن القانون الإنكليزي لا يسمح للمرأة بحضور الاجتماعات الحكومية. فالنساء ليس لهم صوت سياسي. إنهن في الواقع ليس لهن حق من أي نوع كان. إنهن كالأطفال مواطنات من الدرجة الثانية».

Robert Loeb, *Jr., Meet The Real Pilgrims* 1979, pp. 16-17.

وأرجو أن لا يفهم من هذه الشواهد أنني أسوقها لتبرير الوضع المأساوي للمرأة في بلادنا.

(٣٢) Onondoga's Early History," *The Syracuse Herald-Journal*, Feb 5. 1899.

(٣٣) Ibid., Feb 8 1899.

ولا تزال هذه الثقافة الأخلاقية المتعنجهة سائدة بين الزنابير حتى هذه الساعة. فأول ما أعلنة الرئيس بوش بعد غزو العراق «أن العراق تحرر اليوم من غُرف الاغتصاب» (٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠)، وكذلك أعلن مفوضه السامي بول بريمر «أن العراقيين الآن لم يعودوا يخافون أن تساق زوجاتهم إلى غرف الاغتصاب» (٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣). وكذلك كان تدمير العراق وأفغانسان بالنسبة للسيدة الأميركية الأولى لورا بوش أيضاً «من أجل تحرير المرأة وكرامتها» . وفي مقال ساخر في **الغارديان**: «ماذا فعل جورج بوش للمرأة؟» ذكرت الكاتبة أن الإدارة الأميركية تدعي أن احتلال نظام الإحتلال قصور صدام كان بسبب إمعان النظام البعثي في اغتصاب النساء.

Laura Flanders, *The Guardian*, Friday March. 26, 2004.

(٣٤) James Rawls, *Indians of California, The Changing Images*, (University of Oklahoma Press, 1986), pp. 181-182.

الفصل الثالث

من يأكل لحم البشر؟

«القضاة [الإنكليز] في القريب العاجل سيقرون أكل لحم البشر ويجعلونه بديلاً طبيعياً لدفن الموتى».

وليم هاركورت

وزير الداخلية البريطاني ١٨٨٠ ــ ١٨٨٥

«الاعتقاد السائد لدى الإنكليز بأن أكل لحم الرجل الأسود يقوي الباه ويطيل العمر».

غانانت أوبيسيكير (أبرز علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين، وأستاذ هذه المادة في جامعة برنستون)

... أما إدمان الزنابير على اتهام ضحاياهم من بيض إيرلندا وشقر وايلز Wales إلى ملوّني العالَم الكنعاني الذي لا تغيب عنه الشمس بأنهم يأكلون لحم البشر cannibals فمسكون بتلك البارانويا الإنكليزية التي يقول عنها دافيد ستانارد David Stannard أحد أبرز أعلام الدراسات الأميركية إنها لا تمل من التبجح بأن:

«الإنكليز أكثر أهل الأرض تحضراً، وأن لديهم إيماناً لا يتزعزع بقول أوليفر

كروموبل: إن الله رجل إنكليزي God to be an Englishman. لهذا فليس مفاجئاً أن يتهموا الإيرلنديين بأنهم [...] يعيشون على نوع من الأعشاب، ويأكلون في المناسبات الخاصة من لحم البشر أو من لحم أمهاتهم اللواتي كانت لهن أذناب طويلة، وكن متوحشات يأكلن أطفالهن»[١].

كذلك اتهموا عشيرة كِندي نفسها بأنها كانت تأكل لحم البشر، وقالوا إن الإيرلنديين عموماً يشربون دم من يحبون[٢]، ثم ألصقوا التهمة بعدوهم نابليون بونابرت أيضاً، فصوروه لأطفالهم على شكل زنجي أسود يأكل لحم الأطفال الأشقياء[٣].

في ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٧، عشت مع السكان الأصليين[٤] فصلاً موجعاً من فصول هذه البارانويا. فقد كنت مع الشاعرة الهندية كارين وود Karenne Wood في ثغر بحري من ثغور فيدرالية بوهاتن Pawhatan Confederacy التي كانت امبراطورية تزيد مساحتها على مساحة الجزيرة البريطانية وتضم ٣٠ شعباً هندياً أبيدوا عن بكرة أبيهم فلم يبق منهم بعد أقل من قرن أكثر من ٦٠٠ إنسان[٥]. وكنا في ذلك اليوم الحزين على موعد للحديث عن الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس أول مستعمرة إنكليزية دائمة في هذا الثغر الذي محا الغزاة اسمه من التاريخ البشري وبنوا على أنقاضه مستعمرة أطلقوا عليها اسم جيمس تاون Jamestown تخليداً لملكهم جيمس الأول.

كانت بارانويا الزنابير، وهم يحتفلون بهذه المناسبة، في أوج هلوستها. فبينما كانت تفرغ السكان الأصليين من كل معنى إنساني وتنسب إليهم الوحشية وأكل لحم البشر كانت في المقابل تضع المستعمرين الإنكليز الذين وصلوا، عام ١٦٠٧، على متن سفنهم الثلاث إلى هذا المكان في مصاف ملائكة الرحمة. فالرئيس الأميركي، بدلاً من الاعتذار عن جرائم هؤلاء المستعمرين قال إنهم زرعوا «بذور الحرية والديموقراطية في أميركا»[٦]، بينما قال عنهم نائبه «إنهم نشروا في هذه الأرض أعظم التقاليد وأنبلها»[٧]، أما الملكة البريطانية التي جاءت لتحتفل بفجارة التاريخ المنتصر فقالت «إن هذه المستعمَرة أرست مبادىء المساواة والديموقراطية وحكم القانون»[٨].

وللبارانويا قدرة هائلة على خداع النفس، كما أن لها سحراً عجيباً يطرد من الوعي كل ما لا ينسجم معها، إذ ليس في كل مصادر تاريخ هذه المستعمرة ما يبرر هذا التبجح.

المصادر التاريخية الأولى ترسم صورة مختلفة لهؤلاء الملائكة الذين «نشروا في الأرض أعظم التقاليد وأنبلها». إنها تجمع على أن ١٠٤ مستعمرين إنكليز يزعمون أنهم إسرائيليون مستعبرون Hebraists وصلوا إلى هذا المكان الذي دعوه جيمس تاون فأكرمهم هنود بوهاتن وأطعموهم وعلموهم فن البقاء في هذه الطبيعة القاسية. وبعد تأسيس المستعمرة [حصن عسكري على شكل مثلث] عَضّوا اليد التي أطعمتهم وأكرمتهم ومنحتهم الأرض التي أسسوا عليها مستعمرتهم وبدأوا بحملة إبادة «غطت إمبراطورية بوهاتن بالهياكل والجثث التي لم تعد تجد أحداً يدفنها»[٩].

> وهذا ما عرّضهم لمجاعة قاسية صاروا بعدها... يأكلون جثث الهنود الذين يقتلونهم أو الذين يغيرون على قبورهم في الليل لينبشوها ويسرقوها ويأكلوا جثثها الطازجة. ثم إنهم راحوا يأكلون جثث موتاهم البيض [...] حتى إن واحداً منهم ذبح زوجته وأكل لحمها باستثناء الرأس[١٠].

كان ذلك فاتحة التاريخ الحافل لظاهرة افتراسِ الهنودِ جسداً وأرضاً وثقافة وتاريخاً، تلك الظاهرة التي شهدت على مر العصور ملاحم خالدة يعتبرها الزنابير من أمجاد تاريخهم. من ذلك مثلاً ملحمة جون جونستون John Johnston المعروف بلقبه البطولي «أكّال الكبد Liver-Eating Johnston» . وهناك كتاب للمؤرخَيْن ريموند ثروب Raymond W. Throp وروبرت بنكر Robert Bunker نشرته جامعة إنديانا بعنوان «قاتل [هنود] الكرو: ملحمة جونستون أكّال الكبد» يروي كيف أن هذا الرجل أمضى أكثر من عشرين سنة يقتل هنوداً من شعب الكرو Crow ويسلخهم ويأكل أكبادهم. ويوثّق الكتاب لأكثر من ٣٠٠ حادثة قَتَل فيها جونستون الهنود وسلخهم وأكل كبدهم»[١١]. غير أن لِعَيْن هوليوود ومخرجها اليهودي الروسي سدني بولاك Sydney Pollack نظرة لا تختلف عن نظرة الملكة البريطانية لمستعمري جيمس تاون. لقد صنعت هوليوود من سيرة أكّال الكبد ملحمة بطولات وفخار وأمجاد بعنوان «أرميا جونسون Jermeiah Johnson» (١٩٧٢) أسندت بطولتها إلى روبرت ردفورد Robert Redford فأظهرته وهو يدحر الهمجية وينشر في أرض كنعان الجديدة «أعظم التقاليد وأنبلها» .

وعلى الرغم من أنه «ليست هناك وثيقة واحدة، لا في زمان كولومبس ولا بعد زمان

كولومبس، تثبت أن سكان أميركا يأكلون لحم البشر»[١٢] فقد دأب الإنكليز على اتهامهم بهذه الفظاعة، فعرّوهم وزرعوا في أجسادهم الريش، وأسقطوا عليهم كل جرائمهم ودمامتهم، بدءاً بسلخ فروة الرأس[١٣] وانتهاء بأكل لحم البشر. وبالطبع فقد كان هذا التشويه المتعمد لثقافة الهنود المسالمة سلاحاً من أسلحة الإبادة الذي استخدمه الزنابير حيثما «نشروا في الأرض أعظم التقاليد وأنبلها». لقد اتهموا سكان العالم الجديد بأكل لحم البشر قبل أن يروهم في أول كتاب إنكليزي عن سكان العالم الجديد، نشر في عام ١٥١١[١٤]. ثم أبلت هوليوود في هذه الحرب الثقافية بلاء حسناً، فصورت الهنود (ولا سيما في أفلام الأطفال) يشوون ضحاياهم ويتلذذون بأكلهم. ولاستثارة العواطف وتأجيج المشاعر، تعمّدت أن تنتقي هذه الضحايا من النساء الصبايا الحسناوات، فتصورهن مذعورات يشهقن بالبكاء حين يُلقَى بهن نصف عاريات في نار متأججة يتحلق حولها هؤلاء الوحوش الهنود وهم يتلمظون ويرقصون ويعوون[١٥]، حتى قال لي أحد الأصدقاء الهنود إن ابنته الصغيرة لا تصدق أن أجدادها لم يكونوا يأكلون لحم البشر.

العالم الأنثروبولوجي غانانت أوبيسيكير Gananath Obeyesekere يعتبر هذه الدعاوى البريطانية مجرد «إسقاطات projections». والإسقاط حيلة نفسية يلجأ إليها الإنسان ليدفع بها عن نفسه بعض مشاعره المحرجة، فيعمد عن غير وعي إلى أن ينسب إلى الآخرين أفكاره ومشاعره وأفعاله التي يخجل منها. هذه البهلوانية اللغوية التي لم تتوقف منذ حوالى ألف عام عن دمغ [الشعوب المستَعمَرة] بميسم الوحشية هي الرحم التي ولدت منها الأنثروبولوجيا الإنكليزية. وهي تتم في سياق هذه الإسقاطات projections[١٦] التي ليس لها في العربية تعبير أفضل من «رمتني بدائها وانسلت». وهذا ما تذهب إليه أيضاً كاثرين بيبر Katherine Biber أستاذة القانون في جامعة Macquarie والجامعة التكنولوجية بسدني التي ترى «أن اختلاق شعوب مستَعمَرة تأكل لحم البشر ينبع من حاجة البريطانيين إلى إنكار ممارساتهم نفسها»[١٧]. لقد استعانت بشهادات الرحالة الأوائل لتخلص إلى أنه ليس هناك دليل تاريخي واحد على أن سكان أستراليا الأصليين كانوا يأكلون لحم البشر كما زعمت آلة الردح الحضارية.

وترى بيبر، وهي من ألمع الأكاديميين المختصين بعلم الجريمة، أن لهذه الادعاءات

والتصنيفات الاستعمارية التي حذر مؤرخون وأنثروبولوجيون كثيرون من زيفها هدفين أساسين: تبرير الغزو وما ترتب عليه من إبادة وشناعات، ثم التخلص من الشعور بالذنب تجاه هذا الغزو وما ترتب عليه من إبادة وشناعات[١٨]. وتقول:

لطالما كان أكل لحم البشر هوساً بريطانياً. إنهم حيثما رست سفنهم اتهموا السكان الأصليين بالهمجية وأكل لحم البشر... وقد نسجوا حول ذلك أساطير ترضي غرورهم[١٩] [...] إن فحص روايات المستعمرين الإنكليز حول أكل لحم البشر لدى الشعوب الأصلية سيؤدي بالتأكيد إلى فضح ادعاءاتهم وكشف أكاذيبهم التي برروا بها مذابحهم وعنفهم وجشعهم. وهذا ما لا يريدونه[٢٠].

وتستشهد بيبر بقصة إليزا فرايسر Eliza Fraser التي نسج منها الإنكليز أساطير حول أكل لحم البشر في أستراليا. وكانت إليزا ـ وهي زوجة قبطانِ سفينةٍ محطمة ـ قد نجت و«أسرت» لدى من اتهمتهم لدى عودتها إلى إنكلترا بأنهم يأكلون لحم البشر، فبنت من ذلك شهرة وثروة. غير أن شهوداً آخرين كانوا معها نكثوا غزل خيالها، وكأن عودتها سالمة معافاة لم تكن كافية لدحض أكاذيبها. من تلك الشهادات التي نقلتها لاريسا برندت Larissa Behrendt أستاذة القانون في جامعة سدني ومديرة Jumbunna Indigenous House of Learning مركز دراسات السكان الأصليين في الجامعة التكنولوجية بسدني:

«١ ـ لا يمكنني أن أصفهم بالقسوة»

«٢ ـ لا أظن أبداً أنهم فكروا في قتلي

«٣ ـ لا أعتقد أن أيّاً من هذه القبائل التي كنت فيها يأكل لحم البشر. إنني لم ألمح أثرا لذلك.»

[وتضيف الكاتبة:] هناك شهادات طويلة مريرة من السكان الأصليين الذين أكرموا وفادتها وأطعموها وسقوها لتتهمهم بعد ذلك بأكل لحم البشر. لكن أدهى ما في هذه الحادثة أن زوجها القبطان لم يشأ أن يرسو على الشاطىء اعتقاداً منه بأن السكان يأكلون لحم البشر في الوقت الذي يروي المسافر كورتيس Curtis أن مساعدي القبطان كانوا يجرون قرعة لاختيار من

سيقتلونه ويأكلونه من ركاب السفينة. [وهنا تعلق بيبر على هذه المفارقة الساتريكونية بالقول:] إن مصدر الخوف من أن السكان الأصليين سيأكلونهم هو أن البريطانيين اعتادوا على أكل لحم البشر في البحر، حيث إن القاعدة: إما أن تأكل أو تؤكل eat or be eaten[٢١].

ولم يسلم العرب والمسلمون من هذا القذف، فعندما أسر الجزائريون الإنكليزي جوزيف بيتس Joseph Pitts قال إن خوفه الأكبر كان من أن يقتله الجزائريون ويأكلوه. ولم يترك شناعة أو دمامة سمعها عن «وحشية» الهنود الحمر إلا ألصقها بهؤلاء المحمديين[٢٢]، وكذلك فعل «المختار» الآخر توماس فيلبس Thomas Phelps الذي أنسته وحشية حاكم مراكش كل وحشية الهنود الحمر[٢٣].

ولهذا التشويه الثقافي النمطي الذي دأب عليه المستعمرون الإنكليز ورافق زحف مدنيتهم حوادث أكثر مأساوية أدت إلى مقتل كثير من الأبرياء. وتروي بيبر وقائع موجعة، منها قصة أسترالية معبرة عن الراعي الإنكليزي هنري برستون Henry Preston الذي مضى إلى رب عمله ليقبض أجره فاختفى في الغابة وانقطعت أخباره. وعلى الفور توالت «شهادات» الزنابير عن قتله وأكله من قبل وحوش الغابة من كنعانيي أستراليا. بعض الشهود رووا كيف رأوا بأعينهم هؤلاء الوحوش يأكلون يد الراعي، وبعض آخر رأوهم وهم يشوون ساقه ويأكلونها، وهناك من شهد بأنه رآهم يأكلون كلب الراعي. وهذا ما أجج المشاعر وألهب الحماسات التي أدت إلى قتل بعض السكان الأصليين انتقاماً. وبعد بضعة أيام ظهر الراعي وكلبه ليقول إنه ضل طريقه في الغابة. وبالطبع حوكم الذين قتلوا السكان الأصليين وحكم عليهم بـ... البراءة، باعتبار أن للقتل ما يبرره[٢٤].

The jury returned an immediate verdict of Not Guilty by reason of justifiable homicide.

بدأ هذا التشويه الثقافي النمطي لسكان العالم الجديد مع كولومبس نفسه، ففي رسالة كتبها إلى ملك إسبانيا عن مشاهداته في رحلته الأولى زعم أن بعض السكان أخبروه بأن «في بعض الجزر رجالاً بعين واحدة، وآخرين برؤوس كلاب! ويأكلون البشر،

وأنهم عندما يقتلون الإنسان يقطعون رأسه ويشربون دمه، ويقطعون أعضاءه التناسلية». والمعروف أن الهنود لم يشاهدوا الكلب حتى زيارة كولومبس الثانية[٢٥].

ولكن قبل الخوض في ظاهرة افتراس البشر لدى الزنابير، أحب أن أحذر من التعميم ومن المبالغة ومن نزعة التنميط. لقد ألصق الإنكليز هذه الشناعة النمطية بمعظم الشعوب التي استعمروها أو أبادوها أو أكل بعضهم لحمها، وذلك لتجريدهم من إنسانيتهم وتبرير إبادتهم. ولا ينبغي لنا أن نقع في مثل هذا الفخ. إن مثل هذه التعميمات والمبالغات النمطية تسيء إلى صدقية الوقائع التي تنطق بما تعجز عنه المبالغات. إنني لا أستعرض هذه الظاهرة إلا لفهم إلحاح الإنكليز على اتهام ضحاياهم بها، وإلا في إطار الحوادث التي وثّقها وحللها المؤرخون والأنثروبولوجيون وجعلوا من تكرارها المخيف مادة للدراسة العلمية. وأملي أن يكون هذا الاستعراض السريع مدخلاً لفهم الجذور الاجتماعية لهذا الإسقاط الذي أشار إليه كثير من علماء الإنسانيات، بل ولفهم دور هذا الإسقاط في الحرب الثقافية على الشعوب المستعمِرة. لهذا فإنني دفعاً لكل التباس وتنميط أرد كل جملة إلى مصدرها العلمي الموثّق، وأحذر مرة أخرى من استغلال هذه الشواهد الموثقة للتعميم والمبالغة والاستهلاك المبتذل.

في بحثه «البريطانيون أكلة لحوم البشر British Cannibals»، يعزو أحد ألمع علماء الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة غانانات أوبيسيكير Gananath Obeyesekere (من جامعة برنستون) هذه الإسقاطات إلى ما يسميه بأخلاق جنون العظمة paranoid ethos التي يتربى على هلوستها الأطفال البريطانيون[٢٦]، وتجسدها كثير من أغانيهم الشعبية[٢٧]. إن أكل لحم البشر في بريطانيا ـ في رأي جيرالد بورتر Gerald Porter أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة فاسا Vassa بفنلندا ـ تقليد بريطاني يرجع إلى العصور الوسطى، وله تشريعات قضائية دفعت سير وليم هاركورت William Harcourt وزير الداخلية (١٨٨٠ ـ ١٨٨٥) إلى القول ساخراً:

> إن القضاة في القريب العاجل سيقرون أكل لحم البشر ويجعلونه بديلاً طبيعياً لدفن الموتى[٢٨].
>
> judges would soon approve of cannibalism as a means of disposing of the dead

ثم إن هناك طقوساً إنكليزية لأكل لحم البشر وثّقها برايان سيمبسون A. W. Brian Simpson أستاذ القانون في جامعة ميشغان والمستشار الفخري للملكة إليزابيت منذ ٢٠٠١. ويضم كتابه «أكل لحم البشر والقانون العرفي [أو غير المكتوب]»(٢٩) الذي نشرته جامعة شيكاغو Chicago University Press عدداً لا يحصى من الولائم التي أحياها الإنكليز والأميركيون في البحار، أو أثناء الزحف الاستعماري «لنشر أعظم التقاليد وأنبلها»، أو أثناء البحث عن الذهب في الغرب الأميركي، مما استدعى المشرعين إلى وضع اصطلاحات قضائية مناسبة لها. ويخلص في نهاية الكتاب إلى أن

أكل لحم البشر كان شائعاً لدى الإنكليز في القرن السابع عشر [عندما غزوا جيمستاون وأكلوا جثث الهنود وجثث بعضهم] ، لكنه تطور وتعزز مع اتساع رقعة التجارة البريطانية ومع الزحف الاستعماري إلى كل قارات الأرض. [وقد جمع سيمبسون وثائق كثيرة عن انتشار هذه الظاهرة في العهد الفيكتوري](٣٠).

cannibalism as an actual phenomenon... was very familiar to Victorians.

أما في حال تحطم السفن فإن أكل لحم البشر يصبح أمراً مُسَلَّماً به في إنكلترا، [خاصة أن] المزاج الإنكليزي في معظم المدن البحرية كان متعاطفاً مع آكلي لحوم البشر(٣١).

... cannibalism after shipwreck was so much taken granted in England...

Public attitude in seaport towns were, for the most part, in sympathy with the cannibals

ويرى سيمبسون أن هذه العادة رافقت دعاوى توسيع الإمبراطورية الإنكليزية وكانت جزءاً منها. كما يرى أن ممارساتهم التي تتحجج بأن أكل لحم البشر ضروري من أجل البقاء، وخاصة بعد الكوارث البحرية، تطورت إلى نزعة إجرامية يأكل فيها البشر بعضهم بالعادة ومحض الاختيار(٣٢).

ولأكل لحم البشر لدى الزنابير تصنيفات وفوائد صحية حسب الخصائص العرقية أو القومية للضحية الذي يجب أن يكون كنعانياً حلالاً لشعب الله. فمنهم من ينفع للشفاء من هذا المرض، ومنهم من ينفع للشفاء من ذاك الداء، فالكنعاني الأسود مثلاً كان يُتناول لحمُهُ لمثل ما يَتناول بعض الناس اليوم حبوب الفياغرا، إذ إن الاعتقاد السائد لدى الإنكليز «بأن أكل لحم الرجل الأسود يقوي الباه ويطيل العمر»(٣٣).

ثم إن لهذا الفن الإنكليزي آداباً etiquette وتصنيفات طعامية ومذاقية مختلفة. بعضهم يحبه نيئاً، وبعضهم يحبه مطبوخاً أو مشوياً، أو مقدداً، وهناك من يفضل الصدر على الكتف أو الكتف على الصدر، أو الكبد على القلب أو القلب على الكبد. فإذا كانت الوقعة كاملة مثلاً سميت بوجبة منتصف الليل midnight repasts، أما إذا كانت مجرد مقبلات سريعة كالمازة فتسمى «ذَوْقَة» أو ـ حرفيّاً ـ مُضْغة شهية dainty bit(٣٤).

ويصف البحار روبرت غرينهيل Robert Greenhill «مذاق اللحم البشري بأنه شهي كمذاق لحم الخنزير»(٣٥). وعندما قبضوا على ألكسندر بيرس Alexander Pearce الذي قتل رفيقه توماس كوكس Thomas Cox وجدوا قطعة من لحم فخذ كوكس في جيبه... وقد صرح بأن هذا ألذ طعام عنده. واتضح بعد ذلك أن بيرس لم يأكل لحم البشر اضطراراً وإنما لأنه اللحم المفضل عنده. [وهذا ما دعا سيمبسون إلى القول]: «إن أكل لحم البشر يتحول بسهولة إلى عادة بمجرد أن يبدأ الإنسان بتناوله(٣٦). once practiced, easily becomes habit.

ويحتفظ متحف جامعة بنسلفانيا اليوم بجمجمة بيرس الذي يعتبر بطلاً شعبياً falk hero اتخذ منه الروائي ماركُس كلارك Marcus Clarke بطلاً لروايته *For the Term of His Natural Life*(٣٧)، كما خلدته «ألبومات» الأغاني الشعبية، منها واحدة لفرقة الروك الشهيرة Weddings Parties Anything بعنوان *A Tale They Won't Believe*.

ولم تتخلف المرأة الإنكليزية عن هذا الركب، فهناك روايات بطولية عن نساء ضاهين الرجال في «نشر أعظم التقاليد وأنبلها» وسابقنهم إلى التقاف الجزء المفضل لديهن من الجثث. من ذلك ما حدث على السفينة فرانسيس ماري Frances Mary حين

مات جون ويلسون John Wilson وكُرْعِبَ وعُلّقَ في الهواء ليبقى طازجاً، ولكي يأكل كل بحار ما يشتهي منه. وكان في مقدمتهم خطيبة الطباخ آن ساوندرز Ann Saunders. ولما «مات» خطيبها وحبيبها الطباخ قالت إن لها الأولوية في شرب دمه. وقيل يومها إنها كانت أكثر شجاعة من كل الرجال، فهي التي تولت تقطيع الجثة وتنظيفها وتحضير الوليمة. وكانت تحتفظ بسكاكينها في جيوب سترتها الرجالية، فما أن تسمع بموت أحد حتى تشحذها وتشق عنق الميت لينفر الدم وتدشن بنفسها حفلة الشراب. وكان معها على السفينة امرأة شجاعة أخرى هي زوجة القبطان باترسون Patterson. فمن أقوالها المأثورة حين أكلت دماغ غلام السفينة the cabin boy: «إنه كان أشهى ما أكلت في حياتها»[٣٨].

It was the most delicious thing she had ever tasted

ثم إن هناك

نوعين من التقاليد الإنكليزية [لأكل البشر]. منها ما هو صريح محدد، ومنها ما هو مضمر. أما التقاليد الصريحة، فأولها: إجراء قرعة لاختيار الضحية، وهي ثانياً: شرب دم الضحية لإطفاء الظمأ. ولهذا فإن من المفضّل أكل الضحية حياً لأن [الجسد الحي] أغنى بهذا السائل النفيس. وأما التقاليد المضمرة فأهمها ذلك التواطؤ الصامت على عنصرية هذه القرعة، وعلى أن يكون الغريب «الآخر [غير الإنكليزي]» هو الضحية. لهذا يتم التلاعب بالقرعة لتقع على الإسباني أو البرتغالي [كان هذا في فترة التنافس الاستعماري]، أو العبد [الكنعاني الأسود، وإذا لم يتوفر ذلك تقع القرعة على الضعفاء من] ، الغلمان والنساء»[٣٩].

بهذه القرعة الإنكليزية النزيهة، يروي روي بالمر Roy Palmer في كتابه الطريف «أغاني البحر» كيف أضحى المسافر الإسباني أنطوني غالاتيو Antony Galatio وليمة عامرة على ظهر السفينة دولفين Dolphin حين نفد الزاد فيها. لقد ضربوه على رأسه ليصرعوه أولاً [كما يفعلون الآن بالبقر في المسالخ]، ثم شقوه وأكلوا أحشاءه، ثم أكلوا بقية الجسد[٤٠].

أما على السفينة بِغي Peggy فوقعت «القرعة» على كنعاني أسود [ذي أصل أفريقي] مشحون للعبودية لدى شعب الله الإنكليزي في العالم الجديد. ولقد حاول هذا الشقي الفرار من السفينة إلى ثبج المحيط، مفضلاً أن يأكله سمك القرش على أن يأكله هؤلاء الملائكة، لكن «بحاراً عاجله بخبطة على رأسه فصرعه. ثم تلقاه بحار آخر فشقَّه وأكل كبده قبل أن يفارق الحياة تماماً...»(٤١).

وعلى السفينة Francis Spaight، كان هناك أربعة غلمان أيرلنديين. وعندما تحطمت السفينة وجاع البحّارة ذبحوا الأول باتريك أوبراين Patrick O'Brien وأكلوه، ثم ذبحوا الثاني جون بيرنس George Burns وفيما كانوا يقطعونه لاحظوا سفينة تقترب فأمسك القبطان بيد الذبيح الثاني ورِجلِه المقطوعتين وبدأ يلوح بهما للسفينة طالباً الإنقاذ(٤٢). ولهذه الحادثة تفاصيل كثيرة مثيرة للغثيان أعف عن ذكرها. ومع ذلك فقد تحولت قصة هؤلاء الأطفال الأربعة إلى جزء من التراث الشعبي الإنكليزي، بل لقد نظمت بها قصائد وأغنيات شعبية(٤٣) للتسلية والاستمتاع.

والمعروف لدى البحّارة الإنكليز أنَّ ما يسمى بغلمان السفينة cabin boys هم في النهاية «زاد احتياطي من اللحم الطازج»(٤٤)، included as a supply of fresh meat. وفي تناول لحمهم الطري، قالوا شعراً غزلياً. من ذلك قصيدة بيللي الصغير Little Billee التي تتحدث عن ثلاثة بحارة نفد زادهم فقال واحد منهم للآخر:

هذا بيل الصغير. إنه يانع طري

ونحن كبار أشداء، فهيا نأكله.

يا بللي، إننا سنقتلك ونأكلك

فحل عرى قميصك(٤٥).

ويروي سيمبسون ما يشبه ذلك عن بحارة السفينة جورج George الذين أكلوا المرأة جويس راي Joyce Ray ثم ظلوا يأكلون بعضهم إلى أن لم يبق منهم سوى القبطان جون مالبن John M'Alpen وبحار واحد آخر. وقد كان زوج الضحية جويس على متن السفينة فشارك في افتراس زوجته. ومما احتفظت به الأغاني الشعبية من هذه الفاجعة:

شربنا مليّاً من دم السيدة
لنطفىء عطشنا الملتهب
وكان لا بد لزوجها من أن يشرب...
عندها قطعوا جسدها
وتقاسموه فيما بينهم
فعشنا على ذلك أحد عشر يوما...[٤٦].

ومع أن القانون يتطلب الإعلام عن هذه الحوادث فقد ظل أكل لحم البشر بدون إدانة واحدة حتى حادثة اليَخت مينيونِت Mignonette الذي تحطم في عام ١٨٨٤، وغرق كل من فيه إلا ثلاثة رجال وفتى في السابعة عشرة تمكنوا جميعاً من النجاة بقارب صغير. ولما جاعوا قتلوا الفتى ريتشارد باركر Richard Parker وأكلوه. وبعد أربعة أيام، التقطتهم سفينة ألمانية. ثم حوكموا في إكستر بتهمة القتل [فقط، إذ إن أكل لحم البشر لا يعتبر جريمة في كل العالم الأنكلو سكسوني]، واعترفوا جميعاً بفعلتهم، ووصفوا ما جرى وكيف أنهم لم يُبقوا من الفتى إلا الجلد والعظم With nothing left but skin and bone. فحكم عليهم بالموت، ثم خفف الحكم إلى ستة أشهر بموجب ما صار يعرف قضائياً بجريمة الضرورة killing under necessity، التي يعتبرها القانون مبرراً للتخفيف[٤٧]. ويروي سيمبسون كيف أن المتهمَيْن «تحدثا عن قتل الفتى [ريتشارد] وأكله بكثير من الطمأنينة والهدوء وكيف أن القاتل الكابتن دَدْلي Dudley قال إنه لا يزال يحتفظ بالسكين التي ذبح بها الفتى للذكرى. حتى إن أخا الضحية وأمه لم يغضبا، بل أبديا تفهماً لما حدث وتعاطفاً مع القتلة pity rather than a feeling of revenge was expressed. وعندما أعلن القاضي الحكم على الجانييْن بالسجن ستة أشهر ـ أعفي عنهما قبل نهايتها ـ أبديا دهشةً واتهما القاضي بالتعسف»[٤٨].

والواقع أن للمحاكم الأميركية الفضل الأول في وصف أكل لحم البشر بـ «جريمة الضرورة» وإطلاق اصطلاح «دفاع الضرورة The Defence of Necessity» في عام ١٨٤٢، أي قبل حادثة اليخت مينيونت. ومن ملاحظات القاضي الأميركي وهو يطلق

هذه الاصطلاحات يومها أنه «كان يجب اتباع أساليب أكثر ديموقراطية في اختيار الضحية!»[٤٩]. كل بريطانيا هبت للدفاع عن سمعتها عندما عاد المكتشف جون راي John Rae من القطب الكندي وأعلن أنه زار الموقع الذي أكل فيه أعضاء بعثة فرانكلين Franklin بعضهم. لقد أحضر معه ما استخدمه أعضاء البعثة في هذه الوليمة من ملاعق وسكاكين وشوكات وغَلاّيات. وفي تقريره للأميرالية البريطانية قال الدكتور راي:

> يبدو واضحاً من الهبش والنهش الذي أصاب عدداً من الجثث ومن الآثار التي ما زالت على الغلايات أن مواطنينا التعساء وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أكل لحوم بعضهم من أجل البقاء على قيد الحياة[٥٠].

بعض الاعتذاريين لاموا «الجوع الكافر» وعزوا إليه رسوخ هذه العادة ودوامها في بريطانيا منذ العصور الوسطى، لكن أوبيسيكير يضيف إلى ذلك أسباباً ثقافية ونفسية وقانونية يرى أنها ترعى هذه العادة وتستديمها. من ذلك «أن المجتمع الذي لا يرى غضاضة في ارتكاب هذه الجريمة ويتعاطف معها ويضع لها أحكاماً قضائية مخففة إنما يشجع الناجين من السفينة المحطمة على أن يقتلوا زميلهم ويأكلوه دون حرج كبير. وما دام أن أكل لحم البشر شرعي، وعادي، وإجراء متعارف عليه، ويتقبله المجتمع بقبول حسن، فلماذا لا يأكل البحارة الناجون زميلهم بنفس راضية good consience»[٥١]؟ كأن صيد هذا الزميل أسهل من صيد سمكة من البحر الذي يحيط بهم من كل جانب!

«إن مجرد انكسار الحاجز النفسي [كما يفصّل ذلك سيمبسون] يجعل من أكل لحم البشر نوعاً من الإدمان»[٥٢]. وقد انكسر هذا الحاجز قضائياً عندما لم يُعتبر أكل لحم البشر جريمة يعاقب عليها القانون it has never been regarded illegal[٥٣]، وانكسر أخلاقياً ودينياً عندما لم يُعتبر «خطيئة». فحين أحييت «حفلة التبرع [باللحم]» Donner Party في أعالي سيرا نيفادا High Sierras أثناء حملات بحث المستوطنين عن الذهب في الغرب الأميركي قُتل ٣٦ شخصاً في خضم هذه «الحفلة»، والتُهموا، ورفض القضاء الأميركي اعتبار ذلك جريمة[٥٤] بل إن في ساحات وحدائق الولايات المتحدة كثيراً من النصب التذكارية التي تخلد أمجاد

هؤلاء المستوطنين الذين «نشروا في هذه الأرض أعظم التقاليد وأنبلها» . ويروي سيمبسون فتاوى كثيرة من هذا المزاج المرضي الذي يعتبر جثث البشر لحماً حلالاً. من ذلك أن رجلاً بديناً في الرابعة والأربعين مات أثناء تحطم السفينة فتداعى البحارة على أكله بعد أن قال القبطان:

> ليس في أكل الميت خطيئة ما دام أن الله هو الذي توفاه وأخذه من هذا العالم، وما دام أننا لم نقتله بأيدينا. ثم شرع القبطان بسلخ الجثة وأمر بإلقاء الجلد والرأس واليدين والأحشاء في البحر، كما أمر بتقطيع ما تبقى لتسهيل عملية التقديد والحمل(٥٥).

وهنا لا بد من الإشارة إلى كتيّب أثار ضجة في العالم الأنكلوسكسوني عندما أصدره ج. ت. لويد J. T. Lloyd باسم جمعية العلمانيين البريطانيين British Secular Society وعنوانه: *God Eating: A Study in Christianity & Cannibalism* ويحاول المؤلف لويد اكتشاف جذور لظاهرة أكل لحم البشر لدى البريطانيين في طقس العشاء الرباني sacrament of communion معتبراً أن الخلاص في البحر بأكل لحم الإنسان ودمه تجسيد واقعي للخلاص بأكل لحم المسيح وشرب دمه. وفي هذا بالطبع تعسف كبير يفضحه واقع المسيحية خارج العالم الأنكلوسكسوني. إنه إسقاط بريطاني آخر يراد به لصق الظاهرة البريطانية بالدين المسيحي، بل لعله انعكاس لظاهرة محلية بريطانية صرف، بعضها يرجع إلى تراكمات وثنية قديمة جعلت كثيراً من الإنكليز غير قادرين على التعامل مع طقس العشاء الرباني رمزياً، وبعضها يرجع إلى عنصرية الكنيسة الإنكليزية Church of England(٥٦) وعبرانيتها التي سلبت العبرانيين كل ما نسبوه لأنفسهم في العهد القديم. وهذا ما جعل كنعنة الضحايا ـ أفراداً كانوا أو شعوباً ـ علكة يلوكها في بريطانيا السياسيون والعسكريون وأكلة لحوم البشر على السواء.

أما القول بأن أكل لحم البشر ظاهرة تاريخية عفّى عليها الزمن، أو أنه «ظاهرة مقتصرة على إنكليز الجزيرة البريطانية فتكذبه فضائح أكل لحم البشر في أميركا»(٥٧) قديماً وحديثاً، كما تكذبه السجلات القضائية في بريطانيا وأميركا وأستراليا اليوم. ففي أوائل ٢٠٠٨ قتل كريستوفر لي مكوين Christopher Lee McCuin في تكساس صديقته

وطبخ أجزاء من جسدها وأكلها زاعماً أنه تلقى بذلك أمراً من الله. وقد تم توقيفه بعد أن وجد البوليس أذن الضحية باقية في القِدر، ووجدوا آثاراً من لحمها على الشوكة التي يأكل بها[٥٨]. وقبل حوالى تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧ روت **الغارديان** البريطانية أن البوليس البريطاني أوقف بول ديورانت Paul Durant الذي قتل صديقته كارن دورل Karen Durell وأكلها. وقالت إنه حوكم بتهمة القتل [وليس الأكل] وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً[٥٩]. وفي أستراليا لا تزال كاثرين ماري نايت Katherine Mary Knight التي قتلت زوجها بسبع وثلاثين طعنة ثم أعدت من لحمه عشاء لها ولأطفالها مادة غنية للدراسات المختلفة، لعل آخرها كتاب ساندرا لي Sandra Lee بعنوان «كاثي آكلة لحم البشر Kathy the Cannibal».

ويروي سيمبسون عدداً لا يحصى من مكرمات هذه الظاهرة التي رافقت تمدين الشعوب الهمجية ونشر «أعظم التقاليد وأنبلها» مع زحف المستوطنين[٦٠] الجائعين إلى الأرض والذهب وأرواح الهنود في أميركا. من أبطال هذه الظاهرة ألفرد بكر Alfred Packer أو ما يعرف تفاخراً بالكولورادي آكل البشر The Colorado man-eater الذي خلدته هوليوود بعدد من الأفلام، وصيغت سيرته في كثير من القصص والأغاني الشعبية بعد أن أكل خمسة من رفاقه. ومن أقواله المأثورة: «إنني مغرم بلحم الإنسان وأعتبر الصدر أطيب لحم ذقته في حياتي»[٦١]. أما الأغنية الشعبية التي يطرب لها الزنابير فتنتهي إلى الحكمة الخالدة «أن الإنسان الجسور الشجاع لا يجوع»:

في جبال كولورادو
حيث الثلوج عميقة باردة
وحيث يموت الراجِل من الجوع
ما لم يكن شجاعاً جسوراً[٦٢]

الهوامش

(١) David A. Stannard, *American Holocaust*, p. 98.

وانظر منير العكش، «حق التضحية بالآخر»، ص. ٥٨، والحاشية ٢، ص ٩٧.

أما بالنسبة لاتهام الإنكليز أهلَ وايلس Wales أشقاءهم في الجزيرة البريطانية وشركاءهم في المملكة بأنهم أكلة لحوم بشر أيضاً فانظر:

W. Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law: The Story of the Tragic Last Voyage of the Mignonette and the Strange Legal Proceedings to Which It Gave Rise*, (Chicago and London, Chicago University Press, 1984), p. 88.

(٢) Ibid, p. 113, and Gerald Porter, "The Tender Cabin Boy, Cannibalism and the Subject", *Acta Ethnographica Hungarica*, An International Journal of Ethnography Vol 47, No 1-2, July 2002. pp. 69-77.

(٣) وللمزيد من إيلام الفرنسيين فقد نظموا لذلك أغنية بعنوان «يا ولد ياشقي» Naughty Baby لتأديب أطفالهم الأشقياء:

ياولد، ياولد، ياولد ياشقي / إخرس ياحقير / إهدأ فورا. إهدأ وإلا / يحضر بونابرت ياولد، ياولد. إنه مارد / طويل أسود مثل برج روون Rouen / فطوره وعشاؤه / من الناس الأشقياء/ياولد، ياولد، إذا سمعك / وهو يَعبُر عَدْواً بالبيت / سيقطّعك على الفور عضواً عضواً، كما يقطع القط الفأرة / وسيسحقك ويسحقك ويسحقك / ويسحقك لتطرى / وسيأكلك ويأكلك ويأكلك / نتفة نتفة ونهشة نهشة نهشة.

From the *Annotated Mother Goose* by William Baring-Gould & Ceil Baring-Gould.

(٤) كنت برفقة الشاعرة الهندية كارين وود Karenne Wood من هنود مونوكن Monocan، وستيفن أدكينس Chief Stephen Adkins زعيم هنود Chickahominy في ندوة عن الذكرى ٤٠٠ لتأسيس مستعمرة جيمس تاون. وهي أول مستعمرة إنكليزية دائمة في شمال أميركا.

(٥) أنظر المصادر في: منير العكش، «حق التضحية بالآخر»، ص. ٣٥.

(٦) President Bush Welcomes Her Majesty Queen Elizabeth II to the White House. Office of the Press Secretary, May 7, 2007.

(٧) Vice President's Remarks Welcoming Her Majesty Queen Elizabeth II. Jamestown Settlement. Jamestown, Virginia. Office of the Vice President. May 4, 2007.

(٨) President Bush Welcomes Her Majesty Queen Elizabeth II to the White House. Office of the Press Secretary, May 7, 2007.

(٩) Robert Beverley, *The History and Present State of Virginia.*, ed. Louis B. Wright (Chapel Hill, University of North Carolina Pres, 1947), p. 232.

وللمزيد عن الطبيعة العدوانية للمستوطنين الإنكليز، والتي أدت بالهنود إلى إعادة النظر في موقفهم المسالم والأريحي أنظر:

David B. Quinn (editir), *New American World: A Documentary History of North America to 1612*, edited, (New York: Arno Press, 1979), Vol.1: pp110, 157, 239.

فمع وصول الإنكليز، بدأوا بشن غارات على مخازن الذرة ونهبها معتبرين ذلك هدية من العناية الإلهية God's good providence لشعب الله. انظر:

William Bradford, *Of Plymouth Plantation*, edited by Samuel Eliot Morrison (New York: Knopf, 1652) p. 19.

ولم يكد المستوطنون يبنون مستعمرة جيمستاون على الأرض التي وهبها لهم الهنود حتى التهب جشعهم إلى المزيد من الأرض والغنائم، الأمر الذي احتاج إلى العنف المميت. بل إنهم فسروا كرم الهنود وأريحيتهم بأنه علامة ضعف، فأمعنوا في القتل والنهب. ولم تكد تمضي سنتان على تأسيس المستعمرة حتى بدأ التدمير الكامل لكل مرافق الحياة الهندية.. انظر:

Alexander Young, (ed). *Chronicles of the Pilgrim fathers of the colony of Plymouth, from 1602-1625* (Boston, C. C. Little and J. Brown, 1841), 304f., 308f.

(١٠) سأكتفي بذكر ثلاثة مصادر علمية موثقة لهذه المآثر العظيمة لمستعمري جيمس تاون الذين «نشروا في هذه الأرض أعظم الفضائل وأنبلها»:

(*) Robert Beverley, *The History and Present State of Virginia...*, (Chapel Hill, University of North Carolina Pres,1947) p. 34-35.

(**) Russell Thornton. *American Indian Holocaust and Survival: A Population History Since 1492)*. Norman: University of Oklahoma Press, 1987), p.69.

(***) Kenneth C. Davis, *Don't Know Much About History: Everything You Need to Know About American History but Never Learned*, (N. Y. Avon Books 1990), p.15.

(١١) See Raymond W. Thorp, and Robert Bunker, *Crow Killer: The Saga of Liver-Eating Johnson*, (Indiana University Press, 1969).

(١٢) Lewis Hanke, *Aristotle and the American Indians: A study in race prejudice in the modern world*, (London: Hollis and Carter, 1959), pp. 130-131; William. Arens, *The Man-Eating Myth: Anthropology and Anthropophagy*, (Oxford University Press, 1979), pp44-54.

(١٣) تفصيل هذا الاتهام ومصادره في: منير العكش، **حق التضحية بالآخر**، فصل «من المتوحش» ٥٧ ـ ٩٦.

(١٤) Margaret T. Hodgen, *Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*

(University of Pennsylvania Press, 1998), p.409.

(١٥) See Randolph Lewis, "The Cannibals of Empire: Indian-Hating in a Hollywood "Classic"," *The Brooklyn Rail, Critical Perspectives on Arts, Politics and Culture*, April 2004.

(١٦) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals, Contemplation of an Event in the Death and Resurrection of James Cook, Explorer," *Critical Inquiry*, 18, Summer 1992, p. 640. Also published in Gilles Bibeau, Ellen E. Corin (editors), *Beyond Textuality: Asceticism and Violence in Anthropological Interpretation*, (Berlin, New York, Mouton de Gruyter, 1995), p.155.

(١٧) Katherine Biber, "Cannibal and Colonialism," *Sydney Law Review*, 2005, vol 623-27, p. 626.

(١٨) Ibid, 636.

(١٩) Ibid, pp. 627. 629.

(٢٠) Ibid, p. 634.

وللمهتمين بدراسة هذه الادعاءات الإنكليزية أنصح بقراءة الكتابين التاليين اللذين أجمعا على أن اتهام الشُعوب المستَعمَرة بأكل لحم البشر هو من نسج خيال الإنكليز وأنثروبولوجيتهم الاستعمارية، وله هدف واحد هو تبرير ما حصل:

(*) Francis Barker and Margaret Iversen (ed). *Cannibalism and the Colonial World* (Cambridge University Press), 1998.

(*) Frank Lestringant. *Cannibals: The Discovery and Representation of the Cannibal from Columbus to Jules Verne*. Trans. by Rosemary Morris. (Berkeley: University of California Press, 1997).

(٢١) Ibid, Katherine Biber, "Cannibal and Colonialism," *Sydney Law Review*, vol: 27 p.636.

(٢٢) Joseph Pitts, *A True and Faithful Account of the Religion and Mannars of the Mohammetans* (Exeter, 1704) p.3.

(٢٣) See John Foss, *Journal of the Captivity and the Sufferings of John Foss... several years a prisoner at Algiers: together with some account of the treatment of Christian slaves when sick:- and observations of the manners and customs of the Algerines.* (Published first in 1789, Printed by Angier March, Newburyport (Mass)., Second edition. Published according to act of Congress).

(٢٤) Ibid, p. 623-624.

(٢٥) David A. Stannard, *American Holocaust*, p. 326.

(٢٦) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals" p.636; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p. 150.

والمؤلف من ألمع علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين في الولايات المتحدة، وهو أستاذ شرف emeritus للأنثروبولوجيا والتحليل النفسي في جامعة برنستون. ومن مؤلفاته التي أنصح بقراءتها حول هذه الظاهرة:

The Apotheosis Of Captain Cook: European Mythmaking In The Pacific, 1992.

Cannibal Talk: The Man-Eating Myth and Human Sacrifice in the South Seas, 2005.

The Work Of Culture: Symbolic Transformation In Psychoanalysis And Anthropology, 1990.

(٢٧) Gerald Porter, "The Tender Cabin Boy, Cannibalism and the Subject," *Acta Ethnographica Hungarica*, An International Journal of Ethnography Vol. 47, No. 1-2, July. 2002. pp. 69-77.

من هذه الأغاني مثلاً واحدة عن طبخ فطائر بلحم الأطفال:

أمي قتلتني وحشتني في فطائر
وأبي أكلني فعلاً وقال إنني كنت لذيذاً
وجاءت أختاي وجمعتا عظامي
ودفنتاني تحت المرمر البارد.

انطر هذه الأغنية ومثيلاتها في:

Journal of the Folk Song Society, Vol. II No.9 pp. 295-297.

(٢٨) W. Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 122.

(٢٩) ـ العنوان الكامل هو: «أكل لحم البشر والقانون غير المكتوب (أو العرفي): قصة الرحلة المأساوية الأخيرة للسفينة مينيونت والإجراءات القانونية الغريبة التي نجمت عنها».

Cannibalism and the Common Law: The Story of the Tragic Last Voyage of the Mignonette and the Strange Legal Proceedings to Which It Gave Rise.

(٣٠) Ibid., pp. 111, 112, 113.

(٣١) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals" p. 639; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality2*, p. 153.

(٣٢) Katherine Biber, "Cannibal and Colonialism," *Sydney Law Review*, vol. 623: 27 p. 636.

(٣٣) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals" p.640; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p. 154.

(٣٤) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals p. 640 p. 640; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p. 155.

(٣٥) W. Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, pp. 148-149.

(٣٦) Ibid./ p. 149.

(٣٧) Ibid., and see Nick Bleszynski's Bloodlust: *The Unsavoury Tale of Alexander Pearce, the Convict Cannibal*, (North Sydney, N.S.W: William Heinemann) 2008.

(٣٨) Ibid., p. 126-127.

وانظر صورة القصيدة الشعبية التي نظمت حينها حول تفاصيل ما جرى على السفينة فرانس ماري من بطولات. القصيدة منشورة في "L.C.Fol. 70 (134a)" *The Word in the Street*

(٣٩) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals p. 640; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p. 154. And see also Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, pp. 126, 139, 263.

(٤٠) Roy Palmer, *The Oxford Book of Sea Songs*, 159 Sea Songs chosen and edited by Roy Palmer, (The Oxford Book of Sea Songs, 1986), pp. 156-157.

(٤١) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 124.

(٤٢) Ibid. 132.

(٤٣) بين طاقمنا أربعة غلمان تتملى العين وسامتهم

إنهم في ربيع الحياة، ولم يبلغوا بعد التاسعة عشرة.
صاح القبطان، فليُجرِ الغلمانُ الأربعة قرعة بينهم
ليس لديهم زوجات ينحبن عليهم. ولا بد لواحد منهم أن يموت.
كان الفتيان الأغرار يسحبون القرعة
ويتناظرون بعيون طافحة بالدمع الملح
ثم عصبوا عيني الفتى أوبراين بعصابة
لقد حكمت عليه القرعة الأولى بالموت.
قال أوبراين لرفاقه: أخبروا أمي
عندما تعودون لإيرلندا بقسوة هذا الموت الذي عانيته
ونودي على جون غوردون [طباخ السفينة] أن دع دمه ينفر من عروقه
فحاول ولم يفلح، إذ لم ينزف الغلام قطرة واحدة
وهنا صاح الطباخ: أيها القبطان الظالم. هذا عمل لا أستطيعه
قال القبطان إقطع حنجرته أو ستلاقي مصيره
فأخذ الطباخ السكين بيد راعشة

وقطع حنجرته فشربنا الدم حال تدفقه من فم الجرح...

Ibid., pp. 321-22.

(٤٤) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, pp. 127, 164, and see: Gerald Porter, "The Tender Cabin Boy, Cannibalism and the Subject," *Acta Ethnographica Hungarica*, An International Journal of Ethnography Vol 47, No2, No 1-2, July 2002. p.72.

(٤٥) Says gorging Jack to guzzling Jimmy,

"With one another we shouldn't agree!

There's little Bill, he's young and tender,

We're old and tough, so let's eat he."

"O Billy! we're going to kill and eat you,

So undo the button of your chemie."

William Makepeace Thackeray,

Gordon Norton Ray, *Thackeray: The Uses of Adversity*, Oxford University Press (1955), p. 298-300.

(٤٦) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, pp.117, 315.

(٤٧) Ibid, p.16, and see Gerald Porter, "The Tender Cabin Boy, Cannibalism and the Subject," *Acta Ethnographica Hungarica*, An International Journal of Ethnography Vol. 47, No. 1-2, July 2002. pp. 69-77.

(٤٨) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals" p. 639; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p.153; Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 84.

(٤٩) David Brown, David Farrier, Luke McNamara, and Sandra Egger, *Criminal Laws: Materials and Commentary on Criminal Laws and Process in New South Wales*, (The Federation Press 2001), p. 767.

(٥٠) Douglas Gewitt, "Heart of the Darkness and Some Old and Unpleasant Reports," *The Review of English Studies*, 1987, xxxviii, No. 151, pp. 374-376.

(٥١) Gananath Obeyesekere, "British Cannibals" p. 640; Gilles Bibeau, Ellen E. Corin, *Beyond Textuality*, p. 154.

(٥٢) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 113.

(٥٣) Ibid., p. 122.

(٥٤) Ibid., p. 150.

(٥٥) Ibid, pp. 115-116.

(٥٦) ـ ليس في العالم كنيسة واحدة شُيدت، أو نسجت لاهوتها على أساس عنصري يتعارض مع كل تعاليم السيد المسيح كالكنيسة الإنكليزية، كما سأوضح في غير هذا المكان.

(٥٧) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 153.

(٥٨) *The Guardian, January 8, 2008.*

(٥٩) The Telegraph (London), November 10, 2007.

(٦٠) Brian Simpson, *Cannibalism and the Common Law* 1984, p. 153.

(٦١) Ibid., p. 154.

(٦٢) In the Colorado Rockies
Where the snow is deep and cold
And a man afoot can starve to death
Unless he's brave and bold.
From The Ballad of Alfred Packer

الفصل الرابع

الكنعنة سلاحاً

«الله رجل إنكليزي»

أوليفر كرومويل، ١٥٩٩ ـ ١٦٥٨

«[كان لدى] الإنكليز وهم يبنون إسرائيل الجديدة [أميركا]
هوس بكنعنة السكان الأصليين المنذورين للإبادة».

المؤرخ البريطاني هاري كلفرول بورتر

من الواضح إذن أن ظاهرة أكل اللحم البشري عرفت بين الإنكليز أكثر مما عرفت بين كل الشعوب التي اتهموها بهذه الشناعة، وإن كنت أحذر مرة جديدة من التعميم والابتذال.

ومن الواضح أيضا أن هذا الهوس الإنكليزي بكنعنة فرائسهم يملأ لغة السياسة والأدب واللاهوت والجريمة لديهم. «وما أكثر الدارسين الذين أشاروا إلى هوس الإنكليز وهم يبنون إسرائيل الله الجديدة [في العالم الجديد] بكنعنة السكان الأصليين المنذورين للإبادة» [١]. وهو هوس نابع من اعتقاد الزنابير بأنهم شعب مختار وأنهم هم

الإسرائيليون حقاً، كما أوضحتُ في «حق التضحية بالآخر» وفي «تلمود العم سام» وكما سأفصل ذلك في عمل لاحق عن «الدين في أميركا».

والكنعنة في سياقها العبراني ثم في استعارتها الإنكليزية لا تعيش بدون شكل من أشكال «عقيدة الاختيار» كما يعبر مايسون لورنس Mason I. Lowrence, Jr. عن ذلك أفضل تعبير في كتابه الرائع: «لغة كنعان: الاستعارة والرمز في إنكلترا الجديدة...». وهذا أيضاً ما يتقصّاه المؤرخ ريتشارد درينون Richard Drinnon في كل مرحلة من مراحل التاريخ الأنغلو/أميركي حيث يرى أن كنعنة الزنابير لضحاياهم تجلت في كل تاريخ حروبهم ولازمت إباداتهم ومذابحهم على مدى ٤٠٠ سنة، من جيمستاون (١٦٠٧) حتى مذبحة ماي لاي في فييتنام. ويطلق درينون على هوس الزنابير بكنعنة ضحاياهم اصطلاح «ميتافيزياء كراهية الهنود The Metaphysics of Indian-Hating»، ويكشف عن هذه الكراهية الإنكليزية المستعارة من كراهية العبرانيين للكنعانيين وعن ملازمتها لكل مراحل بناء الإمبراطورية الأميركية(٢).

من البدهي إذن أن هذا الزنبور، ككل المؤمنين بعقيدة «الاختيار الإلهي» التي لا تعيش بدون صورة من صور الكنعنة، لا ينتابه الشك في أخلاقية حقه في القتل والاغتصاب والاستعباد، وفي اعتقاده بأن «الآخر» من الشعوب أو الأعراق الأضعف هو تجسيد للكنعاني الملعون والمستباح. إنها جرعة تخدير قوية تشل كل المشاعر الإنسانية في المؤمنين بها وتمنحهم الطمأنينة اللازمة لممارسة العنف المقدس بنفس راضية لا تشعر بالذنب ولا تعرف تأنيب الضمير. بل إنها لازمة لاعتبار التضحية بالآخر عملاً خيرياً يثاب عليه. لقد بنت عقيدة الاختيار لهم نظاماً أخلاقياً أسمى من الأخلاق؛ نظاماً ينبع من عبادة الذات ويصب في عبادة الذات وتعبيد الآخرين لهذه الذات. وعلينا لهذا أن لا ننتظر من هؤلاء «المختارين» محاكمةً عقلية مختلفة أو سياقاً آخر للفهم، كما أن علينا أن لا نُسقط نظامنا الأخلاقي على هذا الفهم. إن معاييرنا الأخلاقية، (معايير الضعفاء) لغة غريبة يستطيعون سماعها لكنهم لا يدركون معناها.

قد تكون هناك آلاف الأسباب لدخول شعب الله الإنكليزي مسرح الاستعمار، لكن ليس بينها سبب واحد يمكن وصفه بالأخلاقي. إن كل ما قدمته لهم عقيدة الاختيار وقصص التوراة هو أنها ألهبت عبادتهم لذاتهم وصقلت موهبة التشنيع والكنعنة لديهم،

وزادتهم فجارة أخلاقية، خصوصاً أن معظم أنبياء هذا الاستعمار الأخلاقي كجون وايت John White مثلا فسروا القصص التوراتية عن الانتشار في الأرض بأنها أوامر إلهية للإنكليز باستعمار الأرض واستيطانها كلما أتيحت الفرصة، وتساءل «كيف يمكن طاعة أوامر الله دون الاحتلال والاستيطان؟» . وللأسقف لانسلوت أندروس Lancelot Andrewes فلسفة أخلاقية طريفة في طاعة أمر «الله» باستعمار العالم:

الأرض صحن من اللحم موضوع على المائدة. يقطع منه الإنسان ما يشتهي. وما أن يضع القطعة في صحنه حتى تصبح له. كذلك إذا اقتطعنا بلداً لا يوجد فيه سكان [بيض]... فإنه يصبح لنا(٣).

وبالتأكيد فإن هذه السوابق العبرانية من التشنيع على الكنعانيين واستباحة وجودهم لم تؤسس للإنكليز نماذج يتأسون بها في كل أرض يغزونها وحسب، بل نسجت لهم أيضا منظومة أخلاقية حولت الأرض وشعوب الأرض إلى صحن من اللحم الكنعاني الحلال على مائدة الشعب المختار.

هذه العقيدة، عقيدة الاختيار وأشكالها الحربائية المختلفة التي حولت الأرض وشعوب الأرض إلى «صحن لحم»، تشكل مادة خصبة لعلم النفس المرضي وعلم النفس الاجتماعي بل ولعلم الجريمة أيضاً. ولا بد لكل معنيّ بتاريخ الاستعمار والعبودية والإبادات الجماعية من أن يكشف عن دورها المركزي في هذه الظواهر الدموية في التاريخ البشري.

منذ أن أسس جون سميث مستعمرة جيمستاون حيث دشن رفاقه فضيلة أكل لحم البشر في الشمال الأميركي ألحّ على وصف ضحاياه بأنهم مخلوقات من الكائنات الدنيا التي تعبد الشيطان وتعيق تقدم الحضارة. ويروي ريتشارد هاكلويت Richard Hakluyt أحد قديسي ومعاصري الموجة الأولى من الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد تفاصيل مذهلة عن صورة الشيطان الذي يعبده الهنود كما وصفه له المستوطن دافيد إنغرام David Ingram:

لقد أقسم إنغرام بأنه «قابل ذلك الشيطان ورأى عيونه الواسعة كعيون العجل الأسود». وقال إنه مع اثنين من أصحابه تحديا الشيطان بتقواهم فاضمحل

وانسلّ من الباب كاللص، ولم يعد يُرى أبداً[٤].

ولم يكن هذا التشنيع يقتصر على الهنود ولا على الملونين فقد دمغوا به أقواماً أنصع منهم بياضاً وأبهى شقرة وأنقى إيماناً.

ألم يُوَحِّشوا ويبربروا ويُهمّجوا ويوَثّنوا كل شعوب ما يسمى اليوم بالمملكة المتحدة من أهل وايلز واسكتلندا وإيرلندا قبل أن يخضعوهم لعرش وستمنستر؟ هناك ملحمة إنكليزية خالدة في التشنيع على الإيرلنديين كتبت في عام ١٥٧٢ بعنوان On the Disorder of the Irishery يخال قارئها أنها وصف لعوالم مسخ الكائنات. لم تشفع للإيرلنديين أخوتهم في الدين، فجردوهم من المسيحية ونسبوا إليهم عبادة الشيطان ليصدق ادعاؤهم بأن «لاحضارة بدون مسيحية»:

فهم يعبدون الأصنام ولا يخافون الله ولا الشيطان... وهم يجدّفون، ويزنون ولا يعرفون الزواج... وهم يسرقون ويرتكبون أبغض الجرائم. إنهم بلا ضمير ولا وجدان بشري... كنائسهم مجرد اصطبلات، ورهبانهم أجهل من الرعيان... ليس على وجه الأرض من هو أحط عقلاً منهم.. ولا أشك أبداً في أنهم ليسوا مسيحيين[٥].

وللمؤرخ الإيرلندي المعاصر نيكولاس كاني Nichola P. Canny تفسير لماح لهذا التشنيع الديني

فقد نشأ المستوطنون الإنكليز على الاعتقاد بأن الإنسان لا يصبح مسيحياً إلا إذا كان متحضراً. إن الاعتراف بمسيحية الإيرلنديين يعني الاعتراف بأنهم متحضرون [وهذا يقوض كل دعاوى التمدين الذي جاء باسمه الغزو]. وما أن دمغوا الإيرلنديين بالوثنية حتى صار من المنطقي أن يدمغوهم بالبربرية. فكل هؤلاء المستوطنين شاركوا في مغامرات العالم الجديد وحرب العثمانيين وغيرهم من الشعوب التي يعتبرونها بربرية. وهم لهذا لا يكفون عن ترداد هذه الصيغ المبتذلة... بل إنهم عكسوا تصورهم عن العرب والشركس على الإيرلنديين ليدللوا على أنهم برابرة، وأنهم متسيبون يهيمون وراء القطعان، تماماً كما يفعل التتار والعرب. وهم بالتالي يقبعون في أسفل سلّم الحضارة[٦].

وفعلاً، فجون سميث مؤسس أول مستعمرة إنكليزية دائمة في العالم الجديد «كان يعتبر الحرب على الهنود استمراراً للحرب المقدسة على المسلمين. بهذه التصورات المسبقة، الحتمية، والقطعية، وصف شعائر الهنود بأنها تضحية بالأطفال، ووصف كثيراً من الشعائر الدينية الهندية بكراهية لا تضاهيها إلا كراهيته لشعائر المسلمين»(٧). وعلى خطاه، أطلق مستوطنو شعب الله على الهنود والمسلمين حملة تشنيع وشيطنة ثقافية لا تزال حية فاعلة حتى هذا اليوم في السينما والأدب والإعلام والأمثال الشعبية وموسوعات الإهانات والقذع slanders والقذف بالفحش(٨). وهي حملة مشحونة بتصورات متجذرة في الثقافة الأدبية الإنكليزية كما يرى جورج فردريكسون George M. Frederickson رئيس رابطة المؤرخين الأميركيين؛ تصورات عبرانية عن الكنعانيين «كانت أشبه بعدسة مشوّهة قيّم بها الغزاة الأوائل الشعوبَ التي استعمروها ورسموا بها مصيرها»(٩).

مع كنعنة ثقافات الهنود لم يعد بإمكان الهندي أن ينطق بكلمة مفهومة أو ينجز شيئاً ذا قيمة، أو يجد له مكانا في المملكة الإنسانية. ومن هذا المنطلق بسط الكونغرس في عام ١٨٧١ سلطته المطلقة على كل الشؤون الهندية، وأوكل لنفسه تقرير مصير كل المعاهدات مع الهنود. أما الأراضي والثروات الباقية لدى الهنود فقد استولى على معظمها بفضل «سلطة وطنية» عيّنها وأطلق عليها إسم «مكتب الشؤون الهندية». وعند هذه النقطة صار الاستعمار الداخلي للشعوب الهندية كاملاً.

أبداً لم تَلق حجج هؤلاء الكنعانيين الهنود آذاناً صاغية، ولم يُعرف لضحاياهم أسماء أو يُعترف بأن لهم أرواحاً بشرية، فالبشر في منظور «فكرة أميركا» المستعارة من «فكرة إسرائيل» التاريخية هم الأعراف الوهمية الفاصلة بين كائنات دنيا من «أشباه البشر» وكائنات مختارة سامية «فوق البشر». إنهم يمثلون الحلقة المفقودة في سلسلة التطور البشري الذي يمتد عميقاً في الزمن، ولعلهم هم «الأمل في الكشف عن الكيفية العجيبة التي تطور فيها الجنتلمان الإنكليزي من القرد» بتعبير جورج ستوكنغ George Stocking, Jr.. لهذا فاحتلال أرض أشباه البشر واستبدال وجودهم وثقافتهم وتاريخهم بوجود وثقافة وتاريخ «الشعب المختار» هو نتيجة طبيعية لدونيتهم البشرية ولا إنسانيتهم. إن الاغتصاب لا يصيب إلا الفتاة التي تستأهل الاغتصاب. بذلك تتحمل «الفتاة المغتصبة» كل المسؤولية عن اغتصابها. إن الزنبور لا يغتصب

ولا يَقتل ولا يَذبح ولا يَعتدي ولا يُمارس العنف بل يعاقِب. والمستوطن لا يغتصب الأرض عنوة بل «مكره أخاك لا بطل»! ومن الطبيعي أن يكون لكل مذبحة للشياطين أضرار هامشية collateral damages، منها الاستيلاء على المزيد من أراضي الشياطين.

ثم ما ذنب رسل الحضارة ـ كما يقول فرانسيس باركمن Francis Parkman مؤرخ القرن التاسع عشر الذي أصرعلى تفرد الإنكليز [من مستعمري] إنكلترا الجديدة دون غيرهم بالحضارة ـ إذا كانت

> طبيعة الهنود غير مؤهلة لفن الحضارة. ولا بد من تلاشيهم هم وغاباتهم [...] إنهم سيلاقون هذا المصير المشؤوم عاجلاً أم آجلاً. ولا خيار لهم إلا بالفناء أو التمدن[١٠].

ولطالما كانت كنعنة الضحايا سلاحاً من أسلحة الإبادة، ومغزلاً نسج عليه شعب الله الإنكليزي كل مبررات هذه الإبادة. هذا ما تقوله الكنعنة: أنا «الوجود للموت»؛ قيامةُ كلٍّ من ولدته أمه في أرض كنعان. لقد أخطأ الوجود في أرض كنعان زمانه ومكانه وكتب على كل مَن فوقَها زيف الحياة. لم يعد هذا الاصطلاح رياضة ذهنية لفيلسوف اتهمه شعب الله بالنازية، لا، فنحن هنا أمام حرفية هذا «الوجود للموت»؛ نحن أمام قيامة كنعانية يركض أمامها الأفق. قيامة بدأت بكنعانيين من استعارات وكنايات ومجازات لتنفخ صورها أخيراً في أرض كنعان ولحمه ودمه. لقد أمَدّت الكنعنةُ عقيدةَ الإختيار والتفوق الإنكليزية بروافد إضافية أعمتها عن التمييز بين دعاوى التشنيع وبين حقيقة الأخر، وزادتها بذلك غروراً وتعصبا ودموية وعجرفةً أخلاقية. فمعظم الأعمال التي اعتمدت على الخيال في كتابتها عن السكان الأصليين حوّلتها الأنثروبولوجيا الإمبراطورية إلى مراجع تاريخية. بذلك أمسكَ التشنيع بخناق الحقيقة وأغرق الواقعَ في بحر الخيال، ونصّب نفسه رقيباً صارماً يطرد من الوعي كل ما يخالفه، ويجعل من نفسه نبيّاً يبشر بكل الأخلاق اللازمة لتحقيق ما تحتاج له فكرة أميركا، فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

هذا ما يتعلمه الجنود عن عدوهم قبل أن يمضوا إلى أرض المعركة، وما يؤمن به صيادو العبيد عندما كانوا يصطادونهم ويسوقونهم للعبودية. وهذا ما يراه الزبانية

والجلادون والقتلة في ضحاياهم، وما يراه النازيون في من ساقوهم إلى معسكرات التعذيب. ولعل هذا ما يشعر به كل قاتل قبل أن يرتكب جريمته. لهذا كانت كنعنةُ الضحايا ـ أرضاً وجسداً وثقافة ـ ملازمةً لكل حروب الزنابير وسلاحاً من أفتك أسلحتها.

إن أي دارس مبتدىء للتحليل النفسي سيجد في كنعنة الزنابير للشعوب الأخرى تعبيراً فظاً عن جنون العظمة. فهي تقتضي بكل بساطة تمجيداً، بل عبادة للذات، واعتقاداً بأن هذه الذات متفوقة على الشعوب الأخرى طبيعياً أو بتفويض إلهي، خصوصاً أن الله نفسه رجل إنكليزي بتعبير أوليفر كرومويل. وهي تبني للشعب المتفوق أو المختار الأساس «المنطقي» لانحطاط ضحاياه طبيعياً و/أو ثقافياً، وتضع له الأساس الأخلاقي لـ«تمدينهم».

في هذا السياق، وانطلاقاً من تفوق آلة القتل لديهم، افترض الزنابير تفوق ثقافتهم على ثقافات الهنود منذ اللحظة الأولى التي استوطنوا فيها العالم الجديد وبدأوا بنبش قبور الهنود وأكل جثثهم الطازجة. وانطلاقاً من هذا الافتراض اعتقدوا بأن على السكان الأصليين أن يستعدوا لعملية جراحة حضارية تُنتزَع فيها أسماؤهم ولغاتهم وأديانهم وأنظمتهم الاجتماعية وتُستبدَل بها عناصر تساعد الزنابير على تحقيق فكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. أما أولئك الهنود غير الراغبين في هذه الجراحة فعليهم أن يُعاقَبوا «ببضعة شهور من المذابح» كما طالبت بذلك صحيفة Rocky Mountain (١٠ آب/أغسطس ١٨٦٤) قبيل مذبحة ساند كريك Sand Creek الشهيرة التي لا تختلف عن مذابح سبقتها أو مذابح لحقتها في الفيليبين والفييتنام والعراق إلا في الوقت، وليس في الأيديولوجيا.

لكن فكرة أميركا لا تكتفي باحتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. فكما تسعى إلى تجريد ضحاياها من إنسانيتهم، كذلك تستميت في تفريغ عقولهم من أي محتوى، وتتفانى في تشويه ماضيهم وقيمهم وثقافاتهم ودياناتهم وأنظمتهم الاجتماعية لتسويغ تدميرها ولكي تبرر استبدالها بماضي الزنابير وقيمهم وثقافتهم وديانتهم ونظامهم الاجتماعي بأنه برٌّ وإحسان وعمل خيري نبيل. أما من يتعذر موته فما عليه إلا أن «يتمدن» بأن يتدرّب على أن يستعمرَ نفسه ويمضي طائعاً إلى سوق

النخاسة. فلكي يبلغ هذا التمدين غايته النبيلة لا بد لهذا الشقي الناجي من سلسلة المذابح من أن يقتنع بشرعية عبوديته وأخلاقيتها.

والعبودية هنا كما ترسمها الأساطير العبرانية التي تأسست عليها أميركا هي المصير الثاني والأخير للوحش الكنعاني النبيل.

هذه الكنعنة أو التشنيع الثقافي الذي دمغ الزنابيرُ به كل الشعوب التي استعمروها لم يكن يهدف إذن إلا لتدمير ثقافاتهم الأخرى وتبرير إباداتهم. إنّ وَصمَ أي إنسان بالتوحش أو بأكل لحم البشر أو بالوثنية أو حتى «بالوحش النبيل» أو غير ذلك من صفات التشنيع اللانهائية ليس إلا تجريداً لهذا الإنسان من إنسانيته وتأكيداً على ضرورة موته وتركه مجهولاً غير مأسوف عليه. لقد أبادوا سكان أميركا الشمالية [أكثر من ١٨ مليون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة وحدها] وأستراليا[١١] والملايين من سكان عشرات الجزائر وهم مطمئنون إلى أنهم يقتلون وحوشاً، وكذلك ارتكبوا ما ارتكبوا في الفيليبين وكوريا وفييتنام والعراق. ففي ١٨ شباط/ فبراير ١٩٧١، نشرت **النيويورك تايمز** رسالة كتبها المستشار القانوني للضابط وليم كاللي William Calley بطل مذبحة «ماي لاي» في فييتنام يعترف فيها بأن موكله «لم يشعر أبداً بأنه كان يقتل بشراً». وفي العراق حيث ينشر الزنابير اليوم «أعظم التقاليد وأنبلها» لا يخفي الضابط جوش ميدلتون Josh Middleton أن «كثيراً من زملائه الجنود يرون أن هؤلاء [العراقيين]... ليسوا بشراً مثلنا، ولهذا نستطيع أن نفعل بهم ما يحلو لنا»[١٢]. هذا أيضاً ما تجسده أغاني الجنود التي افتضح أمر بعضها بالصوت والصورة كما في شريط «البنت الحاجة [أو بنت الحاج] The Hajji Girl» الذي يعرض مشهداً للجندي جشوا بلايل Joshua Belile بلباسه العسكري وهو يُطرب الجنود في إحدى القواعد الأميركية في أرض المعتصم. كان الجندي يغني أغنية ذات عبارات سادية عن متعة اغتصاب وقتل «البنت الحاجة» (لقب تحقيري للمرأة العراقية) وأهلها، فيما كان الجنود الأميركيون المنتشون يعربدون ويجعرون صفيراً وهياجاً. ومن ذلك وصفه في نهاية الأغنية لما فعله بالبنت العراقية وأسرتها:

خطفتُ أختَها الصغيرة و«وضعتها أمامي»

وفيما كان الرصاص يتطاير كان الدم ينفر من بين عينيها

عندها ضحكتُ ضحكاً جنونيا

ثم اختبأتُ وراء التلفزيون

وعبأتُ بندقيتي

ونسفتُ هؤلاء القحاب التافهين

ثم قلت: «دُركا، دُركا، محمد، جهاد

شِردا، شِردا، بَكالا» [بربرة للسخرية من اللغة العربية والاستهزاء بمحمد]

كان عليهم أن يعرفوا أنهم إنما كانوا «يتمنيَكون» مع المارينز[١٣].

في كل أدبيات الكنعنة أو التشنيع يلحظ الدارس عدداً من الرموز التي برر بها الزنابير حروبهم ومذابحهم، تدور معظمها حول «خطر» ضحاياهم على «الحضارة» وعلى أمن «رُسُل هذه الحضارة». كل ما كتبوه قبل مذابحهم الشهيرة وبعدها، وكل ما جاء على لسان رؤساء أميركا في خطب الحرب التي جمعها Russell D. Buhite[١٤] يشير إلى أن منبع هذا الخطر المزعوم هو طبيعةُ الضحية الشاذة جسدياً أو/ وثقافياً، وهي الطبيعة التي أملى القدر، أو الله، أو سنن التطور هلاكها وشاء لها أن تكون دموية. وما الزنابير في النهاية إلا رسل ابتعثهم الله أو القدر أو سنن التطور الطبيعي لإطلاق رصاصة الرحمة على هؤلاء الأشقياء.

كل هذه الدعوات النبيلة للإبادة أرادت أن تستبق القدر الرحيم وتساعده وتسهل مهمته. وما الكنعنة التي استدعت هذا القدر وحتمته إلا الشروط المثالية التي هيأها الله للكنعاني تكريماً لشعبه المختار مثلما خلق البقرة للذبح والحمار للركب والكلب للوفاء. وهي لهذا لم تنحصر بالهنود الذين واجهوا الغزو الأبيض وقاوموه بل شملت كل من ولدته أمه هندياً في أرض كنعان وصار بهذه الولادة المشؤومة وحدها خطراً على الحضارة ورسل الحضارة.

بذلك صار الهندي لأولئك الذين لم يروا هندياً في حياتهم رمزاً كابوسياً للعدو القدري المتعطش للدم، العنيف، المتوحش، الغدار. هؤلاء المتوحشون بالطبيعة المكنعنون بالقوة هم الذين يهاجمون، ويَقتلون، ويُعذبون المستوطنين الأبرياء الذين

تجشموا كل ما تجشموا «لينشروا في هذه الأرض أعظم التقاليد وأنبلها» ويشعّوا بنور الحضارة على هؤلاء الجاحدين. وإذن فلا جدل ولا مراء في براءة هؤلاء المستوطنين ونبل أعمالهم. أما إذا كان لهؤلاء الضحايا من غريم «شرير» فإنه القدر أو سنن الطبيعة أو الله الذي نسب إليه شعب الله ما تخجل منه الشياطين. ولا شك في أن لفكرة أميركا المستعارة من فكرة إسرائيل التاريخية أكبر الأثر في تجني المستوطنين الإنكليز على الله نفسه، فالفكرة تزعم فيما تزعم

- أن احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة عمل مقدس أمر به الله. وبالتالي فإنه يسمو على أخلاق البشر وأعراف البشر وقوانين البشر.

- أن فكرة أميركا تجسد مشيئة الله في أرض كنعان الجديدة وأهلها وثقافتها كما جسدت فكرة إسرائيل مشيئة الله في أرض كنعان القديمة وأهلها وثقافتها.

- أن المستوطنين الإنكليز كالإسرائيليين التاريخيين استثناء وجودي يحتكر لنفسه الاضطلاع بإرادة الله ويختص وحده بتنفيذها.

- أن معاملة الهنود الحمر لا تخضع للقوانين الأخلاقية، أو الإنسانية العامة، أو المبادىء العقلية بل تحكمها تجربة إسرائيل مع الكنعانيين. وهذا ما جعل المستعمرين الإنكليز يطلقون اسم الكنعانيين على معظم الشعوب التي «مدَّنوها».

- أن نجاح فكرة أميركا في العالم الجديد يشكّل مثالاً طيباً يمكن تكراره حيثما اشتهى شعب الله. فالأرض ـ كما يقول لانسلوت أندروس Lancelot Andrewes «صحن من اللحم موضوع على المائدة يقطع منه الإنسان [الزنبور] ما يشتهي». وما تحقق في كنعان المجاز ليس إلا خطوة على طريق كنعان الحقيقة: فلسطين والعالم العربي[١٥].

وفعلاً، فمنذ جيمس الأول، في بداية القرن السابع عشر، بدأوا يفكرون في غزو العالم العربي (بلدان المغرب العرب العربي أولاً) واستيطانه بالطريقة التي يتم فيها اجتياح أميركا واستيطانها[١٦]. وجهدت أدبيات الغزو في إسقاط كل مغريات أميركا على بلدان المغرب وكل «شناعات» هنود أميركا على العرب والمسلمين. ومع نجاح

موجات الغزو الأولى في إبادة معظم هنود ما يسمى اليوم بإنكلترا الجديدة في عهد شارل الأول التهبت الحماسات لتكرار هذه التجربة في بلدان المغرب العربي، وتفننت قرائح الردح في تشنيع أهل هذه الفريسة القديمة الجديدة وكنعنتهم إلى أن زالت كل الفوارق الإثنية والاجتماعية والعقلية والأخلاقية والحضارية ما بين المور (مسلمي المغرب العربي) وهنود أميركا[١٧]. فدانيال دوفو Daniel Defoe صاحب «روبنسون كروزو» مثلاً كان مفتوناً بما جرى لهنود أميركا. وقد دعا إلى تكرار ذلك العمل النبيل في بلدان المغرب العربي بإقامة مستوطنات إنكليزية في الشمال تطرد «السكان الأصليين native» إلى الجنوب كما طُرد السكان الأصليون natives من هنود أميركا إلى الغرب، وتُفرِّغ البلاد من أجل أن تسكنها أمة جديدة وتثرى وتزدهر[١٨]. لكن تجربة استيطان طنجة بألف جندي إنكليزي انتهت بكارثة فقد طُرِد شعب الله منها في عام ١٦٨٤ شر طردة[١٩].

قبيل مذبحة «ساند كريك Sand Creek» ١٨٦٤، كانت أبواق الزنابير تفسر كل ما يصدر عن الهنود من حركة وسكنة على أنه علامة على عدوانيتهم النابعة من كنعانيتهم الشاذة جسداً وثقافةً. أما الصحف فكانت ترى في طبيعتهم الوحشية تهديداً للحضارة وتدعو إلى القضاء عليهم مرة وإلى الأبد. وذهب بعض المستوطنين إلى القول بأن بشرة الهنود الحمراء ليست إلا رمزاً لطبيعتهم الدموية وأن «الانتهاء» منهم عمل إنساني نبيل.

أبداً لم تنفصل فكرة وجود الكنعاني الهندي عن قدره العدمي. «إن عليه أن يرحل [من الوجود]. إنه راحل فعلاً. ولسوف يتلاشى عما قريب. هذا قدره»[٢٠]. هذا ما أعلنه الجنرال وليم شبرد Major William Shepherd قبل أن يحرك جيشه للقضاء على هنود بنوبسكوت Penobscot. لقد رسمت هذه الحتمية من الهندي مشهداً لا يسرّ عين من يراه إلا ميتاً. فالهندي الصالح هو الهندي الميت فقط The Only Good Indian Is a Dead Indian. وكلمة «الموت» هنا تعني الموت الحرفي لمن قضى نحبه، وتعني كل ما يجعل الحياة بمعنى الموت لمن ينتظر.

هذا هو الخيار الذي أراده شعب الله الملتهب بشهوة الانتقام من هذا العدو الشيطاني قبل مذبحة ساند كريك كما أراده قبل كل مذبحة. ومع ذلك ففيما كان رجال

الكولونيل شفنغتون John Chivington يرتكبون مذبحة ساند كريك وهم مقتنعون بأسطورة تهديد الهنود للحضارة بسبب ثقافتهم وطبيعتهم الشاذة استيقظ ضمير بعض جنوده فأنكروا ذلك التشنيع، ورفضوا المشاركة في هذه الجريمة مثل سيلاس سول Silas Soule وجوزف كريمر Joseph Cramer وشارل فيليبس Charles Phillips وجون سميث John Smith. بل إن هؤلاء رفضوا كل الأعذار التي قدمها شفنغتون للمذبحة، وقالوا:

«إنهم شهدوا بأعينهم يوم وجودهم في سموكي هيل Smoky Hill أن الأسطورة ليست أكثر من أسطورة، وأن الواقع الذي شهدوه وعاشوه مختلف عن كل دعاوى شفنغتون ورجاله. فبدلاً من ذلك الهندي العنيف، المتوحش، الهمجي، الذي لا وجه له [كما قدّمه تشنيع شفنغتون] كانوا يشاهدون إنساناً نبيلاً سامياً. إن هؤلاء الذين ذُبحوا في ساند كريك هم الذين أنقذوا حياتنا في سموكي هيل عندما كانت مهددة بالخطر» (٢١).

لكن دعوى «خطر الضحايا على الحضارة وعلى رسل الحضارة» بسبب ثقافتهم وطبيعتهم الشاذة، وهي الدعوى التي تضرم نارَها اليوم سياسة التخويف Policy of Fear من العرب والمسلمين، كانت دائماً وراء انتصار الأسطورة على الواقع ووراء انتصارها على الديموقراطية الأميركية نفسها. لقد سمحت للزنابير بأن يرتكبوا كل الشناعات الدموية التي نسبوها إلى ضحاياهم واتهموهم وأدانوهم بها. فمثلما فعلت سياسة التخويف قبيل ذبح العراق، كان حاكم «كولورادو» جون إيفانس John Evans قبيل مذبحة ساند كريك لا يكف عن تخويف الكولوراديين من كوارث دموية يُعد لها الهنود. وهو ما عزز الأسطورة وساهم في انتشارها وتصديقها فملأ حياة الكولوراديين بالكوابيس وبنى الأساس «المنطقي» لانحطاط الهنود طبيعياً وثقافياً، ووضع الأساس الأخلاقي لمذبحة ساند كريك وغيرها من سلسلة المذابح التي قضت على أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة ولم يبق منهم في إحصاء ١٨٩٨ سوى ربع مليون إنسان فقط.

مع تشييد الأسطورة لهذين الأساسين، المنطقي والأخلاقي، يرسم كل زنبور لنفسه دوراً بطولياً نبيلاً في حرب الإبادة. أما بالنسبة للكولونيل شفنغتون قائد المذبحة، فقد

أطلقت الأسطورة يديه وأولته عملاً أخلاقياً نبيلاً يعود بالخير على الحضارة ورسل الحضارة. لقد خلقت له الأسطورة «شيطاناً» مثالياً يجني من قتله منفعة خاصة ومجداً كبيراً. (هناك الآن نُصبٌ وشوارع وساحات لتخليد اسم هذا السفّاح، كما إن هناك مدينة باسمه أقيمت على مسافة بضعة أميال من المذبحة تمجيداً له). إن ذبح هؤلاء الهنود المنحطين طبيعياً، وثقافياً ـ عبر ما يسمى بالتمدين ـ هو تعبير عن أن القدر أو الله، أو سنن التطور هي التي أملت هلاكهم وعن أن القدر أو الله أو سنن التطور هي التي سخرت شفنغتون لإنقاذ هؤلاء الأشقياء من حياتهم، كما سخرت التعليم والصابون لتطهيرهم. وهو تجسيد لتفوق الزنابير الأخيار الذين ينتصرون دائماً على الشياطين المتوحشين الضعفاء. لكن أعظم عِبَرِ هذا الذبح النبيل لديهم هي أنهم يرونه تأكيداً على «صدق» القدر المتجلي Manifest Destiny لفكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

الهوامش

(١) H. C. Porter, see pp. 46. 181 and 292.

(٢) Mason I. Lawrence, Jr., *The Language of Canaan, Metaphor and Symbol in New England from the Puritans to the Transcendentalists*, (Harvard University Press, 1980), and Richard Drinnon, *Facing West: The Metaphysica of Indian-Hating and Empire-Building*, (Norman, The University of Oklahome Press1997).

و«إنكلترا الجديدة» منطقة في الولايات المتحدة تقع على الشاطىء الشمالي الشرقي للولايات المتحدة وتشمل اليوم ست ولايات هي: ماين، ونيو هامبشر، وفيرمونت، وماساتشوستس، ورود أيلاند، وكونتكت.

(٣) John White, *A Commentary upon the First Three Chapters of the First Book of Moses called Genesis* (London, 1656), Bk1., p. 113.

وعن صحن لحم شعوب الأرض انظر:

Lancelot Andrewes, *Apospasmatia Sacra* (London, 1657), p. 103.

وفي كتابه *Plaine Path-way* فسر ريتشارد إيبورن Richard Eborne نفس الفقرة («أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها» التكوين: ٢٨: ١) بأن الله فوض شعبه المختار بأن يتملك، ويحتل، ويستمتع بأي منطقة أو بلد يحلو له. انظر:

Richard Eburne, *A Plaine Path-way to Plantations* (London, 1624), "To the Reader," Sig. B1v.

ولعل أطرف تعليق على هذه الفقرة من سفر التكوين ملاحظة جيرمي كوهن Jermy Cohen أن مفسري سفر التكوين لم يهتموا بهذه الفقرة إلا في الفترة الاستعمارية.

Jeremy Cohen, "Be Fertile and Increase, Fill the Earth and Master It": *The Ancient and Medieval Career of a Biblical Text* (Ithaca: Cornell University Press, 1989), 15-18.

وبالطبع لم تتغير المعاني مع استبدال معاذير سفر التكوين بمعاذير القانون الطبيعي. ولا يحتاج القارىء إلى حصافة خارقة ليكتشف التماثل بين اللاهوت الاستعماري المستمد من فقرة سفر التكوين وبين كلاسيكيات جون لوك John Locke عن أصول الملكية الفردية في مقالتيه عن الحكم:

عندما وهب الله العالم لكل البشر أمر الإنسان بالعمل، وأمره بإخضاع الأرض، أي تطويرها لما فيه خير الحياة... كل من يخضع الأرض ويحرثها ويزرعها يستطيع أن يتملكها.

John Locke, *Two Treatises of Government*, II.v.36, ed. Peter Laslett (Cambridge:

Cambridge University Press, 1988), p. 292.

ولكي لا يتناقض شعب الله مع خصوصيته ودالته على بقية شعوب الأرض، فقد أشار العديد من أنبياء الاستعمار إلى أن تملك الأرض ليس لكل من يخضعها بل هناك نعمة إلهية خص الله بها المستوطنين الإنكليز وحدهم. انظر:

William Loddington, *Plantation Work the work of this Generation,* (London, 1682), p.8.

ويضيف: إن لإنكلترا رسالة إلهية فريدة. وهي قناعة تتماشى تماماً مع ما جاء في سفر الخروج من أن تخصيص الله الأرض الموعودة لشعب إسرائيل وحده... والآن ها نحن أيضاً أمام حالة خاصة وهي «إسرائيل الله الإنكليزية God's English Israel». (نفس المصدر والصفحة).

وبالطبع هناك مئات الكتب وآلاف المواعظ التي تتحدث عن سطو الاستعمار الإنكليزي على الميراث العبراني الذي منحهم قناعة بشرعية وأخلاقية ما يفعلونه بالهنود وغيرهم من الشعوب التي كنعنوها وأبادوها.

(٤) Richard Hakluyt, *The Principall Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation* (Hartford, Hakluyt Society Extra Series, XXXIX, 1965). p. 548.

(٥) Nicholas P. Canny, "The Ideology of English Colonization: From Ireland to America," *William And Mary Quarterly*, XXX (October 1973), pp. 584., 585, 586.

(٦) Ibid. p. 586.

بهذا لفق المستوطنون الإنكليز لأنفسهم مبررات أخلاقية وحضارية لاستيطان إيرلندا. ولكن على الرغم من أن معظم هؤلاء المستوطنين نذروا أنفسهم لإدخال الإيرلنديين في الدين المسيحي إلا أنهم لم يفعلوا شيئاً، لأن اعتناق الإيرلنديين للمسيحية مستحيل طالما استمروا في بربريتهم. لهذا أجمعوا على ضرورة تحضيرهم أولاً. وفي سياق ذلك أكدوا دائماً على أن الله أعد الأمة الإنكليزية لتستوطن [هذه الأرض] وتنتشل الإيرلنديين من بربريتهم... لكن كل هذه السفسطة الثقافية عن انحطاط المجتمع الإيرلندي والتفوق الإنكليزي ليست إلا تبريراً طبيعياً لزحف المستوطنين الإنكليز بحثاً عن الثروة...». ومن الواضح أن استعمار إيرلندا على أيدي رجال حاربوا العثمانيين ثم ذهب معظمهم لاستعمار شمال أميركا وقارنوا الهنود بالإيرلنديين إنما كان تأسيساً لممارسات وأخلاق صارت جزءاً لا يتجزأ من الحركة الاستعمارية الإنكليزية على مدار الأرض. (المصدر نفسه).

ثم إن الإنكليز كما يرى المؤرخ الأميركي جيمس أكستل «وضعوا أنكلزة الهنود والشعوب الهمجية أساساً ضرورياً لتبشيرهم باعتبار أن تمدينهم أو إخضاعهم للهيمنة الإنكليزية تجعلهم أكثر قبولاً للمسيحية» .

James Axtell, *The Invasion Within: The Contest of Cultures in Colonial North America*, (Oxford University Press, USA, 1986) pp. 131-178.

(٧) Francis Jennings, *The Invasion of America* (Norton Library, 1975), p. 46.

(٨) لمعرفة صورة الهندي في الثقافة الشعبية الأميركية راجع Ward Churchill, *Fantasies of the*

Master Race: Literature, Cinema, and the Colonization of American Indians, (City Lights Publishers January 1, 2001).

وأطروحة الدكتوراه التي أعدتها راينا غرين Rayna Green, *The Only Good Indian: Images of the American Indian in American Vernacular Culture*, Bloomington: Indiana University [PhD Dissertation], 1974).

ففي هذه الأطروحة مثلاً سرد طويل مخيف للأمثلة الشعبية التي يتداولها الأميركيون في تشنيع الهنود. من ذلك: «قذر كهندي As dirty as an Indian»، و«حقير مثل هندي As mean as an Indian»، و«متوحش كهندي As wild as an Indian»، و«خبيث كهندي Sly as an Indian»، و«الهنود يبقون هنوداً [متوحشين لا فائدة من تمدينهم] Indians will be Indians». و«أبداً، لا تثق بهندي Never trust an Indian» ... إلخ.

خمسة قرون عانى فيها هنود أميركا ما لم يعانه شعب آخر من أقذع صنوف التشنيع والكنعنة التي جردتهم من إنسانيتهم وبررت قتلهم واستعبادهم ونهب بلادهم وأملاكهم. ولقد وصف روي بيرس Roy Pearce (من جامعة كاليفورنيا بسان دييغو) في كتابه النقدي عن «الحضارة والهمجية» الحقيقة الخالدة للتشنيع والكنعنة في فصل يُقرأ من عنوانه: «مجتمع إنساني في درجة الصفر: فكرة الهمجي *The Zero of Human Society: The Idea of the Savage*»، (ص: ١٠٥ ـ ١٣٤) ثم عبر عن الهدف الأسمى للتشنيع على لسان المايجور James Norris. كان ذلك في احتفال بزحف المستوطنين في أراضي الهنود، وكان المايجور في نشوة سكره بالخمر والنصر فأطلق كلمته الشهيرة «الموت لكل المتوحشين الأميركيين death to all American savages». انظر: Roy Harvey Pearce, *Savagism and Civilization: A Study of the Indian and the American Mind*, (University of California Press, 1988) p. 55.

خلال مناقشة في الكونغرس وقف جيمس ميكائيل كافانو James Michael Cavanaugh ليعلن أمام زملائه أعضاء المجلس الموقر بلسان حال المستوطنين في ولايته مينسوتا المنضمة حديثاً إلى الاتحاد: «نعم إنني أفضل موت الهندي على حياته. لقد التقيت بالآلاف من الهنود، لكنني لم أر في حياتي هندياً طيباً. الهندي الطيب هو الهندي الميت. إنني أؤمن بالسياسة التي أرساها مايلس ستانديش Miles Standish [قائد عسكري كان يشبّه حرق الهنود أحياء بحفلات الباربكيو]. إنني أؤمن بالسياسة التي تبيد الهنود.

انظر: *The Congressional Globe: Containing the Debates and Proceedings of the Second Session [of the] Fortieth Congress* (City of Washington: Office of the Congressional Globe, 1868), p. 2638.

وكانت شعارات مستوطني الخطوط الأمامية كلها على غرار: «الهندي الطيب هو الهندي الميت»، وهو تحريف للمثل الشائع «الأفعى الطيبة هي الأفعى الميتة»، ويروى بصيغ مختلفة. وقد تردد مثل هذا الشعار على لسان ديبلوماسي أميركي يدعى باتريك سيرينغ Patrick Syring أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز/ يوليو ٢٠٠٦: **اللبناني الطيب هو اللبناني الميت فقط. العربي الطيب هو العربي الميت فقط. ليعش جيش «الدفاع» الإسرائيلي. الموت للبنان والموت للعرب.**

The only good Lebanese is a dead Lebanese. The only good Arab is a dead Arab. Long live the IDF. Death to Lebanon and death to the Arabs. *CBD News*, July 17, 2006.

حتى كتب الأطفال الأميركيين مسكونة بهذا التشنيع، ففي القصة الرائجة «بيت صغير في البرية» Little House on the Prairie التي قرأها ملايين الأطفال الأميركيين جيلاً بعد جيل، وأخرجت في أفلام ومسلسلات تلفزيونية، نقرأ:

«تمنت السيدة سكوت على الله أن لا يعتدي عليها الهنود، وقالت: الأرض تعرف أن لا علاقة لهم بها. فكل ما يفعلونه هو أنهم يسرحون فيها مثل الحيوانات المتوحشة. هذه الأرض لمن يزرعها، بمعاهدات أو بلا معاهدات. هذا ما تقوله الفطرة والعدالة. إنها [السيدة سكوت] لا تعرف لماذا عقدت الحكومة معاهدة مع الهنود، فالهندي الطيب هو الهندي الميت فقط. إن مجرد التفكير في الهنود يجمد الدم في عروقها» .

Laura Ingalls Wilder, *Little House on the Prairie* (New York: Harper & Brothers,1953), p. 211.

والشاهد من الفصل ١٧ بعنوان Pa Goes to Town.

(٩) George M. Frederickson, *White Supremacy A Comparative Study in American and South African History* (Oxford University Press, 1981), pp. 7-8.

(١٠) Francis Parkman, *The Works Of Francis Parkman The Conspiracy of Pontiac and The Indian Uprising*, (New York: Charles Scriber's sons, 1915), Vol. 1., p. 48. and Vol. 2, pp. 317, 324.

(١١) لم أعثر بعد على أرقام موثوقة لعدد سكان هذه القارة عند غزو الزنابير لها. لكن موسوعة Encarta تقول إن أهل هذه القارة التي تبلغ مساحتها عشرات أضعاف الجزيرة البريطانية كانوا يسكنونها منذ خمسين ألف سنة على الأقل وأنهم كانوا يعيشون في كل بقعة منها مما يعني أن فيها ما لا يقل عن عشرات أضعاف سكان الجزيرة البريطانية في ذلك الزمان.

(١٢) Amina Anderson, Aljazeera TV, 2/7/2007.

(١٣) الأغنية Hajji Girl منشورة ومقروءة ومسموعة ومرئية على كثير من المواقع ويمكن مشاهدتها على YouTube أيضاً. أما كلماتها فهي:

I was out in the sands of Iraq,
and we were under attack,
and well, I didn't know where to go.

Then the first thing that I could see,
Was everybody's favorite Burger King,
So I threw open the door and I hit the floor.

Then suddenly to my surprise,
I looked up and I saw her eyes,
and I knew it was love at first site.

And she said, "Durka Durka Mohammed Jihad",
"Sherpa, Sherpa, Bakala",
Hadji girl, I can't understand what you say.

And she said, "Durka Durka Mohammed Jihad",
"Sherpa, Sherpa, Bakala",
Hadji girl, I love you anyway.

Then she said she wanted me to see,
She wanted me to go meet her family,
But I, well I couldn't figure out how to say no.

Because I don't speak Arabic, so..
She took me down an old dirt trail,
And she pulled up to a side shanty.

And she threw open the door and I hit the floor,
Because her brother and her father shouted,
"Durka Durka Mohammed Jihad"
"Sherpa, Sherpa Bakala"

They pulled out their AKs so I could see,
And they said, "Durka Durka Mohammed Jihad"
Sherpa, Sherpa Bakala"

So I grabbed her little sister and put her in front of me
and as the bullets began to fly, the blood sprayed from between her eyes,
and then I laughed maniacally.

And then I hid behind the TV,
And I locked and loaded my M-16
and I blew those little fuckers to eternity,

and I said, "Durka Durka Mohammed Jihad

Sherpa, Sherpa Bakala

Shoulda known they were fucking with the Marines.

(١٤) Russell D. Buhite (ed). *Calls to Arms: Presidential Speeches, Messages and Declaration of War* (Washington, A Scholarly Resource Inc., 2003).

(١٥) مع ولادة فكرة أميركا، بدأت فكرة إسرائيل تتقمص مبادىء قانونية تتصف بالشمول والإطلاق. وبينما اعترف منظّرو القانون الطبيعي بأن المبادئ الصالحة تمثلت في الأوامر والوصايا التي ضمها الكتاب المقدس افترضوا كذلك أن مضمون القانون الطبيعي يمكن صياغته دون الرجوع إلى أي وحي ديني. لكن الواقع كان مختلفاً تماماً لدى أنبياء الاستعمار الإنكليزي، فنظرية لوك Locke في الملكية لم تستخلص من المبادئ العقلية بل من عناصر معينة في البروتستانتية (البطمية) واليهودية. وليس غريباً هنا أن نجده ينشر عملاً بعنوان «عقلانية المسيحية» The Reasonableness of Chritianity. هذه المعاذير الأخلاقية والدينية لاحتلال أرض الغير ظلت فعالة في حركة الاستعمار الإنكليزية حتى انهيار الإمبراطورية، غير أنها كانت على أشدها في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، وهي القرون التي ارتكب فيها الزنابير أشنع الإبادات الجماعية في التاريخ البشري المعروف فأفرغوا قارتي أميركا الشمالية وأستراليا ومئات الجزائر من سكانها ثم زعموا أنها مجاهل terra nullis لم يكن فيها إلا الوحوش والغابات، وأنهم أحيوا مواتها طاعة لأمر الله «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها». وفعلاً، ففي خطاب لجون دنمور لانغ John Dunmore Lang (أحد قديسي استعمار أستراليا) أمام جمعية أصدقاء السكان الأصليين قال:

إن الله لم يخلق الأرض لرجال لا يقدرون ثرواتها حق قدرها كحال سكان أستراليا الأصليين. إن الرجل الأبيض قد نفّذ إرادة الخالق حين جاء واستوطن في أرض السكان الأصليين. إن أول وصية إلهية للإنسان هي: أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها. انظر: Henry Reynolds, Frontier *Aborigines, Settlers and Land* (Sydney Allen and Unwin 1987) p. 171.

(١٦) Le Comte Henry De Castrir, editor, *Les sourrce inedites de l'histoire du Maroc: Archives et Biblioteques D'Angleterre*, (Paris, Paul Geuthner, 1925), Vol.2, 222ff, quoted by Nabil Matar, *Turks Moors & Englishmen in the Age of Discovery* (Columbia University Press 1999). p. 10.

(١٧) Matar, Ibid.

(١٨) Ibid., 171-172.

(١٩) مرارة هذا الفشل زادت من فجارة التشنيع، فقد حالت القوة النسبية للعرب والمسلمين دون تحقيق أحلام شعب الله في أرض كنعان. وقد ظل التشنيع تشنيعاً إلى أن هجّن بيرسي كوكس أولاداً له في قدس أقداس العرب على غرار أولاد مكولاي.

(٢٠) Major William Shepherd, *Prairie Experiences in Handling Cattle and Sheep* (London: Chapman and Hall, 1884), pp. 61-63.

(٢١) Report, Secretary of War, pp. 10. 26-27, 47 and 127.

الفصل الخامس

«علم إنسان» لا إنساني

«أما أنا فأفضل أن أكون من نسل ذلك القرد الشجاع...

على أن أكون من نسل إنسان همجي».

تشارلز داروين، ١٨٥٩.

ليس غريباً إذن أن تلبس كنعنة الشعوب الملونة لبوس ما يسمى بعلم الإنسان (أنثروبولوجيا) وتجرد هذا «العلم» من كل معنى إنساني. فمنذ تأسيس جيمستاون وما رافقها من نبش قبور الهنود وأكل جثثها الطازجة في عشرينيات القرن السابع عشر صاغ الكابتن جون سميث John Smith (مؤسس المستعمرة) والرحالة الأكسفوردي صاموئيل بورشاس Samuel Purchas التصور العام لاحتكار الإنكليز للحضارة مقابل همجية ووحشية من عداهم من الشعوب. بذلك نسجا الأسطورة التي طاردتها أنثروبولوجيا شعب الله الإنكليزي على مدى أربعة قرون في كل قارات الأرض.

كل الذين أرخوا للحرب على شعب الوامبانوغ Wampanoag وملِكِهم ميتاكوم Metacom المعروف باسم الملك فيليب مثلاً لاكوا هذه الأسطورة حتى انبرت قرائحهم. فالمؤرخ وليم هَبَرد William Hubbard في كتابه «الموسوعي» عن تاريخ

إنكلترا الجديدة *A General History of New England* مثلاً، ألحّ على أن الحضارة هي احتكار خاص للشعب الإنكليزي المختار. وكذلك فعل فرانسيس باركمن Francis Parkman مؤرخ القرن التاسع عشر الذي أصرّ على تفرد الإنكليز [من مستعمري] إنكلترا الجديدة دون غيرهم بالحضارة، لكنه عَلمَنَ المبررات بترجمة مفهوم «الاختيار الإلهي» إلى لغة داروينية نَسَبَت إلى الطبيعة ما نسبه اللاهوتيون إلى السماء، واستعاضت عن «إرادة الله» التي نصرت الشعب المختار دائماً بالاصطلاح الدارويني: «البقاء للأصلح»(١).

ومع أوائل القرن الماضي ورواج ما يعرف بفلسفة «الثغور الحربية» وجدت الأسطورة مبرراً فاتناً خلاباً غير «الاختيار الإلهي» و«البقاء للأصلح» وهو: «الديموقراطية» التي بررت لوولتر وِب Walter Prescott Webb أن يلقي بكوكب الأرض في أحشاء الأسطورة ويجعل العالم كله ثغراً حربياً لفكرة أميركا(٢)؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

والثغر الحربي في هذه الفلسفة خط وهمي ليس موجوداً إلا لمحوه. وفي هذا السياق وصف فريدريك تيرنر Frederick Jackson Turner (وهو من تنسب إليه نظرية الثغور الحربية في أميركا) كيف يقف أولئك الكنعانيون الحمر وراء الثغور الحربية (المستوطنات الجديدة) في الغرب الأميركي ينتظرون مصيرهم المحتوم: الموت أو الاقتلاع أو العبودية. وبالطبع فقد صورهم في حال من الهمجية الميئوس من بشريتها بينما صوّر المستوطنين الزنابير في ذروة الحضارة والمدنية.

تفننت أدبيات «الثغور الحربية» في صياغة تنويعات لا حصر لها من اللغة والاصطلاحات، لكنها جميعا حافظت على قداسة الأسطورة، بين من ترجم «الحضارة مقابل الهمجية» إلى «إنسان أبيض مقابل إنسان ملون»(٣) أو «مسيحية مقابل وثنية»(٤) بحيث اكتسبت هذه «الفوقية» الإنكليزية المطلقة بعداً مقدساً «لا يقل سلطاناً وتأثيراً عن البعد الديني الذي استحكم بعقول العامة أيام الحروب الصليبية»، كما يرى العالم اللغوي والأنثروبولوجي إدوارد سابير Edward Sapir(٥).

ثم إن كثيراً من المؤرخين ذوي المركزية العرقية حاولوا «تعسيل» اللغة القديمة فأخفوا عنصرية التفوق وعواقبها في اصطلاح «التثاقف» acculturation أو، تهذيباً: «التبادل

الثقافي»[٦]. لكن معظم افتراضاتهم ومناهجهم ظلت مسكونة بمركزية عرقية «أنكلوسكسونية» ملفقة، ولا أساس لها بين الأعراق البشرية. إنهم يفترضون دائماً بأنهم يتربعون على أعلى درجة في سلم الحضارة وأن الشعب موضوع الدراسة شكل بشري، أو شبه بشري شاذ عن مألوف الحضارة والمدنية، فهو شعب بربري، أو همجي، أو متوحش، أو وثني يعيش دائماً في المجاهل wilderness، ويجلس ذليلاً مهاناً على واحدة من أسفل درجات السلم الحضاري ينتظر «التمدن» أو الموت. وبالطبع فقد اتخذ الزنابير من هذه التصنيفات المستمدة من خارج فلسفة الأخلاق ذرائع أخلاقية لإلقاء الحجارة من أعلى هذا السلم على رأس مَن في أسفله، ومعاذير لتبرير استخدام العنف المميت لتمدين و«رفع مستوى» من تقتضي مصلحة «الحضارة» تمدينه ورفع مستواه.

معظم أنثروبولوجيي شعب الله تبنوا هذه التصنيفات وأطلقوا عليها زوراً اسم «القانون العلمي» للتطور الحضاري Scientific law of Cultural Evolution الذي صنف أسرتنا الإنسانية إلى مجتمعات بربرية، ومجتمعات متوحشة/همجية savages، ومجتمعات متحضرة[٧]. وهو عملياً استراتيجية وليس بقانون. ومع تبني فردريك إنغلز لهذا القانون/ الاستراتيجية في كتابه «أصل الأسرة، والملكية الخاصة، والدولة» تصالح ماركس وآدم سميث على درجة واحدة من سلم الحضارة وأصبح تصنيف الشعوب إلى بربر وهمج ومتحضرين مشاعاً بين أتباعهما، لا فضل لأنثروبولوجي ماركسي على أنثروبولوجي رأسمالي.

في تلك الأيام أبى هيجل تدنيس تاريخ البشرية بمجتمعات داكنة البشرة ومصنفة دون «الاستبداد الشرقي». لهذا رمى بكل القارة الأفريقية (باستثناء مصر) في سلة الهمجية مدعياً أن «أفريقيا لا تنتمي إلى تاريخ العالم Africa is no historical part of the world»[٨]. وبما أن أفريقيا «أرض تدب فوقها كائنات غير عاقلة، تعيش ولكنها لا تتطور، فإنها تشكل فرصة ذهبية للتوسع الألماني الذي سينعم عليها بالتطور» [٩]. ومع ولادة الداروينية الاجتماعية، صار «العنصر» الشغلَ الشاغل للتاريخ والأنثروبولجيا للزنابير على طرفي المحيط. وصار الهم الأول للمؤرخين والأنثروبولوجيين تمييز اللؤلؤ الإنساني الأبيض وتركيب الشعوب الملونة على السلَّم العنصري، وأحياناً على سُلَّم ديني قاعُه الوثنية وذروته البروتستانتية البيضاء متوجةً بحشيش يوحنا البطمي. لهذا

فليس غريباً أن تقرن معظم المعاجم الإنكليزية معنى الوثنية بالهمجية وبالعيش في المجاهل[١٠].

ولعل فرانز بُواس Franz Boas أبرز من حاول إنقاذ أنثروبولوجيا شعب الله من العنصرية باعتماده «الثقافة» بدلاً من «العنصر»[١١]. لكنه برغم هذا التحول الجريء فإنه ظل وفياً لأسطورة احتكار الزنابير للحضارة مقابل همجية ووحشية من عداهم من الشعوب. فحين كان قيماً في متحف التاريخ الطبيعي بواشنطن قرر اصطياد بعض «العينات البشرية» من الإسكيمو لدراستها، لأن إنسان الإسكيمو في اعتقاده يشكل «مستحاثة حيّة living fossil» تمثل صيادي العصر الجليدي في أوروبا. بذلك أوكل هذه المهمة العلمية النبيلة إلى المكتشف روبرت بيري Robert Peary. وفعلاً فقد أبحر بيري إلى الإسكيمو على سفينة الأمل Hope(!)، واستطاع بخبرته العسكرية الطويلة في البحرية الأميركية أن يخطف ثماني «عيّنات» من سكان الإسكيمو (بينهم طفل)، ويشحنهم في البداية إلى نيويورك حيث عرضهم للفرجة على ٣٠ ألف متفرج لقاء ربع دولار للمتفرج الواحد، ثم ساقهم إلى قبو المتحف الطبيعي بواشنطن للدراسة.

ولم تمض ثمانية أشهر حتى مات ستة من هذه «العينات» البشرية بمرض السل، بينما أعيد واحد منهم إلى غرينلاند ليتدبر أمر عودته إلى أهله بنفسه. أما الثامن وهو طفل يدعى مِنِك Minik (ابن أحد هؤلاء المتَوَفَّوْن الأشقياء «كنعانيي القطب») فقد احتفظ به بُواس ومدير المتحف وليم والس William Wallace «لاستكمال البحث العلمي». وكان الطفل قد طالب بدفن والده في مسقط رأسه وفقاً لتقاليد الإسكيمو فقيل له إن ذلك قد تحقق. لكنه عرف بعد ذلك أن بواس ووالس كذبا عليه، فقد احتفظا بهيكل أبيه في قبو المتحف بين أكوام من عظام الحيوانات المنقرضة والشعوب الملونة. وفي كتاب «حروب الجمجمة Skull Wars»[١٢] يروي دافيد توماس David Hurst Tomas قيّم الأنثروبولوجيا في المتحف موقف بُواس قائلاً:

> حين ألححت عليه بالسؤال: لماذا يحتفظ المتحف بجثة كيسوك Qisuk [أبي الطفل] تحدياً لرغبة أهله وتقاليد شعبه، أجاب بُواس: «كان ذلك عملاً مشروعاً تماماً، إذ لم يكن هناك أحد لدفن الجثة. وللمتحف حق كامل فيها، أكثر من

أهله وأكثر من أي مؤسسة أخرى».

وقد وثّق المؤرخ واللغوي الكندي كِن هاربر **Kenn Harper** تراجيديا هذه الدراسة الأنثروبولوجية العنصرية بكتاب «أعطني جثة أبي: قصة مِنِك»[١٣] فقال:

> لقد وُضعوا في القبو داخل غرفة كئيبة تقبض الصدر فأصيبوا بداء السل الذي لا يتمتعون بأية مقاومة ضده. كان فرانز بُواس و[تلميذه النجيب] ألفرد كروبر Alfred Krober يجرون عليهم الدراسات والاختبارات حتى في لحظات الاحتضار[١٤].

وحين تساءلت صحيفة **Evening Mail** (٢٤ نيسان/أبريل، ١٩٠٩) في مقالة بعنوان «الجنازة المزيفة **The Fake Funeral**» عما إذا كانت الجثة تعود إلى الطفل، أجاب بُواس «كان مِنِك طفلاً صغيراً، ولم يطالب بالجثة. ولو أنه طالب بها لربما كان أخذها». وبالطبع لم يقل: كيف سيأخذ الطفل جثة أبيه، وإلى أين، وهو حبيس في قبو المتحف رهناً لدراسته وتمدينه كما درسوا ومدّنوا أباه.

الهوامش

(١) Francis Parkman, *The Old Regime in Canada* (Boston, New Library 1908), pp. 464-465.

وقد أسهب باركمان في تطبيقات الداروينية الاجتماعية على الهنود، فلم يترك وحشاً في الغابة إلا وجده فيهم. من ذلك قوله مثلاً: «إنهم يرغون ويزبدون في الحرب مثل النمور الذبيحة»، و«يجوسون خلال الغابات مثل الذئاب»، و«يزعقون كالأسود المسعورة». و«ليس الذين يصطادونهم من أجل مكافأة مالية على سلخهم إلا كصيادي الذئاب وغيرها من الوحوش الشنيعة» أنظر مثلاً:

Francis Parkman, *A Half Century of Conflict* (Boston, Little Brown and Co., 1892) I, 260, 263.

(٢) . كما يتضح ذلك من عنوان كتابه *The Great Frontier* «الثغر الحربي الأعظم». ومعروف أن نظرية «الثغور الحربية» التي جسدت أسطورة «الحضارة مقابل الهمجية» هي العلكة المفضلة للتاريخ الأنكلو أميركي. وهي نظرية تنسب إلى فريدريك تيرنر Frederick Jackson Turner لكنها في الواقع ذات جذور عريقة في أدبيات الإنكليز تعود إلى أيام توسعهم الأول داخل جزيرتهم نفسها وحروبهم الدموية مع أقرب جيرانهم الوايلز Wales منذ القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس عشر. ثم إن تجربة استعمار إيرلندا أنتجت تراثاً غنياً من التشنيع وأساليبه. كان استعمار إيرلندا نوعاً من «التدريب». لقد مضوا إليها بأفكار مسبقة عن «بربرية» الإيرلنديين وعن كنعانيتهم أيضاً فلما لم تصدق تصوراتهم المسبقة أعادوا خلق أهلها ليتسعوا في سراويل التشنيع. ولم يتورعوا عن وصف المسيحيين الإيرلنديين بالوثنيين. وما أن صدّقوا كذبهم حتى هان عليهم تجريد الإيرلنديين من إنسانيتهم وقتلهم. ولأن التاج البريطاني تاجُ الشعب الذي أحلت له السماء احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة فقد أعطى لنفسه الحق في ملكية إيرلندا وقتل سكانها، أو طردهم من بلادهم ليرثها مستوطنو شعب الله الإنكليزي. بذلك اعتبروا الإيرلنديين مقيمين غير شرعيين trespasser في أرض يملكها التاج وورثة التاج [كما اعتبر تشرشل الفلسطينيين مقيمين غير شرعيين في فلسطين حيث لا يملكون منها إلا ما يملكه الكلب من حظيرة صاحبه، حتى ولو عاش فيها فترة طويلة]. كذلك ادعوا أن مقاومة الإيرلنديين للغزو ليست إلا مرآة لطبيعتهم الوحشية ونظام حكمهم البربري المستبد، الأمر الذي يؤكد على الحاجة إلى «تمدينهم» مهما كانت الأضرار الهامشية. وقد كان من هذه الأضرار الهامشية قطع الرؤوس وحرق المدن وإبادة السكان، ففي عام ١٥٧٤ مثلاً (٣٣ سنة قبل تأسيس أول مستعمرة إنكليزية دائمة في شمال أميركا) أفنوا سكان جزيرة راثلين Rathlin عن بكرة أبيهم. ومن هذه الأضرار الهامشية التي ترافق عملية التمدين تحويل البلدات والمدن إلى عالم غزاوي يموت فيه البشر جوعاً أو يذعنون، كما عبّر عن ذلك إدوارد باركلي Edward Barkley أحد قادة إحدى الحملات حيث خيّر الإيرلنديين بين الإذعان والموت جوعاً. ثم إنه وصف كيف تمكن رجاله من طرد الإيرلنديين إلى الغابات حتى يتجمدوا أو يموتوا جوعاً. وخلص إلى ملاحظة طالما ترددت على لسان كل قديسي الاستعمار الإنكليزي: «ياله

من عمل نبيل يتمجد به الرب أن نبيد هذا العرق الشيطاني. إنني أعتقد أن إبادتهم أعظم قربان نتقرب به إلى الله». ومن هذه الأضرار الهامشية قتل المدنيين وقطع الرؤوس. فحين بدأت المقاومة لجأ الحاكم الإنكليزي جلبرت Gilbert إلى ذبح المدنيين لأن «ذبح المدنيين بالسيف سيقطع المدد عن المحاربين ويقضي عليهم بالموت جوعاً». ويصف مرافقه توماس تشيرش يارد Thomas Churchyard ضرراً واحداً من هذه الأضرار الهامشية التي ترافق عملية التمدين فيقول: «إن رؤوس كل الذين قتلوا يجب أن تقطع، ثم تُصفّ على طرفي الطريق المؤدية إلى خيمة الحاكم بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إليها دون مشاهدة هذه الرؤوس المعروضة للإرهاب ad terrorem». وفعلاً فقد بعث هذا المنظر حالة شديدة من الإرهاب في نفوس آباء وإخوة وأولاد وأقارب وأصدقاء أصحاب الرؤوس المقطوعة عندما جاءوا للحديث مع الحاكم.

كل هذه الأعذار والمبررات والحجج والتقنيات التي استخدمها البريطانيون في غزو إيرلندا على مدى أربعة قرون سبقت غزو العالم الجديد شكلت مثالاً جاهزاً تأسوا به في كل مكان أرادوا تمدينه. ومنذ تلك الفترة (القرنين ١٢ و١٣) استعاروا فكرة إسرائيل التاريخية وأطلقوا عليها اصطلاح «حق الغزو right of conquest» الذي يعني حق الإنكليز في احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. وقد حملوا هذه التجربة الإيرلندية معهم من ثغر حربي إلى آخر وطوروها مذبحة بعد مذبحة؛ من ثغر بليموث إلى ثغر «البنت الحاجة» في بلد المعتصم والرشيد.

كل ما ورد أعلاه عن إيرلندا مستقى من أعمال نيكولاس كاني Nicholas Canny أبرز مؤرخي إيرلندا المعاصرين ولا سيما مقالته الشهيرة «أيديولوجية الاستعمار الإنكليزي من إيرلندا إلى أميركا»:

Nicholas P. Canny, "The Ideology of English Colonization: From Ireland to America," *William And Mary Quarterly*, XXX (October 1973), pp. 575-597.

وانظر له أيضاً:

The Elizabethan Conquest of Ireland: A Pattern Established, 1565-76 (Barnes & Noble Books 1976); *Colonial Identity in the Atlantic World, 1500-1800* (Princeton University Press, 1989); *Making Ireland British, 1580-1650*, (Oxford University Press, USA, 2003).

(٣) See Douglas Edward Leach, *The Northern Colonial Frontier, 1607-1763: Histories of the American frontier*. (University of New Mexico, 1974).

(٤) See Alden T. Vaughan, New England Frontier: Puritans and Indians 1620-1675, University of Oklahoma Press, 1995).

(٥) Edward Sapir, *An Introduction to the Study of Speech*, (Harvest Books, 1955). See Chapter 11.

(٦) Ralf Linton, Acculturation in 7 American Indian Tribes, (Peter Smith Pub Inc., 1963).

أنظر خصوصاً الفصول ٨ و ٩ و١٠ التي صاغ فيها نظريته عن مفهوم «التثاقف»، فقد لغم الاصطلاح

بكثير من المحسنات التي تتلخص بأن الإبادة الثقافية لم تكن إلا تمديناً للهمج. لقد تجنب الحديث عن انتصار «الشعب المختار» أو تفوق «العرق الأبيض» أو حتمية «البقاء للأصلح» واعتمد اصطلاح «التثاقف» أو «التبادل الثقافي» بين الأوروبيين والهنود. أما لماذا هيمنت ثقافة على ثقافة أو استبدلت ثقافة بثقافة فإنه يبرر ذلك بانحطاط ودونيّة الثقافة الهندية للأمم السبع الذين وصفهم خداعاً بالقبائل. هذه التعابير في النهاية ليست إلا أقنعة جديدة لوجه الأسطورة القديمة.

(٧) ينسب هذا «القانون العلمي» إلى من يطلق عليه أحياناً لقب مؤسس الأنثروبولوجيا الأميركية لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan. والواقع أن هذه التقسيمات كانت مطلقة لدى معظم مؤرخي القرن التاسع عشر. ثم إنها وجدت ضالتها «العلمية» في نظرية التطور البيولوجي لتصبح حجة الله البالغة والمطلقة على تاريخ أسرتنا الإنسانية. لقد تشابك «العنصر» مع «الحضارة» في تسلسل تطوري واحد يبدأ بالبشرة السوداء «الهمجية» في الحضيض ليسمو بالبشرة الأوروبية البيضاء إلى أعلى سلّم الحضارة.

(٨) G.W.F. Hegel, *The Philosophy of History*, trans. J. Jibree. New York: Dover, 1956, p. 99.

(٩) Michelle M. Wright. *Becoming Black: Creating Identity in the African Diaspora* (Duke University Press, 2004), p. 14.

(١٠) انظر معنى كلمتيْ pagan و heathen في معجم أكسفورد Oxford Dictionary.

(١١) كذلك، فإنه حمل على الأنثروبولوجيين الذين عملوا في خدمة الحكومة الأميركية، ففي رسالة جريئة نشرها في *The Nation* (٢٠ كانون الأول/ديسمبر، ١٩٢٠) بعنوان «علماء جواسيس» هاجم بواس الأنثروبولوجيين الذين تجسسوا في أميركا الوسطى خلال الحرب العالمية الأولى، واتهمهم بخيانة مهنتهم. وبالطبع فإن كلاً من الخارجية الأميركية ووزارة الدفاع يستخدمان الأنثروبولوجيين. وليس بعيداً ما كتبته **النيويورك تايمز** (٥ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٧) عن هؤلاء الأنثروبولوجيين الذين يعملون مع الجيش الأميركي في العراق وأفغانستان ليجعلوا الاحتلال أكثر فاعلية. وقالت إنهم يشكلون سلاحاً حاسماً في حرب المقاومة في البلدين. وللمزيد من معرفة دور الأنثروبولوجيين في حروب الزنابير وحملاتهم الإستعمارية إقرأ هذين المقالين المنشورين في مجلتين متخصصتين صادرتين عن الجيش الأميركي:

(*) Montgomery McFate, "Anthropology and Counterinsurgency: The Strange Story of their Curious Relationship," *Military Review*, March-April 2005.

وأيضاً:

(*) Montgomery McFate, "Does Culture Matter The Military Utility of Cultural Knowledge," *Joint Forces Quarterly* (No38, 2005).

إن قارىء هذين المقالين وغيرهما لهؤلاء الذين يدعون الاختصاص بدراسة الثقافة العربية أو الإسلامية يَعرف أي مستوى منحط وصلت إليه الدراسات العربية والإسلامية في المؤسسات والجامعات الأميركية التي لم تعد تختلف دراساتها عن بروباغندا فوكس نيوز *Fox News*. فمعظم الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الأميركية لم تعد تعنى حتى بما كان المستشرقون يعنون به من فلسفة وعلم

وأدب وتاريخ وفن، وصار كل ما يُدَرّسُ عن العرب والمسلمين هو «الجهاد» و«المرأة» و«التطرف» و«الإرهاب» وغير ذلك مما أصبح العلكة المفضلة لهؤلاء الاختصاصيين. إن بليّة معظم هؤلاء «الاختصاصيين» أنهم لا يقرأون العربية، وربما أنهم لم يزوروا بلداً عربياً في حياتهم. ومعظمهم أو لنقل إن بعضهم مريض بالكراهية والعنصرية كرافائيل باتاي وزميلته مستشارة مكتب التحقيق الفدرالي التي عانت من زواج خائب من مصري فتزوجت بعده تشنيع العرب والمسلمين. لكن أسوأ هؤلاء الاختصاصيين هم شهود الزور العرب الذين اشتراهم البنتاغون أو وزارة الخارجية أو وكالات الاستخبارات وأرسل بعضهم إلى العالم العربي في مهمة ما يعرف بـ «كسب العقل والقلب» العربي بحفنة من الكلمات المعسولة والوعود الكاذبة للمغفلين.

(١٢) David Hurst Thomas, *Skull Wars: Kennewick Man, Archeology, and the Battle for Native American Identity*, (Basic Books, 2000), 36-43 & 52-63.

(١٣) Ken Harper, *Give Me My Father's Body: The Life of Minik, the New York Eskimo* (Steerforth Press, March 2000).

(١٤) Ibid., pp35-36 & 85 -86 and about the Fake Funeral, see p. 86.

الفصل السادس

الأرض مقابل «الحضارة»

«اللغة والدين هما خط الدفاع الأخير للهنود
ولا بد من القضاء عليهما».

الكابتن برات،

مؤسس مدارس الهنود، ١٨٤٠ ـ ١٩٢٤

«اللغة الإنكليزية ليست مجرد وسيط للمعرفة والنور
بل هي أولاً وأخيراً طريق الإيمان ببريطانيا».

شارل غرانت (عضو مجلس العموم
ورئيس شركة الهند الشرقية)، ١٨٠٥

هذا «التمدين»[*] الذي تسلح بالتشنيع والغطرسة والعنف ثم وظف المدرسة لتدور فيها آخر فصول الإبادة لأكثر من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة ويسمون زنبوريا بالكنعانيين، هو من عبقرية الكابتن ريتشارد هنري برات Richard Henry Pratt أحد جنرالات «ثروة الأمم» الذي اختارته الإدارة الأميركية لإنشاء هذه المدارس ووضع نظامها وبرنامجها التعليمي تحت مظلة

«مكتب الشؤون الهندية».

والهدف، كما أعلنه برات بنفسه هو «قتل هندية الهنود»[١].

أما طاووس «المكتب» وليم جونس فقد عبر عن هذا الهدف بلغة أكثر وضوحاً: «إن الهدف من إنشاء هذه المدارس هو إبادة الهندي، ولكن لخلقه إنساناً [آخر]»[٢].

to exterminate the Indian, but develop a man

النظير الكندي Duncan Cambell Scott قال:

> إن الهدف هو القضاء نهائياً على القضية الهندية. مهمتنا [التمدين] ستستمر حتى لا يبقى هندي واحد يفكر في ما يسمى بقضية هندية[٣].

معظم أهداف مدارس التمدين تتجسد في شخصية الكابتن Pratt الذي اختير بعناية لإنشائها ووضع برامجها تحت مظلة الطواويس الهنود. فكل مؤهلات الرجل أنه كان مدير سجن عسكري في فورت ماريون Fort Marion، وأنه لم يتولّ أية مهمة تربوية في حياته. ومن مؤهلاته أيضاً أنه أسس نظاماً يعرف بصناعة السجون، سخّر فيه السجناء بالعمل لكي يسددوا نفقات سجنهم وبفائدة مرتفعة، وهو شكل «خيري» متطور من أشكال العبودية الذي أهدته «ثروة الأمم» لفكرة أميركا وطبّقه برات على مدارس الهنود، فحَكَم على كل طفل همجي في مدارس المدنية أن يعمل بالسخرة لمدة تزيد على عشر سنوات إذا أسعده الحظ ولم يفن تمدُّناً قبل ذلك. ولطالما صرّح الكابتن برات بأن اللغة والدين هما خط الدفاع الأخير للهنود، ولا بد من القضاء عليهما. وليس لذلك من سلاح أفضل من تمدين أطفالهم في أصغر سن ممكنة في مدارس داخلية بعيدة عن معازل أهلهم الهنود[٤].

كانت نجاة الربع مليون هندي[٥] من الإبادة الجسدية تقضّ مضاجع شعب الله الإنكليزي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ ما زال تحت أقدامهم أرض تكتنز الثروات التي تُسيل لعاب «ثروة الأمم».. وكان مصير هؤلاء الأشقياء موضع أخذ وردّ وجدل ساخن بين المستوطنين وبين من يسمون أنفسهم بأصدقاء الهنود. فالمستوطنون يريدون المضي بفكرة أميركا، فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب

بشعب وثقافة بثقافة إلى مداها، وذلك بالقضاء نهائياً على الوجود الجسدي للهنود حيثما وُجدوا. أما «أصدقاء» الهنود مثل الكابتن برات فكانوا يفضلون إبادةً ألطف، وأجدى، وأقل كلفة، عَبّر عنها مفوض الشؤون الهندية كارل شُرز Carl Schurz بما قلّ ودل: «الفناء أو التمدّن extermination or civilization»[٦]. كذلك بزّه السياسي والقانوني المتنفذ هنري بانكوست Henry Pancoast في البيان فقال: «نذبحهم أو نمدّنهم. وعلينا ألّا نُضيّع الوقت»[٧].

وبالتأكيد، ليست هناك لغة تضاهي لغة السياسة الإنكليزية في إعطاء «التمدين» و«الذبح» معنى واحداً، فحواه أن هؤلاء الكنعانيين الهنود ما زالوا يملكون بعض الأرض وأن شعب الله يريدها وما زال يعتقد أن ربه أعطاه إياها. أما أنصار التمدين فكانوا يعلمون أن اغتصاب هذه الأرض بغير الحرب لا يتم إلا بزرع الثقافة الهندية ذات البنية الجماعية بالألغام لتدمير نظام التكاتف الجماعي (أو ما تسميه الأنثروبولوجيا العرقية بالمشاع البدائي أو الشيوعية البدائية) واستبدال دماغ الهندي بدماغ أبيض يؤمن بالملكية الخاصة.

> «لابد للطفل الهندي [كما يقول مفوض الشؤون الهندية جورج مانيبني George Manypenny] من أن يتعلم كلمة «أنا» بدلاً من «نحن»، وهذا «لي» بدلاً من «لنا»... إلخ، ليتنازل طوعاً عما يملك»[٨].

ودروس المدنية هنا شديدة الطرافة. وطرافتها ليست في أنها تنسج للمدنية معنيين ونظامين أخلاقيين مختلفين باختلاف لون البشرة بل في أنها تُعلّم الهندي حب الملكية الخاصة من أجل أن يسلبه المستوطنُ كل ما يملك.

بذلك تمحورت أدبيات «الحضارة» و«التمدن» و«الرخاء» و«المدينة الفاضلة» حول الملكية الخاصة التي صارت معياراً للتمييز بين الخير والشر. وصار غيابها «من أبرز معالم المجتمعات الهمجية. وستظل هذه المجتمعات همجية بربرية حتى تتعلم مركزية الملكية الفردية في نشوء الحضارة» [٩]، كما يرى ميريل غايتس رئيس جامعة رتجرز Rutgers ورئيس مؤتمر Lake Mohonk في محاضرة له أمام الجمعية الأميركية للعلوم الاجتماعية (١٨٨٥).

استعانت هذه الأدبيات بأفكار أنبياء الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس من آدم سميث Adam Smith إلى توماس هوبس، homas Hobbes إلى جون لوك John Locke، لرسم الحدود الفاصلة بين الحضارة والهمجية أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وجسدياً وفق معايير «سوقية» لا تقيم للأخلاق وزناً. فالمجتمع السعيد الذي تسوده مكارم الأخلاق هو المجتمع القائم على قواعد الملكية الخاصة. لهذا كان لا بد من وصف المجتمعات الهندية (وكل مجتمعات غير بيضاء هي مجتمعات هندية / كنعانية) بأنها مجتمعات منحطة، ودونية inferior، وهمجية savage حَكمَ عليها قانون «البقاء للأصلح» بالفناء إذا لم تعتمد نظام الملكية الفردية وتلحق بركب الحضارة، فتعطي المستوطنين ما يريدون(١٠).

في سياق هذه الفلسفة رسم الزنابير مصير هذه البقية الناجية من أكبر محرقة في التاريخ البشري. والفلسفة واضحة جداً: تمدنوا في مدارسنا لكي نأخذ أراضيكم. ولكي لا تظنوا فينا الظنون فإننا سنولّي هذه المدارس قوماً من سلطتكم الوطنية ــ «مكتب الشؤون الهندية» ــ ليضطلعوا بهذه المهمة عنا.

«الأرض مقابل الحضارة» هي المعادلة التي نجح ما يسمى بـ«أصدقاء الهنود» في تحويلها إلى سياسة رسمية. ويعتبر مديرُ «دائرة الشؤون الهندية» في وزارة الحرب الأميركية توماس مكنّي Thomas McKenny مهندسَ هذه «السياسة الأميركية تجاه الهنود» كما يوضح ذلك كتاب لهرمان فيولا Herman J. Viola بهذا العنوان، فهو الذي أمضى ست سنوات (١٨١٢ ـ ١٨١٨) يقنع الكونغرس برصد ميزانية لتأسيس مدارس تبشيرية تمدّن الهنود. وفي النهاية وافقت «لجنة الشؤون الهندية» في الكونغرس على تأسيس ما يسمى بصندوق التمدين Civilization Fund، وأعلنت في حيثيات تأسيسه:

> «ضعوا في أيدي أطفالهم الكتاب المدرسي والمجرفة... وعندما تتنور عقولهم، وتتسع آفاقهم سيصبح الكتاب المقدس كتابهم واللغة الإنكليزية لغتهم... ويصبحون عناصر مفيدة في المجتمع»(١١).

ولكن، فيما كان «الأصدقاء» يروّجون لنبل مسعاهم الحضاري وخيريته وإنسانيته، كان المشروع يُدكّ بمعاول المستوطنين المتعطشين إلى مزيد من الأرض، والساخرين من

معاندة «القدر المتجلي» ومن فكرة انتظار الطفل الهندي حتى يتمدن ويتنازل لهم عن أرضه طوعاً. «إنهم يفضلون سلخ فروة رأسه على أن يكونوا مثالاً حضاريا له»[١٢]. لهذا دخل مشروع «الأصدقاء» في غيبوبة وراح ينتظر الظروف المناسبة لإنعاشه ونفخ الروح فيه.

وقد نضجت هذه الظروف فعلاً عندما اختَزَلت فكرةُ أميركا أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون قبل الغزو الأبيض في ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة إلى أقل من ربع مليون كنعاني حكم عليهم شعب الله بالفناء أو العبودية، وعندما وضع الهنود أسلحتهم، واستسلموا لمخدرات اتفاقيات السلام وأوراق قال عنها ريتشارد وايتسِل Richard Whitesell مدير مكتب بيلينغز Billings للشؤون الهندية إنه لا يقبل بأن يمسح بها مؤخرته[١٣]. يومها استجاب الرئيس غرانت Ulysses Grant لنداء الكنائس وبعض «الأصدقاء» الجدد فأطلق ما يعرف بسياسة السلام Peace Policy التي اقتضت فيما اقتضت اجتثاث هندية الهنود بالتعليم والتبشير:

> لقد انقضى عهد الحرب مع الهنود. ما نحتاج له اليوم هو جيش مسيحى من المعلمين. هذا هو الجيش الذي سيربح الحرب. إننا سنقضي على البربرية، ولكننا سنفعل ذلك بالقضاء عليهم بربرياً بعد بربري. سنغزو عقل كل فرد منهم، كل ذكر، وكل أنثى، وكل طفل، وسنعلمهم الحضارة الحق. إننا سنقهر الهنود ونسحق هنديتهم بجيش من المعلمين المسلحين بالأفكار، ونحقق انتصاراتنا بالتدريب الصناعي وبإنجيل المحبة وإنجيل العمل[١٤].

هكذا أرادت «سياسة السلام» أن تكون الآلة المثالية لسحق هندية الهنود و«خلق» جيل من السماسرة الذين لا يرضون عن فكرة أميركا (فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة) ولا يقرّون بما حدث لأهلهم وحسب، بل يتبنون ذلك كله ويعترفون بشرعيته وأخلاقيته ويدافعون عنه ويقاتلون أهلهم في سبيله.

الهوامش

(١) Richard Henry Pratt, "The Advantage of Mingling Indians with Whites," *Proceedings and Addresses of the National Education Association*, 1895. (Washington DC: National Educational Association1895). pp. 761-2.

(٢) Michael. C. Coleman, *American Indian Children at School*, p. 46.

(٣) E. Brian Titley, *A Narrow Vision: Duncan Campbell Scott and the Administration of Indian Affairs in Canada* (University of British Columbia Press (January 1992). P.55.

(٤) Christian Parenti, *Lockdown America: Police and Prisons in the Age of Crisis* (London: Verso, 1999) pp. 211-44.

أمضى برات ثماني سنوات من حياته في محاربة الهنود. ثم إنه أجرى تجربة «تمدين» على مجموعة من ٧٢ أسيراً ينتمون إلى شعوب هندية مختلفة في Fort Marion بفلوريدا. وكتب إلى الجنرال شيريدان Sheridan يعلمه بنجاح تجربته، ويخبره عن «الأخت» الإنجيلية سارة ماذر Sarah Mather التي تطوعت لتعليم الأسرى وجعلت جدران مدرسة السجن ترجّع صدى الصلوات والأناشيد المسيحية. في هذا الوقت كان المبشر الأسقف هنري بنجامين ويبل Henry Benjamin Whipple يُشَتّي في سانت أغسطين القريبة، فسمع بتجربة برات وأعجب بها، مما شجّعه على الالتحاق بركب التمدين. وقد وصف زيارته للسجن في رسالة نشرت في New York Daily Tribune (١ نيسان/أبريل ١٨٧٦) قال فيها:

«لم أتأثر في حياتي كما تأثرت عندما دخلت هذه المدرسة. هأنذا أمام رجال ارتكبوا جرائم [الرجال أسرى حرب!!] فاعتدوا على أطفال ونساء عزّل. هاهم يجلسون مثل أطفال المدارس عند أقدام نساء ويتعلمون القراءة. لقد تغيّرت وجوههم، وفقدوا نظرة الكراهية الهمجية، وإن فجر الحياة الجديدة يسطع في قلوبهم» .

ثم راح الأسقف يتردد على السجن ليبشرهم... وقال: «لقد أعجب الهنود بقصص التوراة، وكانوا يشنفون آذانهم لكلماتي وكأنني رسول الحياة الذي بعثه إليهم الله».

Richard Henry Pratt, *Battlefield & Classroom: Four Decades With the American Indian, 1867-1904*, ed. Robert M. Utley. (New Haven, Yale University Press, 1964), pp. 121, 175, 158. See also Henry B. Whipple, *Light and Shadows of a Long Episcopal* (New York: Macmillan, 1899), p. 34.

(٥) ظلت مؤسسة سميثسونيان Smithsonian الثقافية الرسمية لفترة طويلة تصر على الزعم بأن عدد سكان أميركا الشمالية عند وصول كولومبس لم يتجاوز المليون. ومع تزايد الاحتجاجات، تبرعت المؤسسة بمليون إضافي فقفزت بالرقم إلى مليونين. وبالطبع. كان الرقمان لا يستندان إلى دراسة علمية بل كانا

جزافيين أشبه بضربة النرد. ويعتقد فرانسيس جننغز Francis Jennings الرئيس السابق للجمعية الأميركية للدراسات العرقية والمدير السابق لمركز تاريخ الهنود الأميركيين ومؤلف كتاب «اجتياح أميركا The Invasion of America» أن تقديرات سميثسونيان العشوائية مبنية على افتراضات زائفة ذات طابع عنصري. ومع خمسينيات القرن العشرين بدأت جامعة كاليفورنيا في بيركلي بإجراء أبحاث تعتمد على ما يمكن تسميته بعلم الآثار الزراعي Agricultural Archaeology خلصت منها إلى أن عدد سكان أميركا في زمن كولومبس كان يزيد على مئة مليون. وبتطبيق هذه التقنية على الشمال الأميركي توصل هنري دوبينز Henry F. Dobyns في كتابه «أرقامهم التي هزلت...

Their Numbers Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America, (University of Tennessee Pres, 1983), p. 45.

إلى أن العدد كان في حدود ١١٢ مليوناً، بينهم ١٨ مليوناً ونصف المليون في أراضي ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأميركية (لم يبق منهم في بداية القرن الماضي سوى ربع مليون). وبمقارنة سريعة مع نسبة الزيادة السكانية التي طرأت على الجزيرة البريطانية بين أيام كولومبس (٤ ملايين) واليوم (٥٨ مليوناً) فإن عدد السكان الأصليين في حدود ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة كان يجب أن لا يقل اليوم عن ٢٧٠ مليون إنسان لو لم يتعرضوا للإبادة.

وتعترف مصادر التاريخ المنتصر بأن عدد الأمم والشعوب التي كانت تعيش في الشمال الأميركي كان أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب، وإن كانت تقلل من عدد أفرادها. غير أن الأبحاث التاريخية تقول إن هذا الرقم شديد التواضع وإن أمماً «هندية» كثيرة غير هذه الأربعمائة المعترف بها قد محيت من تاريخ البشر. أنظر كتاب آلفين جوزفي «٥٠٠ أمة»:

Alvin M. Jr Josephy, *500 Nations: An Illustrated History of North American Indians*, (Gramercy; 2002).

إن إصرار التاريخ المنتصر على وصفهم بالقبائل وليس بالأمم والشعوب هو حديث نسبياً. فمعظم المصادر الأولى تتحدث عن أمم أو شعوب Nations هندية وليس عن قبائل. وسأكتفي هنا بمثل واحد أستشهد فيه بواحد من أقدس قديسي التاريخ الأميركي. إن موسوعة كوتون ماذر Cotton Mather ١٦٦٣-١٧٢٨) التاريخية الدينية Magnalia Christi Americana (٧ كتب في مجلدين كبيرين) عن تاريخ المستعمرات الإنكليزية الثلاث عشرة الأولى لا تتحدث إلا عن «أمم» و«شعوب» هندية. هناك ثلاث مرات فقط يستخدم فيها كوتون ماذر لفظ القبائل في موسوعته، وفي المرات الثلاث يشير إلى قبائل «إسرائيل» وليس إلى قبائل هندية. إن استخدام التاريخ المنتصر للفظ القبائل الهندية هو جزء من تزوير لئيم ومتعمد. وللأسف فإن عدداً من الهنود يستخدمون هذا الاصطلاح كما نستخدم نحن مثلاً باستهتار اصطلاح «الشرق الأوسط» للحديث عن عالمنا العربي.

في عام ١٨٢٨ سافر عالم الأحياء الفرنسي جان لوي برلانديه Jean Louis Berlandier عبر تكساس، ولاحظ أن الـ٥٢ أمة هندية التي تعرفت عليها بعثة لاسال La Salle قبل حوالى ١٥٠ سنة قد أبيدت نهائياً، ومحي ذكرها باستثناء أربع أمم فقط. طبعاً، لا نعرف كم أمة أبيدت قبل مدونات لاسال، فحين كان لاسال في لويزيانا عام ١٦٨٢ مثلاً وضع أكثر من علامة استفهام حول الخرائط والحوليات التي تركتها قبله بعثة De Soto، ذلك لأنها تشير إلى وجود عدد كبير من الشعوب الهندية

التي لم يجدها لاسال نفسه بعد أن تم تدميرها منذ زمن طويل. انظر:

Jean Louis Berlandier, *The Indians of Texas in 1830*, (Smithsonian, 1969), p. 74.

(٦) Carl Schurz, "Present Aspects of the Indian Problems," *North American Review*, 133 (July 1881).

(٧) Adams, *Education for Extinction*, p.2

(٨) *Annual Report of the Commissionar of Indian Affairs* (Washington DC, 34 Congress., first session, 1856), p. 559.

(٩) Merill Edward Gates, Land and Law as Agents in Educating Indians, Annual Report of the Secretary of the Interio. 1885. p.777.

وقد كان مؤتمر Lake Mohonk الذي ترأسه غايتس يضم عدداً من «أصدقاء» الهنود الذين تبنوا جميعاً سياسة «تمدين» الهنود.

(١٠) للأسف لا تزال كثير من الدراسات الاجتماعية في العالم العربي تعتمد مثل هذه التصنيفات الاجتماعية (الصيد.. الرعي.. إلخ). ولا تزال كثير من الكتب المدرسية والجامعية تقررها على عواهنها.

(١١) Alice C. Fletcher, *Indian Education and Civilization*, Senate Executive. Document no. 95. 48th Congress, 2nd Session, 1888, serial 2542, 162-163.

(١٢) Adams, *Education for Extinction*, p. 6.

(١٣) "I use them for ass wipe" http//wiki.kisikew.org/bin/view/Main/SFIChapter12.

(١٤) *Proceedings of the Lake Mohonk Conference of Friends of the Indians*, 1981. Quoted by Adams, p. 27.

الفصل السابع

أولاد مَكّولاي

«علينا أن نربّي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم؛
طبقة من أشخاص هنود الدم والبشرة، لكنهم إنكليزيو الذوق،
والأفكار، والتوجه، والأخلاق، والعقل».

توماس مكولاي، ١٨٠٠ ــ ١٨٥٩

فكرة «الاستعمار الداخلي»، أو خلق جيل من السماسرة يُغْنون الغزاة عن الجيوش والأساطيل هي من إبداع توماس مكولاي Thomas Babington Macaulay رسول الإدارة الاستعمارية البريطانية [شركة الهند الشرقية] إلى شبه الجزيرة الهندية. وقد أطلق هذه الفكرة في مذكرة تربوية Minute on Education (١٨٣٥) شهيرة صارت إنجيل السياسة التربوية للزنابير في كل كنعانٍ زحفوا إليها وأرادوا تمدينها. وكان لهذه المذكرة التي تبناها المؤتمر الإمبراطوري Imperial Conference (١٩١٣ ثم ١٩٢٣) تأثير هائل على سياسة تعليم الهمج في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، حيث صار هدف التعليم هو خلق هذا الجيل من السماسرة[1]. أما كيف ولماذا فإن مكولاي يقول:

علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنربّي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم؛ طبقة من أشخاص هنود الدم والبشرة، لكنهم إنكليزيو الذوق، والأفكار، والتوجه، والأخلاق، والعقل(٢).

لكن المدرسة، كما يرى مكولاي، ليست كل شيء. فصياغة العقل الهندي تحتاج أولاً إلى جهود حثيثة لإعادة كتابة التاريخ والثقافة الهندية المكتوبة بالعربية أو بالسنسكريتية، على أن يتم ذلك بأقلام هنود إنكليزيي الذوق والأفكار والتوجه والأخلاق والعقل. وتحتاج ثانياً إلى تسويق المكتبة الإنكليزية كمرجع أعلى للمعرفة. ففي خطاب له أمام جمعية إدنبره الفلسفية The Edinburgh Philosophical Society طالب مكولاي الحاضرين برفع الأنخاب للأدب البريطاني الذي كان له في الهند «نفوذ أوسع من تجارتنا وأقوى من أسلحتنا».

يومها كانت بريطانيا ـ وقد وجدت نفسها عاجزة عن تكرار ما فعلته بكنعانيي أميركا الشمالية وأستراليا ونيوزيلاندة ومئات الجزائر التي زعمت أنها مجاهل فارغة تسكنها الوحوش ـ تُفكر في خلق جيل من السماسرة الهنود تعلمهم قِيَماً وتصورات عنها وعن أنفسهم تعين الاحتلال البريطاني للهند وتساعده على نهب ثرواتها الطبيعية واستغلال عرق أبنائها.

وكان مكولاي قد وصل إلى الهند في ذروة النزاع بين التراثيين والاستشراقيين الذين يريدون استخدام السنسكريتية والفارسية والعربية وبين الزنابير ومبشريهم الإنجيليين الذين يحتقرون هذه اللغات وثقافاتها ويريدون فرض اللغة الإنكليزية. لكنه سرعان ما حسم هذا النزاع حين نشر مذكرته بلغة ساحرة أخذت بلب الحاكم البريطاني للهند اللورد وليم بنتِنِك William Bentnick ورئيس إدارة شركة الهند الشرقية السير جون هوبهاوس John Hobhouse فتبنياها. وبذلك أصبح مكولاي مخلّداً بجيل من الهنود يحتقرون ثقافتهم ويمجدون ثقافة مستعمريهم ويُعرَفون منذئذ بلقب «أولاد مكولاي».

في البدء، وجدت الإدارة الاستعمارية البريطانية أن وصف الهند بالمجاهل التي يسكنها الوحوش فِرية لن يصدّقها أحد، فأبدت بنفاقها الفريد احتراماً مسرحياً للثقافة الهندية وللّغتين السنسكريتية والعربية. بل إنها عجِلت إلى افتتاح مدرسة كلكوتا Calcutta Madrassa لتعليم المسلمين اللغة العربية والشريعة الإسلامية، كما افتتحت

الكلية السنسكريتية Sanskrit College في بنارس Benares لتعليم الشريعة الهندوسية والأدب والدين، ومنعت المبشرين من العمل في الهند، وفرضت على موظفي شركة الهند الشرقية العاملين في الهند أن يتعلموا العربية أو الفارسية أو السنسكريتية ويُلِمّوا بالعاميات الهندية الست وبالشريعتين الهندوسية والإسلامية[٣]. ولكن ما إن أحكمت قبضتها على شبه الجزيرة الهندية مع وصول الحاكم وليم بنتِنك حتى بدأت تفكّر في أنكلزة الهنود على اختلاف دياناتهم ولغاتهم. هكذا استعرت حمى تشنيع الثقافة والحضارة الهندية واتهام العربية والسنسكريتية والفارسية بالعقم والتخلف. وبالطبع فقد كان زنابير «التبشير» و«ثروة الأمم» روادَ النافخين في هذه النار؛ كانوا منذ اللحظة الأولى يحلمون بتمدين الهند لغوياً ودينياً واقتصادياً على غرار تمدين شعوب أستراليا وشمال أميركا.

كانت الكنيسة البريطانية في سباق جنوني مع «ثروة الأمم» إلى أنكلزة التعليم والمجتمع الهندي بعد أن قويت شوكتها داخل شركة الهند الشرقية والبرلمان والإدارة الاستعمارية في الهند[٤]. فشارل غرانت Charles Grant الذي أصبح لاحقاً عضواً في البرلمان ورئيساً لشركة الهند الشرقية من صقور الإنجيليين. وكان يرى أن دخول الهند في دين الزنابير «سينهض بشعبها المنحط أخلاقياً». وقد تجلت حماسته الشديدة لتبشير الهنود في أطروحته عن حال المجتمعات الآسيوية التي تحكمها بريطانيا (١٧٩٢). وهي أطروحة كتبها لدعم الجهود الإنجيلية من أجل حض البرلمان على فتح أبواب الهند للحملات التبشيرية ورسم سياسة تعليمية تؤنكلز المجتمع الهندي وتعيد صياغته. «إن الهنود يرتكبون الخطايا ولا خلاص لهم إلا بنورنا ومعرفتنا. إن الظلام الذي يطبق على الهند لن يزول إلا بنورنا». وبيت القصيد في أطروحة غرانت، كما في مذكرة مكولاي، هو أن «اللغة الإنكليزية ليست مجرد وسيط للمعرفة والنور بل هي أولاً وأخيراً طريق الإيمان ببريطانيا». لهذا «دعا غرانت إلى فتح مدارس مجانية لتعليم اللغة والدين»[٥].

ولم تكن حماسة «ثروة الأمم» بأقل التهاباً. ففلسفة المنادين بالتجارة الحرة وحيتان مذهب المنفعة لا تختلف عن فلسفة غرانت ومكولاي ودعاواهما لأنكلزة المجتمع الهندي لإنقاذه من انحطاطه. ولعل جيمس ميل James Mill (والد فيلسوف الذرائعية جون ستيوارت ميل) أحدُ أبرز وجوه «ثروة الأمم» في شركة الهند الشرقية.

ففي ١٨١٧ نشر ملحمته الهجائية عن الهند وثقافتها وشعبها في كتاب بعنوان «تاريخ الهند البريطانية *History of British India*» في ثلاثة مجلدات ضخمة، وصف فيها البريطانيين في الهند بأنهم في مهمة نبيلة لإنقاذ الهنود من براثن البربرية. ومن مآثر ميلل أنه رفع مذكرة لام فيها الإدارة الاستعمارية على «فتح مدرسة كلكوتا لتعليم العربية والدين المحمدي، والكلية السنسكريتية Sanskrit College في بنارس لتعليم الشريعة الهندوسية. [وطالب الإدارة] بـ«إغلاق هذه المدارس وتعليم ما ينفع» [٦].

في هذا التنافس المسعور بين حيتان «ثروة الأمم» وقديسي التبشير على أنكلزة الهند، لم يعدم التشنيع وسيلة لتفريغ الحضارة الهندية العظيمة من هنديتها، فقد بدأت الفانطازيا الاستعمارية تتحدث عما يسمى بالأصل [الإنكليزي] الآري لهذه الحضارة. ثم حُبِكت هذه الأسطورة بعد اكتشاف متشابهات لغوية بين السنسكريتية وبين بعض اللغات الأوروبية. وبالطبع كان لا بد من نكهة عنصرية لهذه الأسطورة في فورة النزعات العرقية الأوروبية بعامة والإيمان بإنكليزية الله بخاصة، وذلك لإرضاء غرور «الشعب المختار» ولإقناع الهنود بأن الزنابير ليسوا غزاة استعماريين، بل هم عِرق متفوق في مهمة حضارية نبيلة.

تتحدث أسطورة الأصل الآري للحضارة الهندية عن عِرق شديد التفوق والتقدم والذكاء كان في ما قبل التاريخ يسكن أوروبا الشمالية، ثم هاجر في الأزمنة الغابرة إلى شبه الجزيرة الهندية حاملاً معه لغته وفلسفته وحضارته وثقافته المتفوقه لتمدين سكانها وإنشاء هذه الحضارة العظيمة التي تسمى اليوم بالحضارة الهندية[٧]. لكن الأسطورة لا تفسر لماذا لم يَبنِ هذا العرق المتفوق يومها شيئاً من مثل هذه الحضارة في مسقط رأسه أيضاً، ولا تتحدث عن تاريخ معيّن للهجرة، ولا تشرح كيف اختفى الدم الأزرق النبيل تحت البشرة السمراء الداكنة ولا كيف صار لأجداد الملكة إليزابيت سحنة بنغلادشية. هكذا تنتهي الأسطورة بحكمتين خالدتين تقول الأولى منهما أن الإنكليز ليسوا غرباء طارئين على الهند، فهم من نسل ذلك العرق المتفوق الذي بنى لها حضارتها العظيمة الخالدة. وهذا يعني «أن كل ما جرى منذ بداية الحكم البريطاني للهند هو نوع من لَمّ الشمل reunion لأفراد العائلة الواحدة [كما يقول المبشر الإنجيلي جون ولسون John Wilson] وأن للبريطانيين رسالة نبيلة في الهند هي إحياء الحضارة الآرية التي بناها أجدادهم ثم شوّهها وأهانها الاجتياح

البربري العنيف للمسلمين disfigured and corrupted by the violent and barbaric incursion of the Muslims[٨].

والحكمة الثانية تقول إن بإمكان الهند أن تستعيد أمجادها وعصورها الذهبية مع عودة الآريين المعاصرين [البريطانيين !] إليها ومعهم لغتهم ودينهم وفلسفتهم وثقافتهم المتفوقة كما فعلت في غابر الأزمان. كل ما يحتاج له الهنود ليتسنّموا عرش الحضارة من جديد هو أن يتأنكلزوا لغةً، ويتعاطوا مخدرات يوحنا البطميّ، ويبذلوا خزائن الهند ابتغاء مرضاة الله الإنكليزي.

هكذا سَكِرَ أولاد مكولاي بهذه الأسطورة العنصرية التي أفرغت حضارتهم العظيمة من هنديتها، وظنوا فعلاً أن الله الإنكليزي قد ضمّهم إلى ملكوته وأن بشرتهم السمراء الداكنة لن تحجب، بعد اليوم، زرقةَ الدم النبيل في عروقهم. وهكذا صار من واجبهم مشاركة الحكم البريطاني في بعث النهضة الآرية في الهند من جديد! لقد أسست لهم أسطورة الأصل الآري للحضارة الهندية المنطق والأخلاق والحماسة اللازمة لمساعدة الاحتلال البريطاني على تحقيق أهدافه، وللنظر إلى أنفسهم والعالم بعيون الزنابير. فالبنغالي راموهن روي Rammohun Roy مثلاً لم يكتف بالمطالبة بأنكلزة الهنود بل طالب بتبني الثقافة البريطانية لإنقاذ الهند من تخلفها[٩]. لهذا ربما عمل مع المبشر وليم كايري William Carey على تسويق أفكار التبشير بثوب هندوسي للمغفلين الهنود، وذلك في عمل سمياه «كتاب التحرر الأعظم *Book of Great Liberation*»، وهي الاستراتيجية التي يعمل بها مبشرو يوحنا البطمي في العالم العربي اليوم. وقد اعترف روي لاحقاً بأنه أراد تسويق الروح القدس باسم براهما. وكانت الفكرة وراء هذا التدليس من إبداع المبشر كايري الذي أطلقها في كراس حول وسائل جديدة لتبشير الوثنيين[١٠]. أما راموهن روي الذي شنّع على كل أديان الهنود ولغاتهم فإنه توّج تأنكلزه بأن مضى إلى إنكلترا ليعيش فيها آخر سنتين من حياته حيث مات في ١٨٣٣، ووري في بقيع قرية ستابلتون Stapleton القريبة من بريستول، لعل الله الإنكليزي يتغمده بواسع رحمته.

وبالتأكيد لم تكن بريطانيا لتستطيع حكم الهند بأعداد قليلة من العسكر والموظفين لولا هذا الجيل من أولاد مكولاي الذين دربتهم على استعمار أنفسهم، وشحنتهم

بكراهية أهلهم وثقافتهم وتاريخهم، ثم ازدرتهم وسخرت من لكنتهم الهندية فسمتهم تحقيراً «بابو Babus». لقد تطوع هؤلاء للإدارة الاستعمارية بألأم شهادات الزور، فلا الاحتلال يسمى باحتلال ولا المقاومة تسمى بمقاومة، وتبرعوا لها بأقسى حملات التشنيع على ثقافتهم وأهليهم. فبفضل هؤلاء السماسرة صارت حضارة الهنود موضع شك وسفسطة، وصارت مساهماتها في الفلسفة والعلم والفن والأدب موضع جدل والتباس. وبفضلهم سُلب الهنود كثيراً من إنسانيتهم، وسُلقت مقاومتهم للاحتلال بأشنع الأوصاف، وصار الغزاة منقذين ومخلصين لم يجيئوا إلى الهند إلا لانتشال أهلها من مستنقع الجهل والتحجر وتمدينهم(١١).

أولاد مكولاي هم الذين تطوعوا للتشنيع على الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار البريطاني وإحباط نضالها. لقد دأبوا على تدبيج نداءات ومقالات وكتب تُمنّي الهنود بعسل الأفعى البريطانية، وتتهم المقاومة بإفساد جهود التمدين والتحديث التي جاء البريطانيون من أجلها وضحّوا في سبيلها. وقد كان لأولاد مكولاي شرف طعن انتفاضة ١٨٥٧، بين المعتدلين الذين دعوا إلى تبني استراتيجية السلام ورفض المقاومة والمتطرفين الذين ارتكبوا أشنع الفظائع. لم يكتف هؤلاء بالتعاون الفاضح مع مستعمري بلدهم بل زايدوا عليهم في التشنيع على القوى الوطنية ومحاربتها.

من أولاد مكولاي النجباء سالر جنغ Salar Jung رئيس وزراء حيدر آباد الذي خلع عليه البريطانيون لقب «سير» بعد أن استأجر مرتزقة أجانب لمساعدة الإنكليز على ضرب انتفاضة ١٨٥٧، واغتال عدداً من زعمائها أو أعدمهم. لكن سالر جنغ ليس إلا مثالاً واحداً على أولاد مكولاي الذين كتب فيهم الحاكم الإنكليزي ريتشارد تمبل Sir Richard Temple قصيدة غزل ملتهبة ووصف خدماتهم بأنها لا تقدر بثمن priceless:

> لقد أسدوا للقضية البريطانية خدمات لا تقدر بثمن، وذلك في أحلك ساعات الإحباط. إنهم يستحقون منا أكبر التقدير لجهودهم العظيمة التي بذلوها من أجل الاستقرار الإمبراطوري.. إنهم الأعداء الحقيقيون للشعب الثوري(١٢).

كانت أفكار أولاد مكولاي تجسيداً لسياسة التعليم الاستعمارية التي أغنت بريطانيا عن الجيوش والأساطيل وبَنت مؤسسة «الاستعمار الداخلي». ففي سنوات قليلة كما يقول جون نيكول فاركُهار J. N. Farkuhar أحد معاصري مكولاي «تمكنت سياسة

التعليم الجديدة من خلق... رجال يفكرون ويتكلمون بروح إنكليزية»[١٣]. أما شارلز تريفليان Charles E. Trevelyan، صهر مكولاي وأحد بارونات استعمار الهند، فيقول:

إن هؤلاء الرجال تعودوا على النظر إلينا من خلال أدبنا وكتبنا. ولهذا لا يعتبروننا غرباء. إنهم يتحدثون عن رجالنا العظام بنفس الحماسة التي نتحدث عنهم بها. لقد تعلّموا ما تعلّمنا، واهتموا بما اهتممنا، والتزموا بما التزمنا[١٤].

ولم يخف تريفليان في خطاب له أمام لجنة من مجلس اللوردات (٢٣ حزيران/يونيو ١٨٥٣) أن التدمير الثقافي هو الهدف النهائي لسياسة التعليم:

هذا التعليم سيغيّر اتجاه العقل الهندي. فالأجيال الشابة التي تتعلم بهذه الطريقة ستكفّ عن السعي وراء الاستقلال كما يفعل عامة السكان، وستحجم عن اعتبارنا أعداء أو مغتصبين بل سيروننا أصدقاء ومعلمين[١٥].

ومع صعود نجم تريفليان وتعيين الحاكم بنتْنك خضعت الهند لجراحة عقلية حاولت فيها الإدارة الاستعمارية اقتلاع ثقافة الهنود ولغاتهم وأديانهم لمصلحة ثقافة الإنكليز ولغتهم ودينهم.

لقد آن الأوان [كما يقول الحاكم الجديد] لأن ننشر في الهند لغتنا وتعليمنا. وأهم من ذلك كله: ديننا. لا بد لنا من أن نفعل ذلك. لا بد»[١٦].

ولدعم هذه «اللا بُد» أوكل الحاكم بنتْنك إدارة التعليم لمكولاي. وكانت النتيجة واضحة، فبعد أشهر قليلة من وصوله إلى الهند كتب مكولاي لأخته رسالة يخبرها فيها عن سعادته البالغة بالانتصار الساحق للإنكليزية في الهند، ويبشرها بأن الحاكم بنتْنك سيصدر قراراً حاسما باجتثاث اللغات الأخرى[١٧]. ثم عكف على كتابة مذكرته التعليمية التي صارت توصيتها بـ«كسر العمود الفقري» للبلاد المستعمرة عماد السياسة الثقافية للزنابير في كل بلاد استعمروها[١٨]:

«لا أظن أبداً أننا سنقهر هذا البلد ما لم نكسر عظام عموده الفقري التي هي لغته، وثقافته، وتراثه الروحي»[١٩].

الهوامش

(١) Robert Phillipson, *Linguistic Imperialism*, (Oxford: Oxford University Press), 1992. p. 111.

(٢) Bureau of Education: *Selections from Educational Records*, Part I (1781-1839). Edited by H. Sharp. (Calcutta: Superintendent Government Printing, 1920). Reprint, Delhi: *National Archives of India*, 1965, pp. 107-117; Also, from Thomas Babington Macaulay, "Speech in Parliament on the Government of India Bill, 10 July 1833," *Macaulay, Prose and Poetry*, selected by G.M. Young (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1957), pp. 716-18.

(٣) Percival Spear, "Bentinck and Education", in: *Cambridge Historical Journal 6*, 1938/40, pp. 78-101.

(٤) Andrew Porter, "Religion, Missionary Enthusiasm and Empire," *The Oxford History of the British Empire: The Nineteenth Century* (Oxford History of the British Empire., 1999), edited by Andrew Porter. Vol. III, pp. 222-246.

(٥) Lynn Zastoupil (ed.), *The Great Indian education debate: Documents relating to the Orientalist-Anglicist controversy*, 1781-1843, (Richmond: Cruzon Press, 1999), pp. 83, 84, 85.

أما عنوان أطروحة غرانت فهو:

Observation On the State of Society among the Asiatic Subjects of Great Britain, particularly with respect to Morals; and on the means of improving it. "Written Chiefly in the year 1792. Ordered, by The House of Commons, to be printed, 15 June 1813.

(٦) Ibid., p. 116.

(٧) حول أسطورة الغزو الآري للهند، راجع:

J. Shaffer, "The Indo-Aryan Invasions: Cultural Myth and Archaeological Reality," In *People of South Asia: The Biological Anthropology of India, Nepal and Pakistan*. J.R. Lukacs, (Ed). (New York: Plenum Press, 1984), pp. 77-90, and David Frawley, *Gods, Sages and Kings: Vedic Light on Ancient Civilization*, (Salt Lake City USA: Passage Press, 1991), pp. 239-262.

(٨) Quoted in Sri Aurobindo, "The Origins of Aryan Speech," *The Secret of the Veda*,

(Auromere Books, 1982) p. 554. and see "Pages from the history of India and the sub-ontinent," Electronic *South Asian History*, September 12, 2001.

(٩) Lynn Zastoupil (ed)., *The Great Indian education debate*. p. 119.

(١٠) William Carey, *An Enquiry of the obligations of Christians to use means for the conversion of heathens*, (Kessinger Publishing, 2004), pp. 15, 25, 26.

(١١) See Ramesh. Chandra Majumdar "The Hindu College," *Journal of the Asiatic Society*, 1955, 11, p. 39-51.

(١٢) Sir Richard Temple, *India in 1880.*, (London, John Mukeay, 1880) p. 60 and see also p. 76.

(١٣) "History of British Rule and Colonization in India," Electronic *South Asian History*, September 28, 2001.

(١٤) Ibid.

(١٥) Ibid.

(١٦) Cyril Henry Philips, *The Correspondence of Lord William Cavendish Bentinck, Governor-General of India, 1828-1835*, (Oxford, Oxford University Press, 1977), Vol. II, p. 1239.

(١٧) John Clive, *The Shaping of the Historian*, (New York: Alfred Knopf, 1973), p. 365.

(١٨) Stephan Evans, "Macaulay's Minute revisited: Colonial Language Policy in Nineteenth-Century India," *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, Vol. 23, No.4, 2002, p. 269.

(١٩) Thomas Babington Macaulay, "Speech in Parliament on the Government of India Bill, 10 July 1833," *Macaulay, Prose and Poetry*, selected by G.M. Young (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1957), pp. 716-18.

الفصل الثامن

أطفال «الهمج» في جِنان «المدنية»

«أطفال الهنود يموتون في هذه المدارس كالذباب...

إن نسبة ضحايا الحروب أقل بكثير

من نسبة ضحايا هذه المدارس».

تقرير برايس Bryce Report، ١٩٠٧

لحظة وصول الطفل إلى «المدرسة» وفك الأغلال من يديه (ورجليه أحياناً)، تبدأ «إبادة الهندي لإعادة خلقه من جديد»، فتحرق ثيابه وخصوصياته الهندية أمام عينيه، وسط مشاعر القرف والاشمئزاز والسخرية والإهانة المتعمدة، وكلمات ألطفها «الهندي القذر dirty Indian»(١). ثم يحلقون شعره، ويُعلمونه أن الشعر الطويل الذي يعتز به الهنود هو من رموز الهمجية.

والشعر الطويل عزيز على قلب الهنود. ويُعتبر الاعتداء عليه كالاعتداء على الشاربين لدى بعض الجماعات أو الاعتداء على اللحى لدى بعض الجماعات الأخرى. إنهم لا يقصّونه إلا للعقاب والإهانة كما يروي دنكن مكريمون Duncan McKrimmon أحد ضباط ميليشيا جورجيا في قصة طريفة عن أسير أبيض حكم عليه الهنود بالموت.

وعندما تشفّعت له فتاتان من البيض قالوا لهما: إنهم يقبلون شفاعتهما وأنهم سيكتفون بأن يعاقبوا الأسير بقصّ شعره قبل أن يحرروه(٢).

لكن عملية التمدين تقتضي انقضاضاً مزدوجاً على هوية الضحية. أولهما تعريته تماماً من كل ما يصله أو يذكّره بحياته «الهمجية»، وثانيهما تلقينه وتحبيبه بكل الرموز والأفكار والقيم وأنماط السلوك «الحضاري» الأبيض. وقد تولت هذه المدارس بنظامها العسكري الصارم سحق النفس الأولى وبناء النفس الجديدة بالتزامن، بحيث «تُبرعم» الحضارة في كل موقع تسحق فيه الهمجية. وأول تلك البراعم قص الشعر وحرق الملابس وتبديل الأسماء من هندية ثقيلة على السمع واللسان إلى إنكليزية عذبة. ويروي «أوتاكته Ota Kte» الذي فرضوا عليه اسم لوثر ستانديننغ بير Luther Standing Bear في كتاب له كيف كان الأطفال يساقون للجزّ واحداً بعد الآخر، ثم يعود كل واحد منهم مقطباً أو باكياً وقد أصبح شكله غريباً مضحكاً بشعره القصير.

> حين ساقوني لحلق شعري بالقوّة، أحسست بالمهانة والذل وطفحت عيوني بالدمع. وهذا ما أحس به كل أطفال سو.. لم يستطع أحد منا أن ينام تلك الليلة جيّداً. كنا نتحسس رؤوسنا طوال الوقت، ونشعر بالحقارة والشذوذ(٣).

كان هناك إصرار مسرحي على إهانة هذا الطفل وإذلاله وإشعاره بأن شعره الطويل رمز من رموز الهمجية وأن تمدينه لا يتم إلا بجزّه. حتى إن أحد هؤلاء الأطفال صرخ في وجه مدير مدرسة Carlisle بغضب: «ألا يمكننا أن نتعلّم حضارتكم بدون قص شعورنا؟ ما هذه الحضارة؟» وردد الأطفال بعده «هاو» [موافقين](٤). وفعلاً، فقد كتب ناظر مدرسة «حصن موهافه Mohave» رسالة إلى تلميذ سابق له يذكّره فيها بتلك اللحظات الأليمة التي جزّه فيها:

> إنني ما زلت أتذكر ما عانيتَه عندما قصصتُ شعرك أول مرّة. ما زلت أرى إلى الآن النساء الموهافيّات يبكين وأنت تحمي شعرك الطويل بيديك. لقد قلت لي: إنك لن تجرؤ على قص هذا الشعر. ولكنني قصصته في النهاية برغم صراخك وممانعتك وبرغم نحيب النساء الموهافيّات. لقد أجبرتك على قص شعرك لا لسبب سوى أن الشعر الطويل رمز من رموز الهمجية لا

ينسجم مع دروس المدنية التي ستتعلمها»(٥).

ولطالما شهدت حفلات الجزّ لحظات من التمرد والعنف تحولت إلى فجائع، وذهبَ ضحيتها بعض الأطفال موتاً بمقص الحضارة أو ضياعاً في البراري والغابات(٦). في إحدى هذه اللحظات المأساوية، كانت إدارة مدرسة Pine Ridge تَعلَم أن أطفال شعب «سو» المقتلعين حديثاً من أحضان أهلهم بالقوة لن يُسلموا رؤوسهم للجزّ بالتي هي أحسن، فأعدت لذلك غرفة خاصة يساق إليها الأطفال واحداً بعد الآخر، وأسدلت كل ستائرها لكي لا يعلم مَن في باحة المدرسة ما يجري. لكن... ما أن أُجلِس أول طفل على كرسي الجزّ حتى هبت ريح قوية أزاحت الستارة وكشفت للأطفال في الباحة عن مقص الحضارة وهو يجز جدائل الهمجية. هنا علت صيحةُ أكثر من طفل: «بابين كاكسا ــــ بابين كاكسا» [إنهم يقصون الشعر. إنهم يقصون الشعر]. رددها بعد ذلك كل الأطفال بذعر. كانت صيحة إنذار مدوية تصفها الناظرة جوليا بأنها

> انداحت إلى البراري؛ صيحة لا تشبهها صَفّارات الحريق، أو الفيضان، أو الزوبعة، أو الإعصار... أفرغت المدرسة من كل الأطفال. كانوا يرددون: «إنهم يقصون الشعر، يقصون الشعر»، ويقفزون من النوافذ والأبواب، ويتدافعون نحو البوابات والأسوار في سباق جنوني نحو قراهم التي تبعد مئات الأميال. لقد كانوا منذ اللحظة الأولى يشكّون بنوايانا ويعلمون أننا سنذلهم ونلحق بهم العار(٧).

الخطوة التالية لسحق هندية الطفل هي تحقير اسمه وتغييره من اسم هندي ثقيل على السمع واللسان إلى اسم إنكليزي موسيقي طنان، يُخلع عليه عادة من أسماء ألمع نجوم الفن والأدب والعلم والسياسة ليوهموه (أو يوهموها) بأنه لم يبق بينه وبين أن يصبح واحداً من هؤلاء العظماء سوى أن يحتقر نفسه وهنديته. إن لكل الهنود الذين أعرفهم أو الذين أقرأ لهم أسماء إنكليزية فخمة قد تغريك لأول وهلة بالشك في هنديتهم. وهي أسماء تُخلع جزافاً ويحرّم على الأطفال، بل يعاقبون عقاباً أليماً إذا تنادوا بغيرها. وتحكي هاريِيت غيلستراب Harriet P. Gilstrap كيف كان والدها مديرُ دائرة Sac and Fox يغدق هذه الأسماء الإنكليزية على الأطفال الهنود، فتقول

إن أول ما يخطر على باله هو اسم الرئيس الأميركي، ثم نائبه، ثم ألمع الشخصيات التاريخية والمعاصرة[٨]. ولأن معظم هؤلاء المسؤولين مستهترون فقد تناسخت أسماء الأطفال تناسخاً مضحكاً في مدرسة واحدة أو في صف واحد حتى إن معلمة اشتكت من وجود ثلاثة تلاميذ في صفها يحملون اسم يوليوس قيصر، وتلميذين باسم هنري وورد بيشر Henry Ward Beecher [«أشهر شخصيات ذلك الزمان» كما يقول عنوان أحد الكتب عن حياته]. أما «أوتاكته Ota Kte» الذي فرضوا عليه اسم لوثر ستاندينغ بيرLuther Standing Bear فيصف كيف منحوه اسمه الحضاري:

دخل المترجم وقال: هل ترون هذه العلامات على السبّورة؟ حسناً. إن كل علامة منها هي اسم لرجل أبيض. وإنهم سيعطون كل واحد منكم اسماً منها حيث ستُعرفون وتُنادون بعد ذلك بهذا الاسم. هكذا قام الطفل الأول فأشار إلى واحد من هذه الأسماء المكتوبة على ورق لاصق، فلصقوها على ظهر قميصه. وعندما جاء دوري لمست واحداً من هذه الأسماء وكأنني ألمس عدواً لي... وسرعان ما صار لنا جميعاً أسماء الرجل الأبيض ملصوقة على ظهورنا. وفي الصف، حين كانت الأستاذة تقرأ أسماء التلاميذ لم يكن أحد يجيب. لهذا كانت تمشي بيننا وتنظر إلى ظهورنا بحثاً عن التلميذ المقصود... أما نحن فقد بقينا أكثر من أسبوع لا نعرف كيف نلفظ أسماءنا الجديدة[٩].

□ □ □

بعد أن يتلقى الطفل أربعة دروس صباحية في «المواطنة» و«اللغة» و«الدين»، يتناول وجبة غداء دسمة من الخبز والحساء والبطاطا المسلوقة. ثمّ يُساق إلى عمل السخرة، تماماً كما كان الكابتن برات يفعل في سجونه قبل أن يتولى مهمة إنشاء هذه المدارس:

الفتى يعمل في المزرعة الملحقة بالمدرسة أو التي تعهدتها إدارة المدرسة، أو يعمل في مصانع تجارية، أو مناجم فحم، أو ورشات بناء. وعند الحاجة قد يرمّم مبنى المدرسة أو يعبد طرقاتها. أما البنات فيُسقن إلى الخدمة والغسيل والتنظيف ومشاغل الخياطة[١٠]. ولا يُخفي كتاب دليل الطالب Flanreau Student Handbook للعام

الدراسي ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ أن هدف تعليم البنات هو تأهيلهن ليكنّ خادمات مطيعات وطباخات ماهرات ونادلات [تتراقص أوراكهن] في مقاصف البيض.

لقد كان على هؤلاء الأطفال، ذكوراً وإناثاً، كما صرح وزير الداخلية كارل شورتز Carl Schurz أن يؤهَّلوا لفهم تصورنا للعمل والاستيعاب فيه، وذلك:

> من أجل فطم طبيعتهم واقتلاعهم من تقاليد حياتهم وسوقهم إلى حومة النظام الرأسمالي وحاجته إلى يد عاملة رخيصة(١١).

كل أعمال السخرة التي فرضت على أطفال هذه المدارس يحرّمها القانون الأميركي، لكن «ثروة الأمم» مثل «الشعب المختار» فوق كل القوانين. فالكونغرس أصر منذ البداية على أن تكفي هذه المدارس نفسها بنفسها وأن تكون شكلاً من أشكال معسكرات العمل. وعندما أثبتت هذه المدارس جدواها الاقتصادية لم يخف كثير من المسؤولين أن من أهدافها الربح. بذلك كانت ساعات العمل تزداد سنة بعد سنة على حساب ساعات «الدراسة». لقد كان على التلميذ، وفقاً لما فرضه الكابتن برات على السجناء حين كان مديراً للسجن العسكري في فورت ماريون Fort Marion، أن يعمل للمدرسة وليس العكس. وكانت الحجة الدارجة أن عقول هؤلاء الهمج لا تطيق الكثير من عِلم البيض!(١٢)، وأنه في النهاية لا فائدة ترجى من تعليمهم أو تمدينهم. «إن المدارس لا تستطيع أن تنقل الهنود من الهمجية إلى المدنية في جيل واحد»(١٣).

> إن تمدينهم كما يقول مفوض الشؤون الهندية وليم جونس مثل ترويض الطيور البرية التي يجب أن تروّض على مدى أحيال طويلة حتى تتعلم، إذا طارت، أن تعود من تلقائها إلى القفص. فكل جيل من أطفال المدارس سيحن أقل من الجيل السابق إلى الحرية، وسيبدي رغبة أكبر في أن يخضع لعرقنا(١٤).
>
> إن الدم عامل حاسم في عملية التمدين. إنك قد تجد بيض بطة برية في عش فتأتي بها إلى البيت وتضعها تحت ألطف دجاجة في القن. وحين تفقس الفراخ ترعاها الدجاجة التي حضنتها وتعتني بها إلى أن تكبر وتريش. هنا قد تظن أن الفراخ قد ألفت حياة الدجاج ولكن ما أن يعبر فوقها سرب من البط

البري حتى تراها ترفرف بأجنحتها وتطير. لماذا؟ لأنها بط بري[١٥].

و«الطفل الهندي سيبقى هندياً همجياً بلون هندي ودماغ هندي وطقوس هندية، ولا فائدة من تمدينه»[١٦]، [فلتوجهه المدارس إذن نحو الخدمة].

خلال فصل دراسي واحد في مدرسة «حصن ستيفنسون» Fort Stevenson (هل من المصادفة أن كل هذه المدارس تحمل أسماء حصون عسكرية أو قديسين؟)، سُخِّر ٣٨ تلميذاً (أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة) لقطع وتنجير ٣٠٠ سارية خشبية، ولتسوير عشرين فداناً من المراعي، ولقطع وتكسير ٢٠٠ كورد من الحطب (٢٥٦ ألف قدم مكعب)، ولتخزين ١٥٠ طناً من الثلج، ولاستخراج ١٥٠ طناً من الفحم الحجري ignite coal[١٧].

وفي مدرسة هسكل Haskell بنى الأطفال في فصل واحد طابقين إضافيين للمدرسة، وأعادوا بناء مهاجعهم وبلطوها من جديد، كما دهنوا مباني الموظفين وغرفهم، ورمموا الأسطحة، وعمّروا حظائر للقش وبيتاً للحرس، وصنعوا... مفروشات جديدة للمدرسة كالطاولات والمقاعد والمكتبات، وعبّدوا مماشي المدرسة بالإسمنت المسلح[١٨].

وما أنتجه تلاميذ مدرسة شيلوكو Chilocco (أوكلاهوما) كان من معجزات نظام العبودية:

١٢ تلميذاً في هذا المخبز، كانوا ينتجون أسبوعياً ألفي رغيف خبز، وألفي كعكة حلوة buns، و٩٠٠ كعكة بقرفة، و٢٢٠ فطيرة، و٩٠٠ قطعة من كعك الزنجبيل (الجنجر)، و١٨٠٠ قطعة من خبز الذرة. أما في المغاسل فكانت تلميذات المدنية يغسلن في الفصل ٥٧٤ ألف منشفة، و٩٨ ألف شرشف (ملاية)، و٣٥ ألف قميص، وعشرات آلاف قمصان النوم night gowns والوسائد والسراويل الطويلة[١٩].

وفي مدرسة Genona Indian School حيث المنطقة زراعية وبحاجة إلى أقنان، كان تلاميذ المدرسة يتولون كل الأعمال الزراعية في مزرعة مساحتها ٣٠٠ فدان، وفي مدرسة هسكل Haskell كانت مساحة المزرعة ٦٠٠ فدان[٢٠].

□ □ □

برغم كل هذا الإنتاج الذي در على إدارة المدارس أربعة أضعاف نفقاتها السنوية، ظل معظم طعام هذه المدارس على مدى أكثر من مئة عام يقتصر على (أ) الخبز، (ب) الحساء، (ج) البطاطا المسلوقة. كان أطفال هذه المدارس يعملون بالسخرة لدى غزاتهم ومستوطني بلادهم على غرار أقنان القرون الوسطى وعبيد المزارع. وكان إنتاجهم حراماً عليهم. بل كانوا يعاقبون حين تشتهي أنفسهم مذاقه. ففي موسم قطف التفّاح مثلاً تجرأت طفلة من هنود نافاهو على أكل تفاحة:

«في مساء ذلك اليوم، صفّتنا المشرفة في المهجع، وأمرتنا بتعرية نصفنا الأعلى والاستلقاء على بطوننا، ثم جلدتنا جميعاً حتى سال الدم من ظهورنا»[٢١].

وفي مدرسة كاملوبس Kamloops كان الأطفال يجمعون من أقنان الدجاج يومياً ما بين ٣٠٠ و٣٥٠ بيضة لكنهم لا يأكلون إلا بيضة واحدة كل أسبوعين. أما الباقي فهو لفطور السيد الأبيض أولاً، ثم للبيع في الأسواق وتحقيق الربح[٢٢].

وتمهيداً لولادة نظرية بافلوف Ivan Pavlov التي تربط تعلم الحيوان بجهازه الهضمي، كانت وجباتُ الطعام التي يتحكم الجرَسُ بكل مرحلة من مراحلها فرصةً لتلقين الصلوات «المسيحية» والأناشيد الوطنية أحياناً، وسأنقل هنا مشهداً واحداً من هذا النظام البافلوفي لتعليم الحيوانات يرسمه الطفل الهندي المسمّى جيم وايت وولف Jim Whitewolf، وذلك في اليوم الأول من وصوله إلى المدرسة:

لحسن الحظ، كان الصديق لوغان معي. أخبرني أن قرع الجرس لأول مرة يعني أن علينا أن نذهب لنأكل. وقال إنه سيخبرني بما يجب عليّ أن أفعل عندما نصل هناك. ثم قُرع الجرس الثاني. وهذا يعني أن علينا أن نصطفّ لنذهب إلى العشاء. هكذا وقفنا في صفوف طويلة، بحسب طولنا. قال لي لوغان أن أراقب الآخرين وأن أفعل ما يفعلون. كنت أحرك يديّ كالمعتاد، لكن أحدهم صرخ في وجهي بغضب، وقال كلاماً [إنكليزياً] لم أفهمه. لاحظت أن الآخرين واقفون وأيديهم مسبلة على جنوبهم ففعلت مثلهم. ثم إن نفس الشخص قرع الجرس وقال شيئاً فالتفت الأطفال جميعاً والتفتُّ معهم. قرع جرس آخر فمشى الجميع بانتظام وهدوء، فمشيت معهم. وعندما

وصلنا إلى مكان الطعام رأيت طاولات طويلة جداً... ثم وقفت [أنا ولوغان] أمام إحدى الطاولات فنبّهني: إياك أن تقعد. إبق واقفاً حتى يقرع الجرس. وكانت هناك سيدة تحمل بيدها جرساً صغيراً. وما أن قرعته حتى قعد كل الأطفال... لكن أحداً لم يمد يده إلى الطعام... راقبتُ الآخرين وفعلت ما يفعلون. ثم قرع جرس آخر فأناخ كل الأطفال رؤوسهمُ وأغمض بعضهم عيونهم حتى ظننت أنهم سينامون لولا أنهم بدأوا يتمتمون بكلام الرجل الأبيض... ثم قرع الجرس فرفع كل الأطفال رؤوسهم وبدأوا بالأكل، إلا اثنتين لم تتمتما بكلام الرجل الأبيض فإنهما حرمتا من الأكل وعوقبتا بالجلد[٢٣].

ويتذكر طفل من هنود شعب الهوبي:

كان لدينا أكثر من كابتن لتدريبنا العسكري. وكنا بالطبع نرتكب بعض الأخطاء. وحين يرتكب الطفل خطأً يمسكه الكابتن من كتفيه ويهزه هزاً عنيفاً. أما حين تتكرر الأخطاء فيا لها من عقوبات قاسية، ويا لها من إهانات. [ويقول طفل آخر في مدرسة شيلوكو Chilocco:] لطالما قال لي الكابتن: ديزي، يا ابن القحبة، صحح خطوتك».

وقد كان الهدف من هذا النظام [التربوي المهذب] خلق روح الوطنية والولاء للولايات المتحدة[٢٤].

كان كثير من هؤلاء التلاميذ يضطرون لسرقة الطعام ليشبعوا. هذا ما اعترف به طفل ذو أحد عشر «ربيعاً»، بينما قالت الطفلة المسماة هيلين: «لطالما جعت وبكيت من عضة الجوع. كنت أظن أنني سأموت من الجوع. إنك لا تستطيع النوم وأنت جوعان»[٢٥]. وفي عام ١٩٦٦ نشرت تقارير عن Mohawk Academy تقول إن الجوع الشديد اضطر بعض الأطفال للتسلل إلى الاصطبلات والأكل من علف الخنازير[٢٦]. وكتب طفل لأبيه رسالة قال فيها: «إنني جائع دائماً... هناك سبعة أطفال هربوا من المدرسة بسبب الجوع. إننا نُعامل كالخنازير. بعض التلاميذ أكلوا قططاً وحبوباً غير مطبوخة، وبعضهم لا يتوقفون عن البكاء بسبب الجوع»[٢٧].

كل الدراسات التي أجريت لاحقاً بيّنت أن معدل وزن التلميذ في مدرسة التمدين أقل بـ ٣٥ بالمئة من الوزن الطبيعي، وأن ميزانية طعامه تعادل ٢١ بالمئة من ميزانية مدارس أطفال الزنابير التي تموّل جزئياً من إنتاج الأطفال في مدارس الهنود. ثم تبين لاحقاً أن ٩١ بالمئة من هؤلاء الأطفال عانوا من سوء التغذية diety deficiency التي لم يتوفر فيها الحد الأدنى من الاحتياطات الصحية[٢٨].

فعندما وصلت الناظرة الجديدة السيدة كوفيفر D. M. Kefauver إلى المدرسة الداخلية التي عينت فيها بكولورادو اكتشفتْ وكراً للجرذان في عنبر الطحين، فطلبت من المدير السيد مكدانيال McDaniels نقله لكنه لم يستجب. وفي شهادة لها أمام الكونغرس روت السيدة كوفيفر ما حصل بعد ذلك، فقالت:

السيدة كوفيفر: نعم، وجدوا فئراناً وجرذاناً في الطحين. وقد خبزوه وأطعموه للأطفال. كانت رائحته بشعة جداً، وكان يجب التخلص منه.

سناتور باين Pine: تقصدين الطحين أم الخبز؟

السيدة كوفيفر: إنه الخبز الذي خبزوه من ذلك الطحين. كان في وضع مقرف لا يمكن تصوره.

لويس غلافيز Glaviz (رئيس لجنة التحقيق): أعتقد أن إحدى الشهود قالت إنها وجدت قطعاً من لحم الفئران في الخبز. هل وجدتِ مثل هذا؟

السيدة كوفيفر: أنا لم أجد ذلك، لكنني أعلم أن ذلك صحيح.

غلافيز: ألم تتسلمي طحيناً جديداً؟ هل كان عليك أن تستعملي الطحين القديم؟

السيدة كوفيفر: لقد جلبوا بضعة أكياس جديدة للتغطية، وللتمويه على ما أعتقد.

غلافيز: هل اعترضتِ؟

السيدة كوفيفر: بالتأكيد، لكن ذلك لم ينفع.

غلافيز: حدثيني عن وضع اللحم إن كنت تعلمين؟

السيدة كوفيفر: اللحم كان محفوظاً في قبو المفوضية. وأستطيع أن أريكم صوراً لكل هذه الأمكنة. هناك قاعة كبيرة حيث يأكل الموظفون ويستقبلون ضيوفهم. وتحت هذه القاعة قبو يُحفظ فيه اللحم والمعلبات. ليس هناك شبك [نمليات] وليست هناك أرضية [أي إنها لا تزال تراباً] على الرغم من أن هناك أكياس اسمنت مكدسة فيها منذ سنة أو أكثر. إنها أقذر مما يمكن تصوره. ليس هناك شبك لحفظ اللحم. وبالطبع لا أعرف كم يمكن للحم أن يبقى صالحاً في مكان كهذا. ليس هناك ثلج لحفظه. وبالطبع فإنه يفسد بسرعة.

غلافيز: هل أخبرتك الطباخة شيئاً عن وضع اللحم؟

السيدة كوفيفر: جاءت الطباخة إلى المهجع وأخبرتني بحضور الآنسة غروفز Groves المعلمة، والسيدة نيهِر Neher أن السيدة مكدانيال زوجة المدير أمرتها ذلك اليوم بأن تطبخ للأطفال لحماً يعج فيه الدود.

غلافيز: هل أمرتها بأن تطبخ كل اللحم أم بعضه؟ ماذا قالت؟

السيدة كوفيفر: قالت لها أن تنظف اللحم من الدود وتطبخه. وأجابتها الطباخة: إنني أرفض طبخ هذا اللحم رفضاً قاطعاً.

رئيس اللجنة: كم عدد التلاميذ في هذه المدرسة؟

السيدة كوفيفر: هناك ٢٠٠ فتاة وفتى تقريباً.

غلافيز: ماذا عن وضع الحليب؟ هل هو مقبول؟

السيدة كوفيفر: لا، فالاصطبلات ليست نظيفة أبداً، أبداً. والبقر تتمرغ في روثها، ثم تحلب دون تنظيف. وعندما يوضع في الوعاء يكون كثيفاً. وما يترسب في القاع، يُقدم للتلاميذ[٢٩].

وملف تغذية هؤلاء الأطفال في مدارس المدنيّة يضم أمثلة لا نهائية عن خيرات

التمدين الزاحف إلى أرض كنعان مع الديموقراطية وأولاد مكولاي. منها مثلاً، أن طفلة في التاسعة وجدت دودة في حسائها، فأمرتها الراهبة الأخت كارولين بأن تبلعها وتشكر الرب على نعمائه[٣٠]، وطفلة ثانية غثت نفسها من مذاق الطعام لكنها أجبرت على الأكل منه، ولما لفظته معدتها تقيأت في صحنها فغطست الناظرة وجهها في الصحن ثم أمرتها بأكل ما تقيأته[٣١]. ويروي المؤرخ جون ميلوي John Milloy أن إجبار الطفل الهندي على أكل قيئه كان سياسة متبعة في بعض هذه المدارس[٣٢].

□ □ □

كانت المدرسة التي يساق إليها الطفل الهندي وهو في الرابعة من عمره معسكراً «تربوياً» يتعرض فيه للجوع، وأعمال السخرة، والإهمال الصحي، والإهانات العنصرية، والتعذيب بكل فنونه. وكان التعذيب النفسي والجسدي، كما يصفه تقرير رسمي صادر عن الكونغرس «مستفحلاً» في هذه المدارس[٣٣] يشمل التعرية، وتقنيع الرأس، والحبس الانفرادي، والتحرش الجنسي، واستخدام الكلاب، ومعظم تلك الفظاعات التي يكرر الزنابير دائماً وأبداً أنها حوادث فردية نادرة يرتكبها أفراد شاذون دون علم رؤسائهم.

هنا يتلذذ أساتذة التمدين بتعذيب أطفال الهمج بسبب أو دون سبب، كعلك العلكة، أو التلكؤ في العمل، أو مراسلة الأهل، أو أي تصرف أو كلمة تدل على «اعتزاز» بثقافتهم الهندية. لكن أخطر الجرائم كانت تتمثل في الحديث باللغة الأم:

> في مدرسة Alberni Indian School ضُبطت مجموعة من التلاميذ وهم يتحدثون بلغتهم الأم فعوقبوا بغرس إبر خياطة طويلة في ألسنتهم لمدة نهار كامل، وعوقب آخرون في مدارس أخرى بتسميط اللسان بنار الولاعات، أو بإطفاء السجائر فيه[٣٤].
>
> وتروي امرأة كانت قد أدخلت واحدةً من هذه المدارس في أوكلاهوما أن الأطفال الذين يتحدثون بلغتهم الأم Kiowa يجبرون على تنظيف أسنانهم بفرشاة منقوعة بمحلول القِلي الكاوي حتى يهترىء فمهم من الداخل»[٣٥]

"... the kids would end up with the whole inside of their mouth raw"..

ويعتبر «الكرباج» رغيف الخبز اليومي لهؤلاء الأطفال. وكانت حفلات «الكربجة» ـ كما يقول تقرير رابطة الحقوق الهندية Indian Rights Association ـ تقام يومياً. ويروي التقرير قصة تعذيب الطفلة اليتيمة فرجينيا ويكس Virginis Weeks التي لم تطع أوامر غسّالة المدرسة. لقد جرّها الناظر إلى مكتبه وضربها بالعصا، ثم طوّحها يميناً وشمالاً وألقاها أرضاً... ولما رفضت أن تعتذر لغسالة المدرسة جرّها إلى حظيرة الماشية وجلدها بكرباج طوله خمس أقدام (متر ونصف المتر تقريباً). وبعد أن تعب من جَلدها طلب إليها أن تعتذر لغسالة المدرسة فرفضت. لذلك أعاد جَلدها المرة بعد المرة إلى أن كشط جلدها وفقدت الوعي[٣٦]. وفي مدرسة Walker River عاقب الناظر صفاً كاملاً من البنات، حيث عرّى نصفهن الأعلى وجلدهن حتى دمين وكشط جلدهن[٣٧]. وتروي امرأة من هنود نافاهو أن ابنها ذا الثماني سنوات لم يعجب باسمه الجديد هنري فقيّدوا أقدامه بالسلاسل وحبسوه في برج الكنيسة يومين كاملين. ثم إنهم أفرجوا عنه ولكنهم أبقوه مسلسلاً بالحديد. وقد استطاع الهرب. وحين عثرت عليه أمه كان يزحف على يديه وركبتيه والدم يسيل منهما. «كانت ساقاه مسلسلتين بأغلال حديدية. فحملتُه بين يدي وأدخلته البيت»[٣٨]. أما الإهانات العنصرية وفنون التعذيب النفسي فحدث عنها ولا حرج: بعض الأطفال الذين بالوا في فراشهم [مثلاً]... لُطِّخت وجوههم بالغائط وأجبروا على أن يمشوا به بين التلاميذ نهارا كاملاً[٣٩].

أمام هذا الطفل الكنعاني المقتلع من إنسانيته، والمُعَرَّى من كل أسباب الحماية، والمنذور إما «للتمدن أو الموت»، يرى الزنابير أن الاستباحة المفرطة له وتعذيبه جسدياً ونفسياً عمل أخلاقي نبيل ذو غايات إنسانية يأتي في مطلعها «خلق روح الوطنية والولاء للدولة الأميركية» بتعبير المفوض الهندي توماس مورغن Thomas J. Morgan الذي يصر على «أن وحشية الطفل الهندي لا علاج لها إلا بالعقوبات الجسدية... إلخ»[٤٠]. إن هؤلاء الأطفال، كما يعبر عن ذلك أحد كبار علماء الجغرافيا الثقافية في الولايات المتحدة

> يتلبّسون هوية جديدة، ويتحولون إلى قوم آخرين يجب عليهم أن يتآلفوا مع أساطير وطقوس المجتمع الذي يدخلونه، ويتكيفوا مع تقويم مدرسي يبدأ بيوم كولومبس وينتهي بيوم الرابع من يوليو/تموز [عيد الاستقلال عن بريطانيا].

عليهم أن يتعلموا أن أميركا بدأت مع كولومبس، وعليهم أن يحتفلوا بعيده»[٤١].

بدأت هذه المدارس تجبر طلابها على الاحتفال بعيد كولومبس منذ العام ١٨٩٢، وذلك بالتواطؤ مع أولاد مكولاي في مكتب الشؤون الهندية. بل إن أولاد مكولاي زعموا بأن «الأطفال الهنود سيبتهجون كثيراً بهذا العيد وسيحتفلون بكل مشاعرهم وأحاسيسهم»[٤٢]. في تلك السنة التي صادفت الذكرى الأربعمائة لنكبة ١١٢ مليون إنسان من السكان الأصليين كانت سيرة كولومبس قد أشبعت بالأساطير، وكان التاريخ المنتصر يفرضها على أطفال التاريخ المهزوم. لم يعد كولومبوس مسؤولاً عن سفك دماء الملايين من سكان القارة بشهادة شاهد عيان هو المطران الإنساني النبيل برتولومي دو لاسكازاس **Bartolomé de las Casas** طيّب الله روحه. لم يعد كولومبس ذلك النخاس الذي تاجر بالعبيد في أفريقيا قبل أن يدشن هذه التجارة في العالم الجديد. في هذا اليوم يتعلم أطفال الهنود أن كولومبوس أخرجهم من ظلام الهمجية إلى نور المدنية.

في تلك السنة ساق برات ٣٠٥ من «تلاميذ» الهنود إلى شيكاغو، ثم إلى نيويورك للاحتفال بهذا العيد المجيد. كانت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد الوطني: «نجوم وأشرطة (علم أميركي) إلى الأبد»، وكانوا يلبسون البنطلونات ويحملون الأعلام الأميركية ويزينون صدورهم بالصلبان[٤٣] ويحتفلون بنكد الدنيا. يومها كتبت صحف نيويورك أن مشاركة أطفال الهنود كانت «أبهج مظاهر العيد وأكبر برهان على التقدم الأميركي وعلى ما كان يحلم به كولومبس من تنصير سكان القارة»[٤٤].

كذلك حال هؤلاء الأطفال مع إجبارهم على الاحتفال بعيد الشكر **Thanksgiving**، وعيد ميلاد واشنطن، ويوم الاستقلال(!) ويوم الذكرى Memorial Day وغيرها من أعياد الزنابير الوطنية التي تدمي قلوبهم وتعض أرواحهم، وتدفعهم إلى الفرار الذي ينتهي بمعظمهم إلى الموت. لقد أدرك كثير منهم معنى هذا الخيار الوجودي بين «التمدن أو الموت» عندما اكتووا بنار الاستباحة الحضارية لأجسادهم وأرواحهم وثقافاتهم ففروا من وجه العذاب أو فضلوا الانتحار[٤٥]. وفي كتاب ميلوي Milloy «جريمة وطنية *National Crime*» ملاحم «فرار» تعصر القلب، قضى في نهايتها

هؤلاء الأشقياء غرقاً في البحيرات والأنهار، أو تجمداً في صقيع الشتاء، أو تمزقاً تحت عجلات القطارات، أو طعاماً للوحوش البرية وهم يحاولون عبثاً العودة إلى حضن أبويهم في قراهم التي قد تبعد مئات الأميال. من ذلك مثلاً أن

الطفل دنكن ستيكس Duncan Sticks ذا الثماني سنوات فر من مدرسة William Lake بعد أن ضاق ذرعاً بالعذاب فتجمد في الصقيع على مقربة من قريته. ومنها أن أربعة أطفال بين السابعة والتاسعة من العمر فروا من مدرسة Lejac، فعُثر عليهم متجمدين فوق جليد البحيرة على مسافة نصف ميل من قريتهم. في ذلك اليوم كانت درجة الحرارة ٣٠ [فهرنهايت] تحت الصفر [ما يعادل ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر]. وعندما وجد أحد الآباء ابنه فوق الجليد كان في ملابس صيفية، وكانت إحدى قدميه بدون حذاء(٤٦).

هذا الاقتلاع القيصري من أحضان الأمهات والعيش في وسط عدائي مذلٍّ متعجرف يتولى كِبْرَه زبانية ساديون يعرّون ضحاياهم من أسمائهم ولغاتهم وأديانهم هو ما جعل الفرار من فردوس المدنية أعذب أماني هؤلاء الأطفال. لم يكن صعباً على هذا الطفل ذي السنوات الأربع في أول ساعة يحشر فيها في هذه المدرسة أن يسمع صرخات الأطفال وهم يجلدون أو يراهم يدمون مذلين مهانين، ولم يكن عسيراً على من هم أكبر منه سنّاً أن يدركوا أن كل برنامج هذه المدرسة هو عدوان لئيم على هنديتهم. لهذا شهقت جدران هذه المدارس عالياً، واشتبكت قضبان الحديد على النوافذ والأبواب، وقفلت البوابات بأغلظ المغاليق، وارتفعت أبراج المراقبة وتدجج حراسها. لكن هذا كله لم يحل دون محاولات الفرار وتجشم أخطارها ومشقاتها. ولعل أفجع فصول ذلك هو فرار أطفال الحضانة كما ترويه المعلمة ميني جنكنز Minnie Braithwaite Jenkins:

ذات صباح، سمع الموظفون ساعة الإفطار جلبة كبيرة وخبطاً غريباً. وبعد البحث والتنقيب اكتشفوا أن أطفال الحضانة المسجونين قد هربوا من باب السجن بعد أن دكوه بحطبة كبيرة جداً يعجز عن حملها الرجال أولو العزم. بذلك تطايروا حتى وصلوا إلى النهر. ولم يصدق المسؤولون أعينهم ولا استطاعوا أن يعرفوا كيف تمكن أطفال دون السادسة فعل ذلك. لكن كل

الإثباتات كانت هناك: المِدَك، والباب المخلوع والأطفال وهم يحاولون عبور النهر(٤٧).

أما نصيب الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه العذاب فالانتحار. ويروي المؤرخ ترينرت Trennert أن ظاهرة الانتحار الفردي والجماعي كانت شائعة في معظم هذه المدارس برغم تكتم المسؤولين عنها وتجاهلها في سجلات المدارس، وأن سببها الأول هو التعذيب الجسدي والنفسي(٤٨).

ولعل أقدم تقرير عن هذه الظاهرة يعود إلى ١٨٩٤ حيث يروي قصة انتحار طفل من هنود Pima في مدرسة Phoenix(٤٩). كان الأطفال ينتحرون بأكل الأعشاب السامة كما انتحر تسعة صبيان معاً في مدرسة William Lake، أو بشنق أنفسهم بالشراشف والجوارب كما انتحرت ست بنات معاً، أصغرهن في الثامنة وأكبرهن في العاشرة(٥٠). ويروي ميلوي حادثة انتحار غريبة في مدرسة Regina الصناعية حيث ضاق وجه الأرض على طفلة في الحادية عشرة فأبدت للناظر رغبتها في الانتحار، فما كان منه إلا أن أعطاها مسدساً وشرح لها كيف تستعمله(٥١).

ليس غريباً إذن أن يموت ٥٠ بالمئة من هؤلاء التلاميذ قبل أن يتخرجوا(٥٢) من المدرسة وينعموا بخيرات «المدنية». لم يكف الاغتصاب، ولا الجوع، ولا الانتحار، ولا أعمال السخرة، ولا التعذيب الجسدي والنفسي. فلكي تكتمل فصول المدنية لا بد من إضافة ما يسميه التاريخ المنتصر بالعامل الطبيعي أو «عامل الأمراض» الذي حصد أرواح الآلاف من هؤلاء الأطفال «قضاء وقدراً» كما حصدت «الأوبئة البديعة»(٥٣) الملايين من أهاليهم «بفضل الله ونعمته»(٥٤). ولكي لا يعاند هؤلاء الأشقياء قضاء الله الإنكليزي وقدره فقد مُنع أهلهم من إنقاذهم من الأمراض والأوبئة التي تجتاح مدارسهم وتقطف أرواحهم. ويذكر تقرير مفوض الشؤون الهندية مثلاً كيف انتشرت الحصبة بين أطفال مدرسة Unitah وكيف حاول الآباء إنقاذ أطفالهم فرفضت الإدارة تسليمهم واستعانت على طرد الآباء بكتيبة الفرسان(٥٥). لهذا ربما كانت أعمال السخرة تتضمن حفر القبور في المقبرة الملحقة بكل مدرسة، وكان من مهام نجار المدرسة تنجير توابيت لهؤلاء الضحايا الذين مات معظمهم دون سن السابعة(٥٦).

وبالطبع فإن سجلات المدارس لم تتحدث عن نسبة ضحايا الأمراض حتى بداية القرن

العشرين، لكنها بدأت تحتال على ذلك بإرسال الأطفال إلى ذويهم قبيل موتهم حتى يتم تسجيل وفاتهم خارج المدارس. وبرغم ذلك فقد كانت نسبة الإصابات مرتفعة جداً. فمن بين ٧٣ طفلاً اختطفهم زبانية هذه المدارس من معزل Wind River، مثلاً، مات ٤٨ بعامل الأمراض والأوبئة[٥٧]، بينما تتفق حوليات الجمعية الأميركية للعلوم الاجتماعية والسياسية والعالِم الأنثروبولوجي ألِس هرديلكا Ales Hrdlicka على أن نسبة الإصابات تقدر بأربعة أخماس [أو ٨٠٪ من] التلاميذ[٥٨].

وقد اتخذ الاستهتار بأرواح هؤلاء الأطفال بعداً ساتريكونياً تصفه المعلمة إستيل بروان بكل دم إنكليزي بارد فتقول:

> في اليوم الذي بدأتُ فيه بتعليم صف الحضانة في مدرسة Crow Creek وجدتُ وجوه الأطفال المقروحة بسل الغدد scrofala مغطاةً بمرهم كثيف أخفى ملامحهم. لكن هذه القروح كانت مفيدة فقد ساعدتني على التمييز بين تلميذة وأخرى. فبفضل هذه القروح صرت أميّز طفلة بقرحها النازف على يمين رقبتها، وأميز طفلة أخرى بقرحها النازف على الشمال[٥٩].

غير أن استهتار طواويس الاستعمار الداخلي بأرواح أطفال شعبهم كان أشد مرارة وإيلاماً، فقد كان هؤلاء في «مكتب الشؤون الهندية» أو السلطة الوطنية الهندية «يخفون كل المعلومات عن هذه الأمراض والأوبئة المنتشرة في المدارس، ويتستّرون عليها أو ينكرونها»[٦٠] لصالح أسيادهم الزنابير. بل كانت الصحافة البيضاء أحياناً أكثر شفقة وإنسانية من هؤلاء الطواويس. فقد كتبت صحف مثل *Saturday Night* و*Montreal Star*:

> أن أطفال الهنود يموتون في هذه المدارس كالذباب، وأن الطاعون الذي أماتهم فعلاً هو الطاعون الأبيض... إن نسبة ضحايا الحروب أقل بكثير من نسبة ضحايا هذه المدارس[٦١].

إن مقبرة مدرسة هسكل الداخلية في لورنس بكانساس تضم ١٠٢ ضحية تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة. وعلى الرغم من التلاعب بسجل الوفيات فإن سجلات هذه المدرسة تتحدث عن أكثر من ٥٠٠ طفل دفنوا في مقابر مختلفة بعد

أن ضاقت أحشاء مقبرة المدرسة عن ضمّهم(٦٢). وقد كتب جيمس بروك James Brook في النيويورك تايمز عن تلاعب إدارة المدارس بالسجلات لإخفاء جرائمها:

> إن عدداً من سجلات هذه المدارس لا توثّق الجرائم الفظيعة التي حدثني عنها بعض الناجين. ومن تلك الفظائع: سوء الرعاية الصحية، والاعتداءات الجنسية، والتعذيب، ودفن الصغار وراء جدران المدرسة(٦٣).

ذات يوم، صحا ضمير أحد مفتشي مكتب الشؤون الهندية فكتب رسالة إلى وزير الداخلية قال فيها:

> إن الجريمة كلمة فظيعة، لكننا فعلاً مجرمون. إن مئات الفتيات والفتيان ماتوا أو أرسلوا إلى أهلهم ليموتوا(٦٤).
>
> هذه المدارس [كما وصفها أحد آباء هؤلاء الضحايا] ليست أفضل من الجحيم. إنها مثل شجرة تتساقط أوراقها إلى الأرض فتكنسها الريح إلى الأبد(٦٥).

وتساءل زعيم هنود سبوكين Spokane بعد أن فقد شعبُه في فصل واحد ١٦ طفلاً من أطفاله العشرين الذين سيقوا بالقوة إلى هذه المدارس:

> ماذا لو خطفتُ أطفال البيض من أحضان أمهاتهم ثم أعدتُ إليهم جثث صغارهم في التوابيت؟ إنني لا أعرف لماذا يفعلون ذلك بأطفالنا، لكنني أعرف أنهم عاملوهم أسوأ من معاملة الكلاب(٦٦).

الهوامش

(١) Roland D. Chrisjohn; Sherri L. Young; Michael Maraun, *The Circle Game: Shadows and Substance in the Indian Residential School Experience in Canada*, (Theytus Books Ltd., 1997), p.32.

(٢) Ethan Allen Hitchcock: Edited by W. A. Croffut, *Fifty Years in Camp and Field: Diary of Major-General Ethan Allen Hitchcock*, U. S. A (New York: G. P. Putnam's sons, 1909). pp. 152-153.

(٣) لأوتاكته Ota Kte الذي فرضوا عليه اسم لوثر ستاندينغ بير Luther Standing Bear عدد من الكتب عن طفولته وحياته الخاصة وشعبه. وهذا النص مقتبس من كتابه:

My People, The Sioux 1928; (reprinted, Lincoln: University of Nebraska Press, 1975), p. 140-141.

(٤) Ibid, 140.

(٥) Luther Standing Bear, *Land of the Spotted Eagle*, (Boston: Houghton Mifflin Company), 1933, p. 189.

(٦) *The Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1892, p. 615.

(٧) Adams, p. 102, and Julia B. McGillyguddy, *McGillycuddy, Agent: A Biography of Dr. Valentine T. McGillycuddy*, (Stanford: Stanford University Press, 1941), p. 205-206.

(٨) Adams, p. 109-110, and Harriet Patrick Gilspart, "Memories of a Pioneer Teacher," *Chronicles of Oklahoma*, 38 (spring 1960), p. 23.

والطريف أن المدارس الإسرائيلية تصر على تغيير أسماء اليهود غير الأوروبيين. أنظر: "Schools force Ethiopian students to change their names," *Y Net*, March.3, 2008.

(٩) Luther Standing Bear, *My People, The Sioux*, p. 137.

(١٠) Brenda Child, *Boarding School Seasons: American Indian Families, 1900-1940*, (University of Nebraska Press 2000) p. 36.

(١١) Carl Schurz, "Present aspects of the Indian Problems," *North American Review*, 133 (July 1881).

من حسابات «ثروة الأمم» أن افتتاح مدرسة كبيرة لأطفال الهنود سيوفر العمل لعدد من المختارين البيض. فالمدرسة ستشتري حاجاتها من الأسواق المحلية. ثم إنها على المدى البعيد ستصدِّر يداً عاملة رخيصة

للمصانع والمزارع ومربي الحيوانات. بل إن صحيفة Arizona Republican حسبت في عام ١٨٩٠ أن أرباح إنشاء مدرسة داخلية في فينيكس لهؤلاء الأشقياء ستضيف خمسين ألف دولار سنوياً إلى اقتصاد المدينة، وقالت: «بعد سنوات قليلة سيعمل معظم هؤلاء التلاميذ في مزارعنا بأجور زهيدة». انظر:

Robert A. Trennert, *The Phoenix Indian School: Forced Assimilation in Arizona 1891-1935*, (Norman: University of Oklahoma Press, 1988), 21.

(١٢) J. R. Miller, *Shingwauk's Vision*, p. 158.

(١٣) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1901, 2, 3, 5.

(١٤) Ibid, 1903, 4.

(١٥) Returned Student Survey, 1916-1917, p. p72 Bulliten no. 24, *Records of the Board of Indian Commissioner, National Archives*, Record Group 75.

(١٦) Francis E. Leupp, "The Failure of the Educated American Indian," *Appleton's Magazine*, (May 1906), p. 597.

(١٧) Adams, *Education for Extinction*, p. 151.

(١٨) Brenda J. Child, *Boarding School Seasons: American Indian Families, 1900-1940*, (University of Nebraska Press, 2000), p. 36.

(١٩) K. Tsianina Lomawaima, *They Called It Prairie Light: The Story of Chilocco Indian School*, (University of Nebraska Press; Reprint edition, August, 1995) p. 69.

(٢٠) Adams, *Education for Extinction*, p. 149.

(٢١) Helen Sekaquaptewa, *Me and Mine: The Life Story of Helen Sekaquaptewa*, (The University of Arizona Press,1969), 136-137.

وفي مسألة استخدام أطفال هذه المدارس كعبيد أنظر:

John Milloy, *A National Crime: The Canadian Government and the Residential School System, 1879 to 1986*, (Winnipeg: University of Manitoba Press, 1999), pp. 169, 171.

(٢٢) Celia Haig-Brown, *Resistance and Renewal*, (Vancouver, Canada Tillacum Library 1991) p. 69.

(٢٣) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1887, 348.

(٢٤) Jim Whitewolf, *The Life of a Kiowa Apache Indian*, (Dover Publications, 1969) p. 84.

(٢٥) Theodore Stern, *The Klamath Tribe a People and Their Reservation* (Seattle, University of Washington), 1966. p. 107.

(٢٦) John Milloy, *A National Crime*, p. 284.

(٢٧) Ibid, p. 109.

(٢٨) الأرقام مستمدة من كتاب آدامس: Adams, *Education for Extinction*.

(٢٩) U. S. Congress, Senate, Committee on Indian Affairs. *Survey of the Conditions of the Indians in the United States, Hearings*, before a Subcommittee of the Committee on Indian Affairs, Senate on S R 79, 70 Congress, 2nd session, 1929. pp. 1021-1023.

(٣٠) Miller, *Shingwauk's Vision*, p. 249.

(٣١) Marilyn Milward, "Clean Behind the Ears: Micmac Parents, Children and the Shubenacadie Residential School," *New Maritimes*, Mar. /Apr. 1992, p.11.

(٣٢) John Milloy, A National Crime, 143.

(٣٣) *The Miriam Report (*Meriam, et al), *Problem of Indian Administraton*, pp. 11-12, 332, 392-393, 577-579.

وهو تقرير أعده فريق من علماء الاجتماع بإشراف لويس مريَم. Lewis M. Meriam وتروي التقارير السنوية لمفوضي الشؤون الهندية أن كثيراً من المدارس فرضت النظام العسكري والملابس العسكرية وحولت المدارس إلى معسكرات حقيقية. أنظر مثلا تقارير:

Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs, 1882, pp. 223-224; 1887, p. 321; 1888, p. 325; 1889. p. 124.

(٣٤) Celia Haig-Brown, *Resistance and Renewal*, pp. 6-15.

(٣٥) Ward Churchill, *Kill the Indian..., p.* 54.

(٣٦) Indian Rights Association Papers, 1903, p. 52 and 1904, p. 69.

(٣٧) *Report of the Indian Rights Association 1912*, 57.

(٣٨) *Records of the Office of the Secretary of the Interior*, National Archives, Record Group 48. Inspection Report no. 9020 (Navajo), 23, December, 1892.

(٣٩) John Milloy, *A National Crime*, 284.

من ذلك أيضاً أن يحمل الأطفال إشارات كتبت عليها عبارات مهينة لهم أو لهنديتهم، أو أن ينظفوا المراحيض، أو يجبر الصبيان على التجوال بين التلاميذ طوال النهار بملابس البنات الداخلية. راجع Sally J. McBeth, *Ethnic Identity and the Boarding School Experience of West-Central Oklahoma American Indians*. (Washington D.C. University Press of America 1983). 105.

(٤٠) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, (Washington D.C.52nd Congress, first Session, 1892), p.617.

(٤١) Wilbur Zelinsky, *Nation Into State: The Shifting Symbolic Foundations of American Nationalism*, (University of North Carolina Press, 1988), pp. 69-75.

(٤٢) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1892, 62.

(٤٣) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1893, pp. 452-453.

(٤٤) *The Red Man*, November-December 1892, pp. 2-4.

(٤٥) Robert A. Trennert, *The Phoenix Indian School: Forced Assimilation in Arizona, 1891-1935*, (University of Oklahoma Press, 1988), pp.50, 153, 288.

(٤٦) John Milloy, *A National Crime*, pp. 139, 142, 148.

(٤٧) Minnie Braithwaite Jenkins, *Girl from Williamsburg* (Richmond, Dietz Press, 1951) p. 283.

(٤٨) Robert Trennert, *The Phoenix Indian School*, p. 50; John Milloy, *A National Crime*, 148.

(٤٩) Ibid 153-154.

(٥٠) Ibid. p. 288.

(٥١) Ibid. p. 157.

(٥٢) A. Short and A. G. Doughty (editors), *Canada and its Provinces: a histroy of the Canadian people and their institutions*, (Toronto, University of Edinburgh press), p. 615.

(٥٣) حين عرف الملك جيمس ما فعلته الأوبئة بالهنود وصفها بالبديعة وحمد الله عليها، لأنها كما يقول جلالته: «أزاحت المتوحشين من بين أقدامنا». انظر مصادر هذه وغيرها من العبارات: منير العكش: **حق التضحية بالآخر**، (رياض الريس، ٢٠٠٤) ص ٢٠ وما بعدها.

(٥٤) اعتبر وليم برادفورد حاكم مستعمرة بليموث أن «نشر الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة على قلب الله. وعلى المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمائه». المصدر السابق، ص ٢١. وانظر فصل «الوباء البديع»، ١٥ ـ ٢٣.

(٥٥) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs* 1901, p. 259.

(٥٦) *Brenda J. Child*, Boarding School Seasons, p. 66; *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1916, p. 5.

(٥٧) Diane T. Putney, "Fighting the Scourge: American indian Morbidity and Federal Policy, 1897-1928", PhD dissertation, Marquette University, 1980, p. 10.

(٥٨) Joseph A. Murphy, "Health Problems of the Indians", *The ANNALS of the American Academy of Political and Social Science*. 1911; 37: 103-109; Ales Hrdlicka, *Tuberculosis among certain Indian tribes of the United States*. (Washington: Govt. Print, 1909). p. 25, 32.

(٥٩) Estelle Aubrey Brown, *Stubborn Fool: A Narrative* (Caldwell, Idaho: Caxton Printers, Ltd., 1952), 50.

(٦٠) Brenda J. Child, *Boarding School Seasons*, p. 63.

(٦١) Quoted by Ward Churchill, *Kill the Indian*, pp. 39, 98-99.

(٦٢) Andrea Smith, *Conquest: Sexual Violence and American Indian Genocide*, p. 32.

(٦٣) James Brook, "Indian Lawsuits on School Abuse". *The NewYork Times*, November 2, 2000.

(٦٤) Diane T. Putney, "Fighting the Scourge", pp. 10-11.

من رسالة William McConell إلى وزير الداخلية Ethan Hitchcock.

(٦٥) *Records of the Office of Indian Affairs, National Archives*, Record Group 75, Letter 15559, received in April 20, 1891.

(٦٦) Robert H. Ruby and John Arthur Brown, *The Spokane Indians: Children of the Sun* (University of Oklahoma Press, 1970), pp. 216-218.

الفصل التاسع

حصاد الأرواح

«كنا نقص عليهم قصص داود وغوليات، ونروي لهم
كيف فلق الله البحر للإسرائيليين، ولماذا
أمر بذبح الفلسطينيين. ونأمرهم باحترام السبت».

التقرير السنوي لمفوضي الشؤون الهندية ١٨٨٧

«لا أظن أبداً أننا سنقهر هذا البلد ما لم نكسر
عظام عموده الفقري التي هي لغته وتراثه الروحي».

توماس مكولاي ١٨٤٠ ـ ١٩٢٤

استباحة الجسد الهندي بكل فنونها لم تكن إلا البداية.

استباحة الجسد وتدمير المظهر الخارجي والهوية الثقافية للطفل الهندي في معسكرات تعذيب سمّيت زوراً بالمدارس هي مقدمة لازمة لاقتلاع دماغ هذا الطفل واستبداله بدماغ أبيض عامر بذاكرة الغزاة ولغتهم ومَلَكة حكمهم ومزاجهم وأخلاقهم ودينهم.

يجلس هؤلاء التلاميذ أمامك خرساناً، لا يفقهون كلمة مما تقول، ولا يقولون كلمة مما تفهم. وجوههم الحزينة المسكونة بمشاعر الشوق إلى الأهل والبيت ليست مشجعة. كل شيء يبدو غريباً في أعينهم. كلما تلمسوا رؤوسهم وجدوها عارية مكشوفة بلا جدائل ولا شعر طويل. ملابسهم غير مريحة ولا تشبه ملابسهم. إنهم لا يفهمون لغتك كما أنك لا تفهم لغتهم. يراقبون كل نظرة من نظراتك وحركة من حركاتك. أنت تبتسم وتقول «صباح الخير»، وهم يبتسمون بيأس حزين ولا يردّون تحية الصباح. ثم تلجأ إلى سلسلة طويلة من الحركات والإشارات التي قد يفهمون معها أخيراً أن عليهم أن يردوا التحية. وما أن يلفظوا «صباح الخير» بكثير من الصعوبة والتصحيف والتحوير حتى تنفتح لهم بوابة على طريق الإنسان الأبيض[١].

هنا، على طريق الإنسان الأبيض، يبدأ المعلم الأبيض ـ كما يقول مفوض الشؤون الهندية وليم جونس William Johns ـ «بإبادة الهندي وخلقه إنساناً [آخر]»[٢] متمدناً يعمُر قلبَه حبُّ أميركا وفكرتها وأبطالها وعَلَمِها ورموزها وأساطيرها، ومتديناً تقيّاً يعبد الرجل الأبيض، ويتنازل عن كل ما تبقى لديه طوعاً للرجل الأبيض.

منذ المدرسة الأولى قال الكابتن برات مؤسس هذه المدارس «إن اللغة والدين خط الدفاع الأخير للهنود ولا بد من القضاء عليهما». وقد جند لهذه الغاية في مدرسته الأخت سارة ماذر Sarah Mather والأسقف هنري بنجامين ويبل Henry Benjamin Whipple اللذين عَلَّما الأسرى الهنود [وكانوا أول ضحايا هذه المدارس] قصص التوراة، وجعلا «جدران المدرسة/السجن ترجّع معهم ترنيم الصلوات»[٣].

حاولت هذه المدارس جهدها أن توهم هؤلاء الأشقياء بأن «لا حضارة بدون مسيحية»[٤]، أو بتعبير أدق: بدون «بروتستانتية يهودية»، إذ إن الكنائس البروتستانتية في العالم الأنكلوسكسوني فرق يهودية من حيث العقيدة، (المسيح فيها مجرد ديكور، والإنجيل ـ باستثناء قيامة يوحنا البطمي ـ مرجع هامشي)، ومن حيث السياسة، فرق مكابية أكثر صهيونية من أشد اليهود تطرفاً[٥]. لهذا فإن تمدين الأطفال الهنود يقتضي جعل هذه البروتستانتية اليهودية جزءاً أساسياً من تعليمهم. وفي هذا السياق شن مديرو هذه المدارس حملة تبشير شرسة ذات هدفين رئيسين، أولهما: الموالاة للعَلَم والدولة

الأميركية، وثانيهما خلق روح الفردية لتدمير النظام الاجتماعي الهندي الذي لا يؤمن بالملكية الفردية ويَحول بالتالي دون سيطرة الزنابير على ما تبقى من أملاك الهنود. وقد رافق ذلك تسميم هؤلاء الأطفال بكل أساطير العبرانيين.

كان المعلم [كما يقول تقرير مدرسة هامبتون] يضع في هذه العقول الخاوية(!) أبسط الحقائق. [ثم يفسر ذلك بالقول:] «نقصُّ عليهم قصص داود وغوليات، ونروي لهم كيف فلق الله البحر للإسرائيليين، ولماذا أمر بذبح الفلسطينيين، ونأمرهم باحترام السبت». ويضيف معلم آخر: «عندما أقرأ لهم عن المدينة المقدسة التي سيدخلونها [أورشليم النازلة من السماء] إذا آمنوا تتفتح عيونهم السعيدة وتطفح وجوههم بالأمل، ثم يتساءلون ما إذا كان [زميلهم] الطفل الذي مات في الخريف قد ذهب إلى هناك وما إذا كانت الملائكة هي التي أخذته»[٦].

فرض مبشرو الزنابير على الهنود احترام السبت اليهودي، لا سيما في ما يسمى بمدن الصلاة، وكانوا ينزلون بالمخالفين عقوبات قاسية. وكانت الحكومة الاستعمارية تتولى تنفيذ هذه العقوبات. ففي رسالة كتبها أبو المبشرين جون إليوت John Eliot إلى روبرت بويل Robert Boyle المعروف بأبي الكيمياء الحديثة تفاخر بأنه كان يعاقب الهنود إذا لم يُسبتوا كما يفعل البيورتانس ورعايا الكنائس الإنكليزية والتزاماً بقرارات السلطة التشريعية الإنكليزية. وقد تولى المايجور غوكن Gookin تنفيذ ذلك وأنزل بالمخالفين أشد العقاب[٦أ]. ويروي توماس شِبرد Thomas Shepard «أن السلطات الاستعمارية فرضت غرامة قدرها ٢٠ شلنغ على من لا يُسبت، و٥ شلنات على من لا يقص شعره»[٦ب]. وكانت مناهج المدرسة الداخلية التي أسسها هؤلاء المبشرون [قبل مدرسة برات] في ١٧٦٤ تتضمن تعليم اللغة العبرية للأطفال الهنود[٧]. ثم إن كثيراً من هذه المدارس فرضت على الأطفال حفظ مقاطع طويلة من التوراة، وغالباً ما تم ذلك بدون تفسير لمعناها. يقول تلميذ سابق في مدرسة مدينة Tuba: «كانت وعظة الأحد تستغرق ساعتين أحياناً، وكنا لا نفهم ونضجر وننام... معظم الأحيان كانوا يتحدثون لأنفسهم»[٨].

لهذا بدت مشاهد هذه الروحانيات السادية في كثير من الأحيان ضحكاً كالبُكا.

فلتشجيع الأطفال على «الإيمان» وحضور القداس وترتيل الترانيم التي لا يفهمون منها شيئاً، لجأت المدارس ـ استثناء ـ إلى زيادة كمية الطعام وتحسين نوعيته في عيد الميلاد. أما سانتا كلاوس (بابا نويل) فكان يعمل ساعات إضافية يقدم فيها للأطفال رشاوى رخيصة علها تغري الطائر بالقفص. وتروي الطفلة هيلين سكاكابتوا Helen Sekaquaptewa أن أول عهد لها بعيد الميلاد كان في مدرسة Keams Canyon عندما دخل رجلان إلى مهجعها وأعطياها تفاحة وبرتقالة وقطعة حلوى، وقالا: «هذا من أجل عيد الميلاد»[٩]. وكذلك تعرّف الطفل جيم وايت وولف Jim Whitewolf على عيد الميلاد في مدرسة أوكلاهوما الداخلية عندما دخل ورفاقه إلى قاعة الطعام فوجدوا فيها على غير العادة طعاماً كثيراً. قال: «قبل أن نأكل، وقف رجل عجوز ذو بطن هائلة يصلي بصوت مرتفع. لم أفهم شيئاً مما يقول. كان يصدر أصواتاً فقط»[١٠].

وتصف المربية فلورا غْرِغ Flora Gregg بأسلوب ساخر ساحر ما جرى ذات عيد ميلاد في مدرسة Truxton Canyon حين أعدت الإدارة برنامجاً حافلاً غنياً بالمفاجآت والمغريات التي ستأخذ بعقول الأطفال وألبابهم وتشرح صدورهم للإيمان. لقد جمعت الأطفال في قاعة كبيرة وراحت تشوّقهم وتمنيهم بمفاجأة سعيدة ستنزل من السماء لم يروا مثلها من قبل. هنا احتبست أنفاس الأطفال وبدأت عيونهم تسرح بين الأبواب والشبابيك إلى أن قُرعت الأجراس واختلط رنينها القويّ بخبط شديد على الباب الكبير. عندها، تسمّرت العيون على الباب الذي فُتح على مصراعيه، ودلف منه عملاق هائل الحجم كاد يسد الباب.

وبهت الأطفال الذين بدأت عيونهم تحملق بتوجس في ملابس هذا العملاق الغريبة وشعره الأبيض وقبعته العجيبة وبسطاره الطويل. ومما زاده غرابة كرشه الكروي الفظيع الذي يتقدمه وحزمة الهدايا الهائلة وراء ظهره. وبالطبع لم يكن أحد منهم قد شاهد أو سمع عن سانت كلاوس [بابا نويل] من قبل. أما الحفنة من الآباء الذين دعتهم الإدارة لحضور هذا الكرنفال فكانوا أكثر دهشة وتوجّساً من أطفالهم.

فجأة صرخ أحد الأطفال بذعر شديد: «كويكيته Quiqete ـ كويكيته ـ كويكيته» [إسم الروح الشريرة]، فدب الفزع والهلع والفوضى. وتراكض الأطفال المذعورون نحو أقرب الأبواب. كذلك فرّ الآباء وهم يحتضنون أبناءهم. أما براعم الحضانة

الصغار فبدأوا بالبكاء وركضوا يختبئون وراء الستائر أو يتلببون بملابس معلماتهم.

لم يفهم أحد من المشرفين على هذا العيد ماذا دهى الأطفال وآباءهم، فاستعانوا برجال أمن السلطة الوطنية الهندية الذين طمأنوا الجميع إلى سلامتهم وأقنعوهم بالعودة إلى داخل القاعة. عندها بدأ سانتا كلاوس يقص عليهم كيف طارت عربته الحمراء وغزلانها الستة على أطراف القمر وكيف أقلته وهداياه من بيته البعيد في أقصى الشمال فوق الثلج والصقيع، وخرافات أخرى كهربت الأعصاب من جديد.

وفيما كان سانتا كلاوس منشرحاً في وصف معجزاته تقدمت منه بعض الصغيرات ورحن، بدافع الفضول، يمعنّ النظر بكرشه من تحت المعطف الأحمر الفضفاض الطويل. وعدن يهمسن: «هناك ثلاث وسائد مربوطة بحمالات سرواله». ثم انتشر الهمس بين الصغار والكبار الذي بدأوا يتعرفون على صوته. لقد افتضح سانتا كلاوس الذي ادعى أنه طار من أقصى الشمال وتساقطت من تحت معطفه كل معجزاته السماوية. إنه مستر إليف Illiiff معلمهم الذي طلب منهم توزيع الهدايا(١١).

كانت الحيل والرشاوى كثيرة، وكان الإلحاح على الهداية لا يطاق. فالطفل الآباشي جيسون بتزينر Jason Betziner يصف ما تعرض له من تهديد وضغط لكي يؤمن فيقول: «كان ذلك أقسى ما تعرضت له في حياتي. وكان الأمر يزداد سوءاً كلما ازدادت معرفتي بالإنكليزية». وتقول الطفلة هيلين سكاكابتوا Helen Sekaquaptewa «إن المبشرين كانوا شديدي الإلحاح، وكانوا يرشوننا بهدايا تافهة لكي نذهب إلى الكنيسة»(١٢).

على مدى خمسمائة سنة، تعرض هنود أميركا لحملات تبشير إسبانية وبرتغالية وفرنسية وهولندية وإنكليزية نظرت كلها إلى حياتهم ولغاتهم وأديانهم باحتقار، ووحدت بين المسيحية وثقافة الإنسان الأبيض، لكن مبشري الكنائس الإنكليزية كانوا الأكثر عنجهية وعدوانية وإصراراً على تدمير الحياة الهندية. لقد تفردوا بأن كنعنوا هؤلاء الهنود ثم سقوهم كأس الهدى مترعاً بالأساطير العبرانية.

وبينما كان المبشرون الفرنسيسكان واليسوعيون يعيشون مع من يريدون هديهم أو بالقرب منهم فإن مبشري الكنائس الإنكليزية لم يعيشوا مع الهنود ولم يسكنوا بالقرب

منهم. وعلى نقيض كل الكنائس والأمم الأخرى فإن مبشريهم يلحقون بالغزو ولا يسبقونه، بل «إنهم ينتظرون حتى يصبح نير الغزو والقتل والدمار ثقيلاً لا يطاق»[١٣] ويحين معه حصاد الأرواح (كما فعل هذا العَلَق البشري بعد كسح العراق مباشرة). لهذا كان الهنود كلما حدّثهم المبشرون عن الخلاص

تساءلوا: «ما هذا الرب الذي سيخلص قتلتهم وينساهم هم الضحايا ويحل عليهم لعنته؟». كانوا يرون أن رب المبشرين، بالضرورة، صورة من هؤلاء القتلة. لهذا كان عدد المهتدين قليلاً جداً[١٤].

بل إن جورج إدوارد إلليس George Edward Ellis، وهو أحد أنبياء الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد يقول:

إن أول ما شهده المتوحشون [من البشارة] أنهم أصبحوا جميعاً تحت لعنة إله الإنكليز وأنهم ملاقون الجحيم الأبدي[١٤أ].

في عام ١٧٠١ تأسست في لندن «جمعية نشر تعاليم الإنجيل في البقاع الأجنبية» باقتراح من توماس براي Thomas Bray الذي انتدبه أسقف لندن مفوضا استعمارياً في العالم الجديد، اعتقاداً منه بأن الجمعية ستحصد من تبشيره أرواحاً كثيرة. عمل براي على تأسيس مواقع إرسالية متقدمة لتبشير الهنود وتمدينهم.

أقنع [براي] حكامَ المستعمرات بأن الهنود المهتدين في هذه المواقع المتقدمة سيشكلون درعاً بشرياً يقي المستعمرات من هجمات الهنود البرابرة. خلال هذا القرن وظفت الجمعية ٣٠٩ مبشرين عملوا جميعاً على ضمان ولاء المهتدين للتاج البريطاني وللأسقفية الإنكليزية توأمي الحضارة، لكن لم يعش أحد منهم بين الهنود. بعضهم لجأ إلى أساليب ملتوية ورشاوى رخيصة [كما يفعلون الآن في العراق والمخيمات الفلسطينية] لاستدراج الأطفال بعيداً عن أهلهم ونقلهم إلى مدارس إرسالية يتعلمون فيها كيف يتمدنون»[١٥].

وكانوا يعنون بذلك أن

على هؤلاء الأطفال قبل أن يؤمنوا بالمسيح أن يتصرفوا إنكليزياً، ويُقرُّوا

بفردانية الإنكليز وتفضيل الله لهم. كان همّهم الأول تدميرَ ثقافة الهنود وتفتيت خصائص مقاومتهم وتحديهم[١٦] فالإبادة الثقافية عنصر جوهري في فكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

ولا يخفي دانيال غوكين Daniel Gookin المبشر العسكري المؤرخ أن

أول الفروض التي كان عليهم أن يتعلموها هو أن يضعوا أنفسهم في تصرف حكومة [مستعمرة] مساتشوستس. كانوا يوضعون تحت تصرف ضابط إنكليزي عسكري يطبق القوانين الإنكليزية، ويطلب منهم الثورة على زعمائهم الهنود الذين يصفهم بالطغاة»[١٦أ]،

وقد عبر عن ذلك الزعيم الهندي الملقب بالملك فيليب فقال:

إن المبشرين يجبرون الهنود على الولاء والطاعة لملك الإنكليز، ويلقنونهم كثيراً من الأكاذيب عن زعمائهم ليثوروا عليهم[١٦ب].

وفعلاً، كان المبشرون والأساتذة داخل هذه المدارس يتفانون في تدمير البنى الثقافية والأسس الروحية للوجود الهندي، تلك البنى التي تعطي المجتمع معناه وفخاره وقدرته على التماسك والمواجهة. لقد فرضوا تغييراً جوهرياً في البنى الثقافية والاجتماعية يمتد من السلوك الفردي إلى البنية الأوسع للتكافل الاجتماعي. وكان العنصر الأساس في ذلك هو تدمير نظام العائلة ومفهوم الملكية مما يَسَّر على المستوطنين زحفهم في أراضي الهنود. وبالطبع فقد كانت الميليشيات الاستيطانية والسلطة السياسية تساعدهم في خلق أوضاع معيشية ترهن حياة الهنود لإرادة الزنابير. صحيح أن التبشير لم يفلح كثيراً في عملية «التمدين»، لكنه حقق نجاحاً باهراً في جعل اقتصاد المتنصرين الجدد عالة على اقتصاد الغزاة، كما نجح في زرع نفوس هؤلاء الأشقياء بالشعور بالنقص والدونية.

كانوا يحقنون هؤلاء التلاميذ بكراهية ثقافتهم ويوهمونهم بانحطاطها وتفاهتها مقارنه بثقافة الإنسان الأبيض. وكانت هذه المعاول التبشيرية لا تني عن تدمير ثقافة الهنود سواء بتشويه تصورهم لأنفسهم عبر التشنيع على هذه العادة أو تلك القيمة، أو التقزز من هذا السلوك أو ذاك الطقس، أو الاشمئزاز

> من اللغة أو الدين أو طريقة الحياة؛ كل ذلك كان يشحن الطفل بالعنصرية ضد نفسه وأهله وثقافته internalized racism وبكراهية نفسه وأهله وثقافته self-hatred[١٧]

ويدعه في النهاية كالـمُنبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى: كل ما وجده من الخلاص الموعود والبياض المنشود أنه فقد سلامَه مع ثقافته ومجتمعه وصار مستلباً في ثقافةٍ تعتبره غير جدير بها وفي مجتمع عنصري يزدريه ويحتقره ولا يريد أن يتلوث به. إن رِشّ ماذر Rich Mather أحد آباء حركة تبشير الهنود كان يصف الهنود الذين نصّرهم بأنهم «زبالة rubbish» وأنهم «أفضل قليلاً من الوحوش التي انقرضت»[١٨]. لهذا يرى هنودُ اليوم

> أن المبشرين شركاء في حرب الإبادة الثقافية، ويأخذون عليهم ضلوعهم في تدمير نظامهم الاجتماعي وفي إفقار وموت الناس الذين أرادوا تبشيرهم. لقد وحّدوا بين الكتاب المقدس وبين ثقافة الغزاة البيض مما أدى إلى فرض ثقافة البيض وقيمهم وبناهم الاجتماعية والسياسية على المجتمع الهندي باسم الخلاص والكتاب المقدس. ولا تزال جهودهم التبشيرية تشارك في هذه الإبادة التي لم تُختتم بعد unfinished business»[١٩].

ترددتُ كثيراً في استخدام اصطلاح «الإبادة الثقافية»، لا لأن مفهوم «الإبادة الثقافية» أكثر التباساً ولؤماً من الإبادة الجسدية على الرغم من أنه متمم لها ولا يقل عنها خطراً وتدميراً، بل نحن أمام فكرة أميركا، فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، وأمام أكبر وأطول حرب إبادة في التاريخ الإنساني المعروف، وأمام دمار ثقافات ما لا يقل عن ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة، لا يسمح لنا التاريخ ولا المسؤولية الأخلاقية والإنسانية أن نتناسى أو نتغافل أو نتجاهل أو نتحايل على هذا الاصطلاح الذي يلوح خطره اليوم في مهد العرب وقدس أقداس ثقافتهم. هذا الاصطلاح يُطلقُ عادة لوصف التدمير المنهجي المقصود لثقافة أي شعب أو أمة، وذلك لتحقيق أهداف سياسية أو عسكرية أو دينية أو أيديولوجية أو عرقية أو عنصرية. وهي الأهداف التي تشكل الوقود الدائم لفكرة أميركا والتي لازمت الغزو البريطاني لأستراليا ونيوزيلاندة ومئات الجزر التي أبادوا

أهلها ودمروا ثقافتها. هذا ما يعبر عنه الشعار الذي أطلقه مؤسس المدارس الداخلية لأطفال الهنود ريتشارد برات: «اقتل الهندي وأبق الجسد kill the Indian, save the man». إن شعار برات هذا لا يدع مجالا للشك في أن الهدف النهائي لهذه المدارس هو الإبادة الثقافية[٢٠].

وإذن فقد جاء المبشرون ليقطفوا روح من نجا من مذابح الجسد.

جاءوا ـ على غرار المستوطنين ـ مشحونين بتصورات عبرانية متجذرة في الثقافة الأدبية الإنكليزية عن الكنعانيين الذين خلقهم الله ليتسلى شعبه المختار بقتلهم واستعبادهم؛ تصورات محورية في لاهوت الكنيسة الإنكليزية يرضعها كل أبناء الزنابير من المهد إلى اللحد؛ تصورات «كانت أشبه بعدسة مشوّهة قيّم بها الغزاة الأوائل الشعوبَ التي استعمروها ورسموا بها مصيرها»[٢١].

نعم، كان لدى الإسبان، والأوروبيين بشكل عام، شعور بالتفوق الطبيعي والثقافي على الهنود، إلا أن الإنكليز تميزوا بأن «أدلجوا» هذا التفوق وجعلوه جزءاً من إيمانهم الديني وفخارهم الوطني. أما المستوطنون فقد اتخذوا من تفوق أسلحتهم عذراً للغزو والاستعباد وترويض وحشية من يعترض سبيلهم. وأما المبشرون فقد واكبوا «أصدقاء الهنود» في نادي «التمدين» باعتباره شرطاً جوهرياً لا يصح العماد بدونه. بذلك صار التبشير جراحة روحية تستبدل فيها الروح الهمجية الكنعانية بروح بيضاء تؤهل هذا الكائن «النشاز» للإيمان البروتستانتي/ اليهودي. بهذه العجرفة الأخلاقية كان المبشران جون إليوت John Eliot (الأب المؤسس لحركة التبشير في أميركا) وهنري ويبل Henry Benjamin Whiple (أسقف مينيسوتا وزميل برات) يصرّان على تمدين الهنود المتوحشين wild Indian أوّلاً[٢٢].

أبداً لم يميز المبشرون بين الكتاب المقدس ومفهوم الزنابير عن «الحضارة»، أو بين المسيح والغرش البريطاني.

> إن لذلك الإيمان العميق بالقدر المتجلي Manifest Destiny الذي هيأته السماء [للزنابير]، والقناعة بأن أميركا هي إسرائيل الله الجديدة وأن المهاجرين الأوروبيين شعبها المختار، تأثيرا عميقاً على حركة التبشير بين الهنود. وهو تأثير

لا يزال قوياً حتى الآن[٢٣].

كل دعاواهم الدينية التبست بلغة الغزاة وثقافتهم وأخلاقهم وطريقة حياتهم، بدءاً من «آداب» الطعام وشكل اللباس وانتهاء بتبادل القبل «الندية» مع الكلاب[٢٤]. وقد كان لهذه التحولات القيصرية التي قد تبدو شكلية آثار مدمرة على ثقافة الهنود ونظامهم الاجتماعي، خاصة وأنها هيأت لتحولات أعمق ألقت بكل مرافق حياتهم في أشداق الغزاة[٢٥]. لقد زعم المبشرون أن

أخلاقهم مستمدة من قوانين الطبيعة. أما أخلاق الهنود المنحرفة عن الأخلاق المسيحية فتتعارض مع قوانين الطبيعة. فالهنود لا يبدون اهتماماً بتغطية عريهم، وهم سعداء بممارسة الجنس قبل الزواج ولا يخجلون من ممارسة اللواطة[٢٦].

كانت فكرة أميركا ولا تزال وقود العمل التبشيري بين الهنود، وكانت هي إنجيلهم المقدس. هذا ما سعت إليه شركة ڤرجينيا التي أطلقت الموجات الاستعمارية الأولى[٢٧]. وهذا ما شهدناه في سياسة الحكومة التي جندت الكنائس لتزييت فكرة أميركا:

لقد انقضى عهد الحرب مع الهنود. ما نحتاج له اليوم هو جيش مسيحي من المعلمين. هذا هو الجيش الذي سيربح الحرب[٢٨].

كما قال الرئيس الثامن عشر غرانت Ulysses S. Grant الذي أقطع المعازل الهندية للمبشرين وأوكل إلى كنائسهم اختيار موظفي الدوائر الهندية[٢٩]. بذلك دخل المبشرون في دين «ثروة الأمم» أفواجاً ونالوا سعادة الدنيا والآخرة.

وهذا ما تشهد عليه أيضاً أعمال أباطرة التبشير (جون إليوت John Eliot وجونيبرو سرّا Junipero Serra وبيار ـ جان دو سمِت Pierre-Jean De Smet وهنري بنجامين ويبل). فإليوت الذي يعتبر الأب المؤسس لحركة التبشير البروتستانتية/اليهودية في شمال أميركا كان موظفاً لدى حاكم مستعمرة مساتشوستس، وقد انتدبه الحاكم جون ونثروب John Winthrop للتبشير لقاء مكافأة سنوية قدرها ٢٠ باونداً. بينما أوكلت الحكومة الفيدرالية إلى المبشرَيْن «دو سمِت» و«سرّا» مثلاً خداع الهنود باسم

الإيمان للحصول على تنازلات تسمح للمستوطنات بالزحف في أراضي الهنود(٣٠) وتهيىء للغزاة أفضل الشروط لتحقيق فكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

في فصل بعنوان «رسل إلى الهنود Apostles to the Indian»، وصف فرانسيس جننغز Francis Jennings في كتابه المرجعي «**اجتياح أميركا** *The invasion of America*» أعمال المبشرين الزنابير بين الهنود بأنها «سياسية واقتصادية هدفها تركيع الهنود ولا علاقة لها البتة بالفضائل المسيحية». وتحدث عن تفاصيل كثيرة خلص منها إلى أن أهداف هؤلاء «الرسل» هي «تجريد المتنصرين الهنود من هنديتهم وتجنيدهم في الحرب على أهليهم والدفاع عن الاستيطان والمستوطنين»(٣١). أما إليوت الأب المؤسس لحركة تبشير الهنود في أميركا فقد كتب في رسالة إلى مفوضي اتحاد المستعمرات يبشرهم بأن هؤلاء المتنصرين أصبحوا أدوات للتوسع الإنكليزي:

> كل هؤلاء السادة المحترمين يعلمون أهمية هؤلاء المتنصرين كأدوات للتوسع. ولا بد من تزويدهم ببعض البارود والطلقات، وقد سلحتهم بذلك لإنزال خوف الرب في قلوب الهنود [هنود نيدموك](٣٢).
>
> لا غرابةَ [إذن في] أن معظم ضحايا حروب الإنكليز ضد الهنود أو ضد الفرنسيين كانوا من هؤلاء المهتدين(٣٣).

ما هو أتقى وأورع من ذلك أن هوسهم القدري بعقيدة الاختيار، وثقتهم المطلقة بأن الله خصهم بنعمة لم ينعم بها على أحد من خلقه، وحرصهم الفطري على نقاء عرقهم الطاهر دعاهم إلى حجز «المهتدين» الهنود في حظائر روحية سموها «مدن الصلاة» حجزوهم فيها عن العالم الخارجي فمنعوهم من الاقتراب من بيوت المستوطنين وكنائسهم، بل حرّموا عليهم الاتصال بأهلهم وذويهم، وجعلوهم عرضة للقتل السهل على أيدي المستوطنين، ثم أنزلوا بالمخالفين أشد العقاب.

> ما حدث لمتنصري The General Court الذين حاربوا مع الإنكليز ضد أهليهم كان عبرة لمن لم يهتد بعد، إذ إن كثيراً منهم جُنّدوا لقتال أهلهم من

جديد، ثم حشروا في معسكرات اعتقال لا يستطيعون الخروج منها. بعضهم انتحر أو هرب. أما الآخرون فنُقلوا شبه عرايا دون زاد أو كساء إلى جزيرة Deer Island الصغيرة المنعزلة على شاطىء بوسطن حيث أمضوا شتاءين قاسيين في عراء هذه الجزيرة يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ويدفن بعضهم بعضاً(٣٤).

وعندما رصدت حكومة الزنابير مكافآت مغرية لمن يأتي بفروة رأس أي هندي صار قطع رؤوس هذه الخراف وسلخها أسرع طريق لبناء الثروة(٣٥).

كل تفصيل من تفاصيل «مدن الصلاة» كان مصمماً بعناية لإبادة هندية الهنود وخدمة أهداف الغزاة، وأول ذلك أن هذه «المدن» كانت أشبه بقواعد عسكرية صممت لتكون درعاً بشرياً واقياً للمستوطنين وجبهة استيطان وقتال متقدمة. بهذه الاستراتيجية عُزل المتنصرون عن أهلهم وذويهم مثلما عزلوا عن إخوانهم في الإيمان الذين يعتبرون «أجسادهم وأرواحهم نجس، لا حرمة لها»(٣٦)، وصاروا «المجتمع الهندي» الوحيد الذي يعترف به الغزاة، كما صار لهم زعماء «مختارون ديموقراطياً». «لقد فرضوا عليهم شكلاً جديداً للحكم هو خليط من بنية إنكليزية ومن تلك التصورات الرومانسية للحكومة الإسرائيلية في زمن الخروج Exodus»(٣٧). هذا العزل، أو هذا الحَجْر الروحي والسياسي بتعبير أدق، أدى إلى تدمير البنى السياسية والاقتصادية للهنود المتنصرين وإبدالها بصيغ اقتصادية جديدة جعلتهم عالة دائمة على المستوطنين الغزاة الذين لا همّ لهم سوى نهب أراضي الهنود وأرزاقهم. لقد حُشروا في بقعة صغيرة من الأرض، وفرضت عليهم الخدمة ونظام السخرة لإثبات أهليتهم للحياة البيضاء. في ترجمته للمبشر إليوت، اعترف كوتون ماذر Cotton Mather أحد قديسي الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد بأن

هذه الصيغ الاقتصادية الجديدة ذات الشكل الإنكليزي في مدن الصلاة لم تكن سوى فخ... ذلك لأن كل ما أراده البيوريتان [الغزاة] هو تحويل هؤلاء المتنصرين إلى عملاء(٣٨).

أما المؤرخ جيمس أكستل James Axtel فذهب إلى أن

«ما سعى إليه المبشرون هو أن لا يكون هؤلاء المتنصرون شيئا أكرم من أقنان شاحبي الوجوه يستجدون لقمة عيشهم من التراب»[٣٩].

أما المستوطنون فكانوا لا يريدونهم أقناناً ولا عملاء. كان لهم هدف أنبل هو تحقيق فكرة أميركا المستعارة من فكرة إسرائيل التاريخية، فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. ففي شهادة مؤلمة يرويها جورج هنري لوسكيل George Henry Loskiel الأسقف الروسي الأصل نشهد كيف أن هذه الخراف الضالة التي طمعت في خلاص أرواحها في الآخرة وخلاص أجسادها في الدنيا صارت فريسة سهلة لقديسي فكرة أميركا:

رأى حاكم بيتسبرغ Pittsburg أن ليس من العدل الاحتفاظ بأسرى هنود بعد أن تنصّروا فأطلق سراحهم، هم والقس [نصف الهندي] شِبوش Scheboesch الذي أسر معهم في شونبرُن Shoenbrunn. هكذا وصل الهنود إلى ساندوسكي Sandusky، بينما ذهب القس شبوش إلى «بيت لحم» ليقدم للكنيسة الهندية تقريراً عما جرى. وقد أدت إنسانية الحاكم إلى زيادة كبيرة في عدد المتنصرين الهنود الذين يعتبرون [في نظر عامة المستوطنين الإنكليز] كنعانيين يجب قتلهم دون رحمة ومحوهم من على وجه الأرض بينما يعتبرون أميركا أرض الميعاد.

represented the Indians as Canaanites, who without mercy ought to be destroyed from the face of the earth, and considered America as the land of Promise...

وما أن علم مستوطنو مسكنغوم Muskingum بإطلاق سراح المتنصرين حتى شكلوا فرقة من ١٦٠ رجلاً، وتجمعوا بالقرب من ولنغ Whiling وبفلو Buffaoe، وقرروا أولاً أن يفاجئوهم ويُدَمروا مساكنهم، ثم يمضوا إلى ساندوسكي ويسحقوا كل الهنود المتنصرين ويدمروا كنيستهم.

ومضت الفرقة أولاً إلى غنادنهوتن Gnadenhuetten فوصلوها يوم ٦ آذار/ مارس. وقبل ميل واحد من المستوطنة التقوا بالقس شبوش فأطلقوا عليه النار

وجرحوه جراحاً لم ينج منها. ووفقاً لرواية القتلة أنفسهم فإن القس الشاب بدأ يستعطفهم ويقول إنه رجل مسيحي «أبيض»، لكنهم لم يشتروا كلامه إذ لم يكونوا يرون إلا نصفه الهندي. هكذا قتلوه ثم قطّعوا جسده بالبلطات والفؤوس. ثم وصلوا إلى الهنود الذين كان معظمهم في مزارعهم فأحكموا الحصار حولهم، لكنهم تظاهروا لهم بالصداقة، وطلبوا إليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم، ووعدوهم بأن لا يؤذوهم أبداً. بل إنهم أبدوا لهم تعاطفاً لقاء ما عانوه في أسْرهم، ووعدوهم بالحماية.

أما الأشقياء الهنود الذين لم يعرفوا شيئاً عن مصرع القس.. فقد صدّقوا كلام المستوطنين، وذهبوا إلى بيوتهم مع المستوطنين حيث رحبوا بهم وأكرموهم. كان هناك برميل خمر بين مؤنهم الكثيرة فقالوا للمستوطنين إنه من أجل «عشاء الرب»، وأنهم سيحملونه إلى ساندوسكي، لكن المستوطنين نصحوهم بأن من الأسلم لهم أن يذهبوا إلى بتسبرغ. وإيماناً منهم بالأخوة المسيحية فقد سلموا كل ما عندهم من بنادق وبلطات وغيرها للمستوطنين الذي وعدوهم بالعناية بها إلى حين عودتهم. ولم يكتفوا بذلك بل أعلموا هؤلاء الإخوة في الإيمان بمخابىء مؤونتهم وعنابرها، وأماكن معاسلهم.

في هذا الوقت، مضى المساعد جون مارتن John Martin [وجماعته] إلى سالم Salem فأعلم الهنود المتنصرين هناك بمقدم الأصدقاء البيض. وقال لهم إن عليهم أن لا يخافوا على حياتهم لأنه جاء مع جماعته لينقلوهم إلى مكان آمن، وليؤمّنوا لهم الحماية والدعم. واطمأن الهنود المتنصرون في سالم إلى هؤلاء الإخوة البيض ووثقوا بهم، خاصة وأنهم كانوا يتباحثون معهم في بعض المسائل الروحية...

في هذا الوقت هوجم الهنود المتنصرون في غنادنهوتن من قبل المستوطنين على حين غرة، فاعتقلوا، وسُلسِلوا. وكذلك واجه الهنود المتنصرون في سالم نفس المصير.

وكان المستوطنون قد اختلفوا فيما بينهم حول طريقة قتل الهنود المتنصرين. بعضهم أراد حرقهم أحياء، وآخرون أرادوا سلخ فروات رؤوسهم... وهو ما

قر عليه قرارهم. لهذا أرسلوا واحداً منهم إلى الهنود المتنصرين ليخبروهم بأنهم سيموتون غداً وأن عليهم أن يستعدّوا للموت مؤمنين.

ثم إن المستوطنين ساقوهم داخل البيوت وحشروا كل الإخوة والأخوات كالنعاج للذبح. وقال الهنود المتنصرون لجلاديهم إنهم يدعون ربّهم ليشهد على أنهم أبرياء وأنهم مستعدون للموت طيبي الأنفس. وبما أنهم عند اعتناقهم المسيحية وتعمدهم وعدوا المسيح الرب بأنهم سيحيون فيه ويعملون ما يرضيه وحده فإنهم طلبوا من جلاديهم بعض الوقت للصلاة له وطلب رحمته. وأمضى الهنود ليلتهم في الصلوات والتضرعات مصرّين على البقاء مؤمنين به حتى النفس الأخير.

صباح المذبحة (٨ آذار/مارس)، أعد المستوطنون بيتين، واحدا للإخوة، والثاني للأخوات والأطفال وسمياهما عن عمد بالمسالخ slaughter houses. أما الهنود فإن بعضهم أبدى قلقه من تأخر الموت، وأما بعضهم الآخر فقالوا إنهم مستعدون للموت فقد وهبوا أرواحهم الخالدة للرب الذي أنزل الطمأنينة في قلوبهم ووعدهم بأنهم سيذهبون إليه وسيكونون معه إلى الأبد.

بعد هذا بدأت المذبحة، فقد سيق الإخوة إلى السلخ اثنين اثنين مقيدين بالحبال. وهناك سلخت فروات رؤوسهم أولاً [أي أحياء]، ثم ذُبحوا.

وتقول شهادات الجلادين أنفسهم إن الإخوة والأخوات استقبلوا الموت بابتهاج، باستثناءات قليلة. فالأخت كريستينا التي تتكلم الإنكليزية والألمانية ركعت على ركبتيها أمام كابتن الجلادين وتوسلت إليه من أجل حياتها، لكنه أخبرها بأنه لا يستطيع أن يفعل لها شيئاً.

في ذلك الصباح سلخ المستوطنون ٩٦ هندياً متنصراً [وهم أحياء] ثم ذبحوهم. وكان بينهم ٣٤ طفلاً. ولم ينج من المجموعة سوى مراهقَين، أحدهما في السادسة عشرة، والآخر في الخامسة عشرة. لقد نجيا بأعجوبة من أيدي الجلادين. أحدهما زحف وانسلّ من كوة صغيرة إلى قبو ذلك المسلخ الذي قتلت فيه الأخت كريستينا وظل مختبئاً حتى الليل. ولحسن حظه أن

أحداً لم ينزل إلى القبو بحثاً عنه. ووفقاً لروايته فإن دم الضحايا جرى مثل النهر إلى القبو عبر سقف القبو الخشبي بعد أن أشبع بالدم.

الطفل الثاني واسمه توماس، ضربه الجلاد خبطة واحدة على رأسه ثم سلخ فروة رأسه وتركه. لكنه بعد فترة استرد وعيه، ووجد نفسه غارقاً في بحر من الجثث والدم. فظل متمدداً هادئاً حتى الليل. ثم إنه غامر بالزحف نحو الباب. وعندما لم يجد أحداً في المكان، خرج وهرب إلى الغابة حيث اختبأ طوال الليل.

ثم إن الطفلين التقيا في الغابة، ولكنهما قبل عودتهما إلى ساندوسكي شاهدا الجلادين يحتفلون بانتصاراتهم ويوقدون النار في البيتين الممتلئين بالجثث[٤٠].

الهوامش

(١) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs* 1884. p. 241.

(٢) Michael. C. Coleman, *American Indian Children at School*, p. 46.

(٣) Richard Henry Pratt, *Battlefield & Classroom: Four Decades With the American Indian, 1867 -1904*, ed Robert M. Utley. (New Haven, Yale University Press, 1964), pp. 121. 175, 158. See also Henry B. Whipple, *Light and Shadows of a Long Episcopal* (New York: Macmillan, 1899) p. 34; and Christian Parenti, *Lockdown America: Police and Prisons in the Age of Crisis* (London: Verso, 1999) pp. 211-44.

ولمعرفة إسرائيلية هذه الصلوات البروتستانتية في أميركا والعالم الزنبوري يمكن مراجعة أي كتاب صلوات وخاصة منها ما يسمى بمجموع الصلوات العامة The Book of Common Prayer المعتمد من قبل كنيسة إنكلترا. فهي قصائد غزل وتضرع لصهيون وإسرائيل وإله إسرائيل والشعب المختار. ويمكن أيضاً قراءة ترجمة لبعض هذه الصلوات في «تلمود العم سام» للمؤلف (رياض الرّيس للكتب والنشر) ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٤) "The Meaning of the Dakota outbreak," *Scribner's Magazine. (9 April 1891), 452.* *and Proceedings and Addresses of the National Education Association*, 1903.

(٥) لا حاجة لتكرار ما كتبته من قبل، فكتاب «تلمود العم سام» ، للمؤلف، يتناول هذا البعد اليهودي للبروتستانتية الأنكلوسكسونية. وكذلك الحال في فصل «المعنى الإسرائيلي لأميركا» في كتاب «حق التضحية في الآخر» للمؤلف أيضاً. (كلاهما صادر عن شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت).

(٦) *Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs*, 1887, p. 350.

(٦أ) Eliot to Robert Boyle, 22 April 1684, *Collections of the Massachusetts Historical Society*, 1st series, Vol 3, pp. 183-186 Boston.

(٦ب) Thomas Shepard, *The clear sun-shine of the gospel breaking forth upon the Indians in New-England: Or, an historicall narration of Gods wonderfull workings upon sundry... and of Jesus Christ the Saviour of the world*, (London R. Cotesm 1684), Vol.4, p. 40.

(٧) James D. McCallum, *Eleazar Wheelock: Founder of Dartmouth College* (Hanover, N.H., Dartmouth College1939), pp. 109-110.

(٨) Broderick H. Johnson (ed)., *Stories of Traditional Life and Culture*, (Navajo Community College Press, 1977), p. 93.

(٩) Helen Sekaquaptewa, *Me and Mine. The Life Story of Helen Sekaquaptewa as Told to Louise Udal* (University of Arizona Press 1969), p. 102.

(١٠) Jim Whitewolf, *The Life of a Kiowa Apache Indian*, (Dover Publications, 1969). p. 93.

(١١) Flora Gregg Illiff, *People of the Blue Water: A Record of the Life Among the Walapai and Havasupai Indians*, (University of Arizona Press 1985). From chapter 28.

(١٢) David Wallace Adams, *Education for Extinction*, pp. 170-171.

(١٣) George E. Tinker, *Missionary Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide* (Minneapolis: Fortress Press, 1993), p.9.

(١٤) William Kellway, *New England Company, 1649-1776, Missionary Society to the American Indians* (London: Longman, 1961), pp. 6-7.

(١٤أ) George Edward Ellis, "The Indians of eastern Massachusetts" in Justin Winsor, *The Memorial History of Boston, Including Suffolk County, Massachusetts* 1630 -1880 (Boston, James Osgood Company, 1885), Vol 1, pp. 214-274.

(١٥) John Calam, *Parsons and pedagogues*: the S.P.G. adventure in American education, (New York, Columbia University Press, 1971), pp. 47-49.

(١٦) Bowden, *American Indians and Christian Missions*, pp. 122-123.

برع الزنابير ومبشروهم الذين يذرفون دموع التماسيح على الحريات الدينية اليوم في تدمير التماسك الروحي للهنود. من ذلك تدمير كل ما يعين الهنود على التكاتف والتكافل الاجتماعي وتحريم كل أشكال العبادة الهندية وفرض عقوبات قاسية على من يمارسها، كما في تشريع ١٨٩٠ الذي حرّم شعيرة رقصة الشمس وصلوات الشتاء وغيرها.

(١٦أ) Daniel Gookin, Historical Collection of the Indians in New England, 7 December 1674, *Collection of the Massachsetts Historical Society*, 1st series, (Boston, 1792), Vol.1, pp. 141-227. & 208-209.

وكذلك يقول «مفوض ملكي بأن المبشرين كانوا يرشون المهتدين لكي يتمردوا على أوامر أمرائهم الوثنيين» .

Account of Massuchusetts, *Collection of the New York Historical Society*, 1st series, (New York, Publication Fund Series), Vol.2, pp. 82-87.

(١٦ب) John Easton, *A Narrative Of The Causes Which Led To Philip's Indian War, Of 1675 And 1676* (1858), (Reprint: Kessinger Publishing, LLC 2008), pp. 10-11.

(١٧) Rollo May, *Power and Innocence: A Search for the Sources of Violence*, (New York: Dell, 1972), p. 50. f.

بعد أن أمضى جون إليوت تسع سنوات من التبشير أعلن أن الهنود أصبحوا مؤهلين لأن يصبحوا أعضاء في كنيسة. وزعم أنهم، قبل خمس سنوات من ذلك، أبدوا رغبة في العماد لكنه بعد التفكر ملياً في رغبتهم قال:

بيّنت لهم أن عليهم أن يتمدنوا أولاً... واقترحت عليهم إنشاء مدينة يسكنون فيها ويعيشون معاً، وينعمون بحكومة، ويستعدون لأن يصبحوا بشراً يسرّ الرب أن يعيش بينهم ويحكم.

John Eliot, *A late and further manifestation of the progress of the gospel amongst the Indians in Nevv-England: declaring their constant love and zeal to the truth: with a readiness to give accompt of their faith and hope, as of their desires in church communion to be partakers of the ordinances of Christ: being a narrative of the examinations of the Indians, about their knowledge in religion, by the elders of the churches* (London: Printed by M. S., 1655), reprinted in 1834, Vol. 4 p. 269.

وكانت الخطوة التالية هي أن يُمتحن هؤلاء الهنود أمام محكمة تفتيش على الطريقة الإنكليزية. ومن تلك الاعترافات التي تعكس كل ما أشاعه الغزاة عن الهنود وترجمها إليوت على ذمته:

إنني أعترف أمام الرب بأنني لم أقل كلمة طيبة في حياتي، ولم أفكر بفكرة خيرة في حياتي، ولم أفعل فعلاً صالحاً في حياتي...

إنني أعترف بأنني كنت أعبد الشيطان

إنني أعترف بأنني كنت أعبد آلهة كثيرة.. وأعترف بأنني كنت أعتقد أنه ليس هناك إله.

John Eliot and Thomas Mayhew, *Tears of repentance: or, A further narrative of the progress of the Gospel amongst the Indians in Nevv-England: setting forth, not only their present state and condition, but sundry confessions of sin by diverse of the said Indians, wrought upon by the saving power of the Gospel; together with the manifestation of their faith and hope in Jesus Christ, and the work of grace upon their hearts.* (London 1653) reprinted in 1834, 3rd Series, p. 37-38.

وغني عن القول أن مفهوم الشيطان الذي وضعه إليوت على لسان الهندي، مثلاً، لم يكن معروفاً عند الهنود، وأن هذا الردح العنصري ضد الذات يضرب بعضه بعضاً أحياناً كقول الهندي بأنه «كان يعبد آلهة كثيرة» ثم قوله إنه «كان يعتقد أنه ليس هناك إله». وللأسف فإن كثيراً من الهنود يشعرون بمثل هذه الكراهية تجاه الذات كما فرضها المعلم والمبشر، وفرضتها السينما ووسائل الإعلام ومختلف الأنواع الأدبية، وفرضها أنبياء وجنرالات وطبول الغزو. فعلى غرار إليوت الذي علم الهنود بأنهم لم يقولوا كلمة طيبة في حياتهم، ولم يفكروا فكرة خيرة في حياتهم، ولم يفعلوا فعلاً صالحاً في حياتهم، كذلك فعلت السلطة والمدرسة والسينما ووسائل الإعلام. ومن الطبيعي أنك حين تلقن الطفل بمثل هذه السموم عن حياته وثقافته وأهله وتاريخه إنما تُعد المناخ المثالي لكراهية الذات. انظر في هذا:

James Axtel, *The invasion within: the contest of cultures in Colonial North America* (New York: Oxford University Press, 1986), p. 224.

(١٨) Tinker, *Missionary Conquest*, p.25.

و«الزبالة» وصف واحد في قائمة لا نهائية من أوصاف الاحتقار والقرف التي أطلقها المبشرون على من بشّروهم وأدخلوهم في بروتستانتيتهم اليهودية. انظر الفصل الثاني «جذور العنصرية الحديثة» من كتاب:

Cornel West, *Prophecy Deliverance: An Afro-American Revolutionary Christianity*, (Philadelphia: Westminster Press) pp. 47-68.

(١٩) Tinker, *Missionary Conquest*, p. 4-5.

(٢٠) تذكر المادة السابعة من ميثاق حقوق «السكان الأصليين» (الأمم المتحدة، ٢٦ أغسطس / آب ١٩٩٤) «الإبادة الثقافية cultural genocide» وتقرنها «بسياسات تدمير هوية شعب من الشعوب سواء صاحبَ ذلك إبادة جسدية أم لا ethnocide». لكن، لأمر ذي دلالة كبيرة مارست الولايات المتحدة ضغوطاً هائلة للحيلولة دون الإشارة إلى«الإبادة الثقافية» في ميثاق جنيف. ثم إنها حتى بعد كل التعديلات التي فرضتها على الميثاق لم تقره وتجعله قانوناً إلا بعد أربعين سنة (١٩٨٨)، وبعد إضافة تعديلات أفرغته من محتواه. انظر:

Lawrence J. LeBlanc, *The United States and the Genocide Convention*, (Duke University Press, 1991).

وقد نصت هذه المادة على «أن للسكان الأصليين الحق الجماعي والفردي في أن لا يتعرضوا للإبادة الثقافية cultural genocide ولا لسياسات أو إجراءات تدمر هويتهم ethnocide». وبموجبها تم تحريم:

أ ـ أي إجراء يهدف أو يؤدي إلى تجريدهم من مقومات خصوصيتهم وتماسكهم، أو من قيمهم الثقافية، أو هوياتهم العرقية.

....

د ـ أي شكل من أشكال التذويب (أو الاستيعاب assimoilation) أو الدمج في ثقافات أخرى أو طرق عيش تفرض عليهم...

هـ ـ أي شكل من أشكال التشنيع عليهم.

Draft United Nations declaration on the rights of indigenous peoples drafted by The Sub-Commission on Prevention of Discrimination and Protection of Minorities Recalling resolutions 22/1985 of 29 August 1985, 30/1991 of 29 August 1991, 33/1992 of 27 August 1992, 46/1993 of 26 August 1993, presented to the Commission on Human Rights and the Economic and Social Council at 36th meeting, 26 August 1994 and adopted without a vote.

والغريب أن أكثر الناس رفضاً لاصطلاح الإبادة الثقافية مثل دافيد دوك David Duke زعيم عصابة الكلو كلكس كلان العنصرية يستخدمونه للإشارة إلى الخطر الذي يهدد ثقافة الزنابير جراء هجرة غير البيض أو وجودهم أصلاً في أميركا. ومن هؤلاء المتهمين بتهديد ثقافة البيض السكان الأصليون (الهنود الحمر) أنفسهم!

(٢١) George M. Frederickson, *White Supremacy A Comparative Study in American and South African History* (Oxford University Press, 1981), pp. 7-8.

وتقول دراسة حديثة إن التراث القروسطي المسيحي المعادي للمسلمين هو الذي يرسم [للزنابير] أدق تفاصيل البروباغندا ضد المسلمين اليوم. أنظر:

John Bohnstedt, *The Infidel Scourge of God: the Turkish Menace as Seen By German Pamphleteers of the Reformation Era*, (The American Philosophical Society, 1968) pp. 18-19.

(٢٢) Francis Jennings, *The Invasion of America* (Norton Library, 1975). See pp. 3-14.

(٢٣) عالم الأديان الأميركي الشهير هنري باودن يعترف بهذا الزواج المقدس بين الكتاب المقدس وبين الحضارة في عمل المبشرين. ويرى أن التبشير بثقافة البيض كان يسبق التبشير بالكتاب المقدس. ففي عام ١٨٣٥ مثلاً لم يعد سراً على الهنود أن المبشرين يريدون استبدال ثقافتهم بثقافة البيض. انظر:

Henry Warner Bowden, *American Indians and Christian Missions: Studies in Cultural Conflict*, (University Of Chicago Press, 1981) p.185.

أما مارلا باورس Marla Powers فقد وصفت حركة التبشير بأنها «وكالة تمدين» Marla Powers, Oglala *Women: Myth, Ritual, and Reality*, (University Of Chicago Press 1988), p.108.

وعن الاعتقاد المذكور في الشاهد، أنظر:

George E. Tinker, *Missionary Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide* (Minneapolis: Fortress Press, 1993), p. 10.

(٢٤) من أجل الإعلان عن صابون دايال، تعرض الشركة شريطاً مصوراً لكلب يشرب من ماء المرحاض، ثم يسمع فجأة صوت الباب الخارجي تفتحه صاحبة البيت فيسرع إليها ويتبادلان القبل ثم يبدأ بلعق وجهها حتى يكاد يغشى عليها من النشوة والسعادة. للاستمتاع بهذه اللقطات انظر: http// www.metacafe.com/watch28759/dog_kissing/

(٢٥) Thomas Shepard, *The clear sun-shine of the gospel breaking forth upon the Indians in New-England:* Or, *an historicall narration of Gods wonderfull workings upon sundry... and of Jesus Christ the Saviour of the world*, (London R. Cotesm 1684), Vol.4, p. 40.

(٢٦) Jennings, *The Invasion of America*. p. 49.

هل أذيع سراً إذا قلت إن هذا التشنيع على الهنود ينطبق اليوم على المجتمع الأميركي؟ ألم تصبح هذه الآفات من رموز الحضارة الحديثة وطريقة الحياة الأميركية التي تسعى إمبراطورية سدوم إلى فرضها على مجتمعات العالم؟

(٢٧) Ibid. pp. 53-54.

وقد جمعت الشركة تبرعات كبيرة من كل كنائس إنكلترا، لكن «ثروة الأمم» التقمتها وحولتها لصالح الغزو والاستيطان.

(٢٨) Proceedings of the Lake Mohonk Conference of Friends of the Indians,. 1891. Quoted by Adams, p. 27.

(٢٩) Francis Paul Prucha, *The Great Father: The United States Government and the American Indians*, (University of Nebraska Press; Abridged edition 1986), 1: 512-527.

(٣٠) Tinker, *Missionary Conquest*. p.17.

(٣١) Jennings, *The Invasion of America*. pp. 228-253.

(٣٢) Eliot to commissioner of the United Colonies, 4 September 1671, *Proceedings of the Massachusetts Historical Society*, Vol. 17, pp247-249; Douglas E. Leach, *Flintlock and Tomahawk: New England in King Philip's War* (New York: Norton, 1958), 73-84.

(٣٣) Henry Warner Bowden, *American Indians and Christian Missions: Studies in Cultural Conflict*, (University Of Chicago Press, 1981), p.138.

(٣٤) Douglas E. Leach, *Flintlock and Tomahawk: New England in King Philip's War* (New York: Norton, 1958), pp. 150-154.

(٣٥) انظر «حق التضحية بالآخر»، للمؤلف، فصل من المتوحش، (شركة رياض الرّيس للكتب والنشر، ٢٠٠٢) ص ٥٧ ـ ١٠٤.

(٣٦) Andrea Smith, "Rape and the War Against Native Women," in Ines Hernandez-Avila, ed., *Reading Native American Women: Critical/Creative Representations* (AltaMira Press, 2005), p. 64; Stan Hoig, *The Battle of Washita*, (Norman, University of Oklahoma Press, 1976), pp. 137-139.

(٣٧) Tinker, *Missionary Conquest*. p.30.

(٣٨) Cotton Mather, *The life and death of the renown'd Mr. John Eliot, who was the first preacher of the Gospel to the Indians in America with an account of the wonderful success which the Gospel has had amongst the heathen in that part of the world, and of the many strange customes of the pagan Indians in New-England / written by Cotton Mather*. (London: Printed for John Dunton... 1691). p.40.

(٣٩) James Axtel, *The Invasion Within: The Contest of Cultures in Colonial North America* (New York: Oxford University Press, 1985), p. 159.

(٤٠) George Henry Loskiel, *History of the Mission of the U.B. among the Indians*, Christian Ignatius Latrobe, translator (London: The Brethren's Society for the furtherance of the gospel, 1794), pp. 175-182.

مشاهد من أحشاء الوحش

ـ وثائق ـ

«انتزعوا الجنين الذي كان ينبض في بطن أمه

وغطسوه في الماء المقدس لتعميده.

وبعدها خبطوا رأسه على الجدار وسحقوه.

وعندما عاد رجال كريكر بمائة وسبعين فروة من رؤوس الأباشي استُقبلوا بعراضة حماسية

اشترك فيها الحاكم والقسس وفرقة من الموسيقا».

الرحالة الإنكليزي جورج فردريك رَكستون

هذا جَنَتْهُ «فكرة أميركا»!
مقدمة للوثائق

لا حدود للغرابات والعجائب والأساطير الكابوسية التي نسجها البريطانيون حول الشعوب التي أبادوها. ولطالما كان هذا القذف والتشنيع والكنعنة التي شِيدت منها لاحقاً صروح الأنثروبولوجيا البريطانية من أفتك أسلحة هذه الإبادة. أما في «العالم الجديد» وأستراليا ونيوزيلنده ومئات الجزائر التي أفرغوها من أهلها فقد صاغ البريطانيون من هذا القذف والتشنيع والكنعنة أقوى مبررات الإبادة، وتوسلوهما في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة لتحقيق «فكرة أميركا» التي استعاروها من فكرة إسرائيل التاريخية؛ فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة، وتاريخ بتاريخ.

منذ الأيام الأولى لوصول شعب الله الإنكليزي إلى العالم الجديد شارك الأدب والتاريخ واللاهوت والمذكرات والحوليات في تسويغ طقس العنف المقدس الذي لا تتحقق بدونه فكرةُ أميركا. لقد أمدّت هذه الكتابات بارانويا «الاختيار» بروافد حماسية جديدة زادتها غروراً وتعصباً وعنفاً.

هذا التفريخ المشوه للحقائق والوقائع ميّع الحدود بين الواقعي والخيالي، فمعظم الأعمال التي اعتمدت في كتابتها على الخيال سُميت فيما بعد أعمالاً تاريخية واقعية أبيد في سياقها البشر الحقيقيون ثم أعيد خلقهم على شكل كائنات منذورة طبيعياً

للفناء. وبالطبع، فعندما تلتبس الحقيقة بالخيال في عمل يتعمّد ذلك فعلاً، تتحول الأساطير إلى سجلات تاريخية ومشاهد حيّة.

فكرة أميركا، في هذا السياق، لا تقتصر على احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. فلكي تُـنـزل على قلب جنودها وزبانيتها السكينة والطمأنينة وراحة الضمير مضطرة لتجريد ضحاياهم من إنسانيتهم وتشويه ماضيهم وحاضرهم وقيمهم وثقافاتهم وخَلقهم وخُلُقهم وتدمير ذلك كله. وليس في التاريخ البشري أبرع من الزنابير في هذا الفن. لقد بدأ هذا التشويه والتشنيع على سكان أميركا قبل أن يروهم، ولا يزال إلى اليوم حياً فاعلاً يلوك تصوراته المسبقة عن الوحشية والهمجية والأرض الخراب وغير ذلك مما رسمته تلك العدسة المشوهة التي نظر بها المستعمرون الأوائل إلى سكان أميركا وحددوا من خلالها مصيرهم. إن كثيراً من أطفال أميركا ـ وشكراً لهوليوود ـ يعتقدون بأن أطفال الهنود يولدون وفي رؤوسهم ريش. بل لقد التبس الأمر على الغرّ من الضحايا أنفسهم فقد أخبرني صديق هندي أن ابنته الصغيرة لا تصدق بأن أجدادها لم يكونوا يأكلون لحم البشر!

هذه الوثائق أو الاعترافات تحكي رواية مختلفة بل لعلها تقلب السحر على الساحر. إنها ترسم مشاهد حيّة من ذلك العالم الذي دمره التشنيع والكنعنة على مدى أكثر من أربعة قرون. لقد التقطتُها من مطاوي عدد كبير من الكتب والرسائل والسجلات الرسمية أثناء بحثي وقراءاتي على مدى سنوات طويلة. وهي لا تقتصر على الإبادة الثقافية إذ إنها تشكل تجسيداً حياً لذهنية الزنابير، بل يمكن القول إنها تجليات «فكرة أميركا» المستعارة من فكرة إسرائيل التاريخية، فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. بعضها مكتوب بخط اليد، وبعضٌ آخر بلغة إنكليزية قديمة احتاجت ترجمتها إلى كثير من التأني والمراجعة والاستشارة.

ثم إنني لم أشأ أن أبوب هذه الوثائق أو أصنفها إلى موضوعات أو أسُقها وفق تسلسلها الزمني، بل إن ترتيبها هنا لا يعكس إلا الترتيب الزمني لقراءة مصادرها. وللأمانة فقد ذيلت كل وثيقة بمصدرها، وكتبته وفقاً لكتابته الأصلية التي قد تختلف أحياناً عن كتابة اللغة الإنكليزية الحديثة.

بوسطن ١٠ أيار/مايو ٢٠٠٨

مذبحة ساند كريك
شهادات مُحلّفة أمام الكونغرس

من شهادة المترجم جون سميث John Smith

مارسوا كل أنواع السلب والنهب؛ سلخوهم، واقتلعوا أدمغتهم، واستخدم الجنود سكاكينهم لتمزيق أجساد النساء وشقهن، ولتعذيب الأطفال وتحطيم رؤوسهم بأعقاب البنادق واقتلاع أدمغتهم والتمثيل بأجسادهم.

أسوأ تمثيل رأيته في حياتي هو تقطيع النساء إلى قطع صغيرة، وتمزيق جثث الرّضع الصغار ذوي الشهرين أو ثلاثة أشهر.

عندما ذهبت إلى مكان المذبحة في اليوم التالي لم أر جسداً واحداً إلا وقد سلخ وقطعت أعضاؤه التناسلية(١).

من شهادة الليوتنت جيمس كانون James D. Cannon

في قرية الهنود ما بين مائة ومئة وثلاثين كوخاً. ويمكنني القول بأن فيها ما بين خمسمائة وستمئة نفس، معظمهم نساء وأطفال. ولما تمشيت في مكان المعركة [!] لم أجد جسداً واحداً لرجل أو امرأة أو طفل إلا مسلوخاً. وكانت هذه الأجساد في كثير من الأحيان قد تم التمثيل بها أفظع تمثيل وقطعت أعضاؤها التناسلية.. لقد

سمعت جندياً يقول إنه اقتطع فرج امرأة وعلّقه على عود لعرضه. وسمعت جندياً آخر يقول إنه قطع أصابع هندية ليأخذ خواتمها.

كل هذه الفظائع، فيما أعلم، ارتكبت بعلم من القائد جون شفنغتون. وإنني أعلم بأنه لم يتخذ أي إجراء لمنعها.

وسمعت جنوداً يقولون إنهم اقتطعوا فُروج الهنديات وشدوها على مقدمات سروج خيولهم أو عرضوها على قبعاتهم أثناء الاستعراض العسكري. وسمعت جندياً يقول إنه شق قلب امرأة هندية ونصبه على عود(٢).

شهادة الكابتن. ل. ويلسون L. Wilson

رأيت بعض الهنود وقد سُلخوا، وقُطعت الآذان من جسد [الزعيم] وايت آنتلوپ. أحد هؤلاء الهنود الذين سلخوا هُشّمت جمجمته تهشيماً تاماً.

وسمعت أن الأعضاء التناسلية [للزعيم] وايت أنتلوپ قد قطعَت ليصنع منها كيس تبغ. وسمعت أيضاً أن فرج امرأة هندية قطع ونصب على عود(٣).

شهادة السيرجنت لوسيان بالمر Lucien Palmer

الأجساد قُطّعت تقطيعاً رهيباً، والجماجم التي هشمت بفظاعة كانت كثيرة جداً. وأعتقد أنها هشمت بعد القتل. لم أر [ضحية واحدة] غير مسلوخة. رأيت أصابع مقطعة، ورأيت أجساداً كثيرة وقد قطعت أعضاؤها التناسلية، رجالاً ونساء.

ورأيت المايجور ساير Sayer من الفوج الثالث يسلخ هندياً بسلاّخة مزينة بالفضة. لقد انتصب فوق الجثة ليراقب جنوده وهم يقطعون الأصابع من الجسد. رأيت عدداً من الجنود يقطعون الأصابع ليأخذوا الخواتم منها(٤).

شهادة سكوت ج. أنطوني Scott J. Antony

كان هناك طفل صغير، ربما كان في الثالثة من عمره. وكان من الواضح أن عمره لا يسمح له بالمشي فوق الرمل بسهولة...

كان يمشي فوق الرمل عارياً تماماً. ثم رأيت رجلاً ينزل من على حصانه. كان يبعد [عن الطفل] نحو ٧٥ يارداً (حوالى ٦٨ متراً) حين أمسك بندقيته وأطلق عليه النار. لكنه لم يصبه. وجاء رجل آخر وقال: دعني أتولى أمر ابن القحبة. ثم نزل من على حصانه واتكأ على ركبتيه وأطلق النار على الطفل، لكنه أخطأه. وجاء رجل ثالث وتفوه بعبارات مماثلة، ثم أطلق النار فسقط الطفل صريعاً(٥).

الهوامش

(١) Joint Committee on the Conduct of the War, 38th Congress, 2nd Session (Washington, 1865): *The Chevingtom Massacre, Testimony*, p.42, *Massacre of Cheyenne Indians*, Testimony, p. 9. Quoted by Stan Hoig in *Sand Creek Massacre*, (University of Oklahoma Press, 1987), pp. 178-179.

(٢) *The Chevingtom Massacre*, Affidavit, January 16, 1865, p. 53. Quoted by Stan Hoig in *Sand Creek Massacre*, pp. 179-180.

(٣) *The Chevingtom Massacre*, Affidavit, p. 67 Quoted by Stan Hoig in Sand Creek Massacre, pp. 182-183.

(٤) *The Chevingtom Massacre*, Affidavit,p. 74; and Sand Creek Massacre, Testimony, p. 143. Quoted by Stan Hoig in *Sand Creek Massacre*, p. 185.

(٥) *Massacre of Cheyenne Indians*, Testimony, p. 27. Quoted by Stan Hoig in *Sand Creek Massacre*, p. 189.

سلخ هنديين وتدمير مدينة

تنفيذاً لأوامر المايجور بلات Platt أُرسِلتْ فرقة صغيرة للبحث عن بعض الهنود القتلى. لكنها عادت دون أن تجد لهم أثراً. وعندما وجدوهم ظهراً سلخوا جلدَ اثنين منهم من مفصل الورك حتى القدمين. زوجان للمايجور، وزوجان لي [Lieutenant William Barton]. على الطرف الآخر من الجبل، كانت هناك مدينة يقال إنها من أجمل المدن. لقد دُمّرت تماماً. دمّرها الجنرال بور Poor مساء تلك المعركة.

٣٠ آب/أغسطس ١٧٧٩

Journals of the Military Expedition of Major General John Sullivan Against the Six Nations of Indians in 1779... (Frederick Cook, Comp., Auburn, New York: Knapp, Peck and Thomson, 1887) p.8.

سلام إنكليزي

في يوم ٢٢ أيار/مايو، أُرسِلَ الكابتن تَكر Tucker مع ١٢ رجلاً للبحث عن بعض رجالنا الإنكليز الذين احتجزهم الهنود، ولعقد سلام مع الملك العظيم أبوشَنزيون Apochanzion. وقد استطاع المترجم والهندي الذي أرسل معه أن يحضراهم [الأسرى] ويحضرا الملك ليتكلم مع الكابتن.

بعد عدد من الخطابات البديعة بدأ الاحتفال بالسلام بشرب الأنخاب. وشرب الكابتن والمترجم من قربة بينما شرب الملك من قربة أخرى. بذلك سقط الملك أبوشَنزيون صريعاً وسقط معه ملك شسكاكه Cheskacke وأولادهما وكل من كان معهما من رجال. أما عددهم فلا نعرفه تماماً، لكن من المعتقد أنهم حوالي ٢٠٠ رجل ماتوا مسمّمين.

ثم إننا قتلنا خمسين آخرين، وأحضرنا معنا بعض رؤوسهم المقطوعة. ولا شك لدينا الآن في أن ما جرى سيثير رعباً شديداً في قلوب هؤلاء الكفار.

(رسالة من روبرت بينيت إلى إدوارد بينيت)

٩ حزيران/يونيو ١٦٢٣

[From] Robert Bennett to Edward Bennett, June p.9, 1623.

Susan M. Kingsbury, editor, *The Records of the Virginia Company of London*. 4 Vols. (Washington DC, The Government Printing Office, 1906-1935), Vol. IV, pp. 221-222.

كما فعل داود بالكنعانيين
حرق حصن ميستيك بمن فيه

نزلنا في خليج نرغانست Narraganset، ومشينا في البر قرابة يومين. وفي الليلة الأخيرة حللنا على مقربة ميلين منهم. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقدمنا نحوهم مطمئنين إلى أنهم لا يعرفون شيئاً عن هجومنا. ومع اقترابنا من الحصن سلّمنا أمرنا إلى الله وسألناه المدد والعون على هذه المهمة الشاقة. ثم أحطنا بالحصن: الكابتن جورج مايسون George Mason أحاط بالحصن من الغرب حيث يوجد مدخل إليه، بينما أحطت به أنا ورجالي من الجنوب.

كان معنا ٣٠٠ [عميل] هندي إضافة إلى جنودنا. بذلك حاصرنا الحصن من كل الجهات. وبدأنا بإطلاق زخات من النار. وقد كان مشهداً بديعاً جداً. لم نستطع معه إلا أن نلحظ فضل الله ونعمته ومدده. فالجنود الغر غير المدربين على استخدام السلاح أطلقوا زخات النار بفاعلية كبيرة وكأنّ أصابع الله كانت على الزناد.

تلك الزخات النارية التي أطلقت عليهم وهم نيام قبل الفجر أنزلت في قلوبهم الرعب فبدأوا يطلقون صرخات متحشرجة حزينة. ثم إننا زحفنا نحو المدخل فاقتحمناه وتقدمنا نحو جنوب الحصن. أما هم فخرجوا من بيوتهم وأمطرونا بوابل من السهام

وتصرفوا بشجاعة خارقة.

وحين وجدنا منهم هذه المقاومة الهائلة بدأنا نفكر في أنجع الوسائل لحماية أنفسنا وقهرهم. هنا اقتحم الكابتن مايسون بيتاً من بيوتهم فقتل وجرح عدداً منهم، ثم خرج وهو يحمل جمرات كبيرة. ثم إنه أشعل النار في الطرف الغربي من الحصن. أما أنا فأشعلت النار في الطرف الجنوبي. بذلك التقت الناران في وسط الحصن والتهبت بشكل مخيف لتحرق كل ما كان هناك في أقل من نصف ساعة.

وبالطبع فقد احترق عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال. أما الذين اضطروا للخروج فذبحهم جنودنا بحد السيف رجالاً ونساء وأطفالاً. لقد كان هناك في الحصن ٤٠٠ نفس لم ينج منهم سوى أربعة أو خمسة. كان مشهداً مخيفاً أدخل الرعب إلى قلوب بعض جنودنا الذين لم يخوضوا حرباً من قبل - - مشهدَ تلك الأرواح المطروحة على الأرض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

كانت الجثث تتراكم فوق بعضها، فقال بعض جنودنا: أليس من المفترض بالمسيحي أن يكون رحيماً؟ لكنني أجبت مشيراً إلى حرب داود الذي لم تأخذه رحمة بأعداء الله الكنعانيين، فنشرهم بالمنشار وذبحهم بالسيف وأذاقهم أبشع أنواع الموت الذي يستحقونه. إن الكتاب المقدس يوجب قتل النساء والأطفال أحياناً. ويجب علينا الآن أن لا نماحك ونجادل. فقد أنارت كلمة الله لنا الطريق وأحلّت لنا كل ما فعلناه.

John Underhill, *News From America: or a New and Discovrie of New England...* (London: F.D. for Peter Cole, 1638), pp.36-40. Courtesy of Newberry Library, Chicago.

قطع رأس الملك «فيليب» وتقطيع جسده أربع قطع

في الأول من آب/أغسطس، طارد ثلاثون رجلاً إنكليزياً بقيادة الكابتن Church تشرش، ومعهم عشرون هندياً [الملكَ] فيليب [اسمه الهندي: ميتاكوم Metacom] وأتباعه. وفي الصباح التالي وصلوا إلى مركز قيادته فباغتوها وقتلوا ما لا يقل عن مئة هندي، ولم يخسروا سوى رجل إنكليزي واحد. ثم إنهم أنذروا من تبقى بأنهم سيُقتلون جميعاً إذا أطلقوا طلقة واحدة. أما فيليب فقد هَرب، لكنّ ابنه وزوجته أسرا في بليموث Plymouth[١].

وما كاد الكابتن تشرش يعود إلى بليموث حتى أوكلت إليه الحكومة الاستعمارية مطاردة فيليب من جديد وقتله، واعدةً إياه بمكافأة سخية. وبعد تحرّيات واستخبارات كثيرة أدرك [الكابتن تشرش] الملكَ فيليب ومن معه بالقرب من مستنقع، وفاجأهم في ساعة نوم. وهذا ما اضطرّ فيليب إلى أن يقفز بسرعة دونما ملابس سوى سرواله القصير وجواربه، ويركض باتجاه كمينين نصبهما له الكابتن تشرش.

هكذا تركوه يتقدم إلى مرمى نارهم ثم أطلقوا عليه النار فأصابوه في قلبه بطلقة وبين قلبه وكتفه بطلقة أخرى، فسقط على وجهه في الوحل والماء وبندقيته تحته. ثم هرع الرجل الذي قتل فيليب إلى الكابتن تشرش ليزف إليه الخبر.

عندها أمر [الكابتن تشرش] بسحب فيليب من الوحل وجره من سرواله وجواربه. كما أمر بقطع رأسه وتقطيع جسده بالبلطة والفأس إلى أربع قطع اقتسمها مع قاتل فيليب. ثم عاد لينال مكافأته[٢].

الهوامش

(١) Increase Mather, *A Brief History of the Warr with the Indians in New-England* From June 24, 1675... to August 12 1676... (London, Printed by Chiswell, 1676), pp. 44-45.

(٢) Thomas Church, *The entertaining history of King Philip's War, which began in the month of June*, 1675 [electronic resource]: *As also of expeditions more lately made against the common enemy, and Indian rebels, in the eastern parts of New-England: with some account of the Divine Providence towards Col. Benjamin Church*: (Boston: Printed by Green, 1716) pp. 42-45.

يلعبون برأسه، ثم يسلقونه في القِدر

في بطن الوادي، أطلقوا النار على أجساد هنود كومانشه Comanche وسلخوا فروات رؤوسهم، ومعها الآذان وكل شيء. ثم قطعوا قطعة صغيرة من جلد كل ثدي.

وفي المساء جاء الدكتور روفوس شويت Rofus Choate ومعه ليوتننت ونتز ميللر Wentz C. Miller وصبيان زنجيان فقطعوا رؤوس القتلى، ووضعوها في كيس من الخيش، وأخذوها للسلق من أجل دراسة علمية(!).

بعد منتصف الليل سمعنا عواء الذئاب التي حملت إليها ريحُ الليل رائحةَ «اللحم» من بعيد. كانت تتزاحم وتتشابك وتتكالب وتعوي فوق هذه الوليمة من أجساد البشر. أما هؤلاء البرابرة فكانوا ــ كما رأيتهم بعيني ــ يرقصون احتفالاً بما فعلته أيديهم.

وعندما حانِ وقت العشاء في المعسكر ناداني ميللر Miller من بعيد؛ ناداني أنا والمايجور ماوك Mauk وقال:

ــ تعالا، لدينا شيء طيب.

قال ميللر: وما هو؟

فأجاب: حساء.

ولاحظنا مغرفتين تغرفان من القدر. وأخذنا بصحنينا غير مرتابين بشيء حتى وصلنا إلى القدر ونظرنا. ويا للهول: رأينا رأسين مسلوخين لهنديين من هنود الكومانشه، وما تزال خطوط الأصباغ على وجهيهما، بينما كانت عيونهما مفتوحة تتأرجح من الأسفل إلى الأعلى وتعلو فوق هذا القرف، ثم تختلط مع فقاعات الحساء الدموي.

R. G. Carter, *On the Border with Mackenzie; or, Winning West Texas from the Comanches* (Washington: Eynon Company, 1935), pp. 199, 201.

جائزة مالية لقطع الرؤوس
إعلان رسمي في جريدة

نعلن هنا أن سكان مدينة فيلادلفيا تبرعوا بمبلغ ٧٠٠ دولار وأن هذا المبلغ سيمنح، بموجب قرار سيادة الحاكم مكافأة لأي شخص أو مجموعة أشخاص يجلبون رأسي شينغاس Shingas وكابتن جاكوبس Jacobs زعيمي هنود أمة الدولاوير، أو ٣٥٠ دولاراً لكل رأس منهما على أن يتم التأكد فعلاً من حقيقة أن الرأسين هما فعلاً لشينغاس وجاكوبس.

ملاحظة: من المتوقع زيادة هذه المكافأة قريباً.

The Pennsylvania Gazette, Philadelphia, Jan 1, 1756.

... وجوائز لسلخ فروة الرأس
من محضر اجتماع مجلس حاكم بنسلفانيا

من سيادة روبرت هنتر موريس Robert Hunter Morris حاكم ورئيس أركان منطقة بنسلفانيا ومقاطعات نيو كاستل، وكنت، وسَسِكس،

ـ بلاغ ـ

... لهذا، وبعد موافقة المجلس رأيت من المناسب أن أصدر هذا البلاغ، وأعلن أن هنود دولاوير وكل من يساندهم قد ارتكبوا أعمالاً عدوانية ضد رعايا جلالته في هذه المقاطعة. إنهم أعداء ومتمردون وخونة لجلالته القُدّوسِ most sacred. وإنني بهذا أطلب من كل رعايا جلالته في هذه المقاطعة، وأدعو جديّاً كل من في المقاطعات المجاورة أن يغتنموا كل فرصة ممكنة لمطاردة وقتل وتدمير هنود الدولاوير وكل من يساندهم....

وحيث إن المفوضين معي وافقوا على صرف ٦٠ ألف جنيه كانت قد أعطيت لنا بقرار من الجمعية العامّة لخدمة جلالته، فإننا سندفع [مثلما دفعنا من قبل] مكافآت لقاء كل أسر أو سلخ فروة رأس... و [ذلك] تشجيعا لكل شعب جلالته، ولكل قبائل الهنود الصديقة والمتحالفة معنا كي يبذلوا قصارى جهدهم لمطاردة ومهاجمة وأسر

وتدمير الهنود المذكورين.

وإنني أعلن هنا وأعد بأن أدفع من هذه الستين ألف جنيه لكل شخص، هندياً كان أو مسيحياً، كما يلي:

١٥٠ دولاراً إسبانياً عن كل هندي فوق الثانية عشرة يؤخذ أسيراً ويسلم لأي حصن أو حامية.

١٣٠ دولاراً إسبانياً لكل هندي ذكر مسلوخ فوق الثانية عشرة، بعد التحقق والتأكد.

١٣٠ دولاراً إسبانياً لكل أسيرة هندية، ولكل أسير دون الثانية عشرة.

٥٠ دولاراً إسبانياً لكل امرأة هندية مسلوخة أو طفل مسلوخ دون الثانية عشرة، بعد التأكد والتحقق.

١٥٠ دولاراً إسبانياً لتحرير كل أسير إنكليزي يؤتى به ويُسلّم إلى حاكم فيلادلفيا. ولكن لا شيء مقابل السلخ.

حرر بيدي، وختم بختم مقاطعة فيلادلفيا يوم ١٤ أبريل/نيسان في السنة التاسعة والعشرين من ملك جلالته، وفي سنة الرب ١٧٥٦.

عاش الملك

روبرت موريس

Minutes of the Provincial Council of Pennsylvania From the Organization to the termination of the proprietary Government [Colonial Records], (16 Vols., Harrisburg, 1853-1885), vol. vii, pp. 88-90.

شويناهم كالإوز
وأكلنا بطاطا مطبوخة بشحم بشري

[بعد أن قتلنا كل من في المدينة]، رأيت بعض المحاربين [الهنود] يهرولون إلى بيت. وقد استطعت أن أعدّ منهم ٤٦ واحداً. لهذا تبعناهم إلى أن اقتربنا من البيت. وهناك رأينا امرأة منهم جالسة عند الباب. كانت تضع قدمها في القوس التي في يديْها وتشدها بكل قوتها ثم تتركها تفلت باتجاهنا، فقتَلَتْ رجلاً منّا، أظن أن اسمه مور، وهو ملازم. وقد أغضبنا موته فأمطرناها بما لا يقل عن عشرين طلقة مزقتها تمزيقاً... ثم أطلقنا النار عليهم جميعاً وقتلناهم كالكلاب. وبعدها أشعلنا النار وأحرقناهم بها. أتذكر أنني رأيت طفلاً قرب البيت أُصيب بعيارات نارية. كانت يده وفخذه مكسورتين. وكان قريباً من البيت المحترق الذي شويناهم فيه كالإوز. كان يحاول الزحف دون أن ينبس ببنت شفة. إن الهنود قوم عنيدون يفضلون الموت على الذل...

لم تكن لدينا مؤونة كافية، لهذا عدنا في اليوم التالي إلى المدينة حيث ما زالت جثث كثير من الهنود تصدم العين. كانت أشكالهم فظيعة جداً، لأن النار لم تلتهمهم تماماً بل جعلت مناظرهم كريهة، أو ــ على الأقل ــ مناظر ما تبقى منهم. وقد اكتشفنا بالمصادفة أن البيت كان فيه عنبر للبطاطا. وكنا جائعين كالذئاب. كانت هناك

كميات هائلة من البطاطا فأكلنا منها على الرغم من أن «زيت» الأجساد التي أحرقناها أمس سال على البطاطا فبدت وكأنها طبخت بشحم شديد الدسم.

A Narrative of the Life of David Crockett of the State of Tennessee. Written by Himself. (Philadelphia: E. L. Cary and A. Hart, 1834), pp. 43-44.

قتل وسلخ سكان بلدة كونِستوغه Conestogoe
رسالة إلى الحاكم جون بن John Penn

لا نكستر في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٣، مساءً،

السيد المحترم،

أعلمني اليوم روبرت إدغار Robert Edgar الذي يعمل لحساب الكابتن توماس مككي Thomas McKee والذي يعيش الآن بالقرب من بورو Borough أن مجموعة من الناس (؟) من التخوم [هم عادة طليعة المستوطنين] قتلت وسلخت رؤوس معظم الهنود في مدينة كونستوغه، وذلك صباح هذا اليوم الباكر. وقال إنه علمَ ذلك من طفل هندي نجا من [المذبحة]...

صديقك المخلص، سيدي المحترم

وخادمك المطيع

إدوارد شيبين Edward Shippen

Martha L. Simonetti, assistant project director, George daily and George R. Beyer, editors,

Records of the Provincial Council, 1682-1776, National Historical Publications Commission Microfilm Publication Program (26 rolls, Harrisburg: Pennsylvania Historical and Museum Commission, 1966) Roll No. A6, vol. s, pp. 437,448.

.. والإجهاز على من نجا
رسالة إلى الحاكم جون بن

إن الهنود الأشقياء الذي ظننا أنهم لجأوا إلى مكان آمن قد أبيدوا تماماً. إن عدداً من الأشخاص، ربما كانوا بين الخمسين والستين اقتحموا البلدة في الساعة الثانية واتجهوا مباشرة إلى المستودع [الملجأ] حيث لجأ الهنود الناجون من المذبحة، وقتلوهم جميعاً.

وقد علمتُ أيضاً أن مجموعة مسلحة تسليحاً هائلاً تتجه الآن إلى منطقة الجزيرة Province Island، بهدف القضاء على كل الهنود.

خادمك المطيع

جون هاي John Hay

(المصدر السابق)

تسلى بذبح وسلخ عائلتين

مساء الأحد، قبل أن يصبح العاشر من الشهر قَتَل المستوطن فردريك ستمب Fredrick Stump أسرة مؤلفة من عشرة أفراد، وسلخ رؤوسهم... ثم جرّهم إلى الغدير المتجمد القريب من البيت. وهناك حفر حفرة في الجليد ورماهم فيها. ثم إنه خاف من أن يصل خبر الجريمة إلى الهنود فهرب في اليوم التالي إلى ميدل كريك Middle Creek على بعد ١٤ ميلاً، حيث وجد كوخين منعزلين، وفيهما امرأة هندية وبنتان صغيرتان، فقتلهن جميعاً خوفاً من أن يبلّغن عما جرى، ثم سلخ رؤوسهن ووضعهن في أحد الأكواخ وأشعل النار التي أتت على الكوخ وعليهن.

وليم بليث William Blyth

المحلف في فيلادلفيا

١٩ كانون الثاني/يناير ١٧٦٨

شهد أمام وليم أللن William Allen

(المصدر السابق Roll No.6, vol. T pp215-216,245-255).

نأسف لأن عددنا الضئيل
لم يسمح لنا بقتل الكثيرين

حضرة الجنرال روذرفورد Rutherford

... وبعد بزوغ القمر أرسلنا مفرزة من ١٣ رجلاً بقيادة الكابتن هاردن Harden والليوتننت وودس Woods، فتابعوا مطاردتهم حوالى ثمانية أميال لكنهم لم يعثروا على شيء. وعندما بزغ ضوء النهار اكتشفوا هندياً يمشي بعيداً فوق الجليد فطاردوه قرابة خمسة أميال حتى أدركوه فقتلوه وسلخوا رأسه...

وفي صباح اليوم التالي تابعنا مطاردتنا حتى... وصلنا إلى بلدة متناثرة متباعدة الأطراف، فتباحثنا في أفضل طريقة لمهاجمتها. غير أن قلة عدد جيشنا الصغير المؤلف من ٩٧ رجلاً فقط جعلتنا نعتقد أن محاصرة المدينة غير ممكنة، لهذا قررنا أن نسرع إلى قلب البلدة لكي نفاجئها. لكن الأعداء [سكان البلدة] كانوا على حذر كما يبدو فهربوا ما عدا اثنين قفزا في النهر، فهرعنا إليهما وما أن وصلنا إلى الضفة حتى وجدناهما قد أدركا الضفة الأخرى، فصوبنا نحوهما وقتلنا واحداً منهما. أما الآخر الذي أصبح بعيداً عن مرمى نارنا فقد هرب إلى الجبل... فطارده رجالنا وقتلوه ثم سلخوا رأس القتيلين. بعدها عدنا إلى البلدة فاكتشفنا أنهم أفرغوها من كل ثمين

فيها فلم يبق سوى الذرة والفاصولياء بمختلف أنواعها وغير ذلك من المؤن التي وجدناها كثيرة في كل بيت.

بعض بيوت البلدة كانت حديثة البناء، بل إن هناك بيتاً كان في طور البناء لا ينقصه إلا السقف.

وقد أخذنا ما استطعنا من الذرة ونهبنا ما أمكن نهبه، ثم أشعلنا النار في البلدة.

بعد ذلك طاردنا الهنود الذين عبروا النهر... وحين وصلنا نهر بدجون Pedgeon بعنا كل ما نهبناه. ثم إننا اختلفنا فيما بيننا حول مصير الأسرى (الهنود الثلاثة الذين التقطناهم على الطريق). بعضنا أراد بيعهم عبيداً، وقال آخرون إننا إذا لم نبعهم عبيداً فإن علينا قتلهم وسلخ رؤوسهم. وفي النهاية فضلنا أن نبيعهم لقاء ٢٤٢ جنيهاً. وهذا ما جعل المبلغ الإجمالي لما بعناه ١١٠٠ جنيه.

إن رجالنا، سيدي المحترم، تشجعوا كثيراً بهذه النتيجة، ويرغبون في أن توكل إليهم مهمة جديدة. وأخيراً فإننا نأسف أن عددنا الضئيل لم يسمح لنا بقتل الكثيرين.

وليم مور William Moore

في خدمة «المستعمرات المتحدة»

٧ نوفمبر ١٧٧٦

North Carolina University Magazine, new Series, vol. VII, no. 3 (Chapel Hill, February, 1888), pp. 90-93.

حرق ونهب مدن الشيروكي

من آرثر كامبل Arthur Cambell إلى الحاكم جفرسون Jefferson

... يومَ الخامس والعشرين [كانون الأول/ديسمبر ١٧٧٦]، مضى المايجور مارتن مع مفرزة لاكتشاف الطريق الذي كان العدو يهرب منه. وقد فاجأ عدداً من الهنود، فسلخ رأس واحد منهم، وسَطا على ١٧ حصاناً محملاً بالملابس والجلود والمفروشات المنزلية. كما علم أنهم يقصدون تِلِيكو Telico وهِواسي Hiwasee.

في ذلك اليوم مضى الكابتن كرابتري Crabtree (من فوج فرجينيا) مع ستين من رجاله لحرق بلدة شِلهووي Shilhowee، ونجح في إشعال النار في قسم من البلدة مواجهٍ لضفة النهر. وحين واجه قوة كبيرة من الهنود، انسحب سالماً.

وفي اليوم التالي (٢٦) مضى المايجور تيبتون Tipton مع ١٥٠ خيّالاً، ومعه أوامر بعبور النهر وطرد العدو من مدينة تيلاسي Tilasee ثم تدميرها. كما مضى المايجور جلبرت كريستيان Gilbert Christian مع ١٥٠ راجلاً ومعه أوامر بخفر الهضاب جنوب بلدة شلهووي وإحراق ما لم يحترق من هذه البلدة. وقد أتمت هذه المجموعة واجبها على أكمل وجه.

في هذا الوقت، جاءتنا المرأة الهندية المعروفة نانسي وورد Nancy Ward لتعرض علينا السلام باسم مجموعة من الزعماء الهنود. لكنني راوغت ولم أجبها بوضوح، إذ إن أول ما أريد فعله... أن أنشر أعظم قدر من الرعب وأشيع الإحباط في نفوس كل من يسكن هواسي وذلك بتدمير منازلهم ومؤونتهم.

يوم الثامن والعشرين، أشعلنا النار في بلدات شوت Chote وسيتيغو Scittigo وتوسكيغو Tuskeego. ثم تحركت كل قوتنا إلى مدينة على نهر تِليكو تسمى كي - يا - تي Kai-a-tee حيث تركتها بعهدة المايجور كريستيان و١٥٠ من رجاله، ثم مضيت.

وعندما تأكدت أن العدو قد أهين وأحبط، سمحت لنفسي - كسباً للوقت فقط - أن أرسل إلى زعماء الهنود رسالة (أرفق لكم نسخة منها) حول عروضهم للسلام. وفي اعتقادي أنه يمكننا تحقيق سلام رابح جداً يجنبنا نفقات الحرب وذلك باستسلام هذا الجزء من البلاد...

إن بلدات شوت، وسيتيغو، وشلهووي، وميكليكا Micliqua، وكي - يا - تي، وساتوغو Sattoogo وكل البلدات الرئيسة، إضافة إلى ما لا يقل عن ألف بيت و٥٠ ألف بوشل Bushels من الذرة [ما يعادل ١٦ مليون و ٢٥٠ ألف ليتر]، وكميات هائلة من المؤن الأخرى قد أحرقناها تماماً بعد أن أخذنا ما يلزمنا منها للجيش.

William F. Palmer et al., editors, *Calendar of Virginia State Papers and Other Manuscripts* (11 vols, Richmond, Superintendent of Public Printing, 1875-1893), vol 1, pp. 437-443.

حرق مدن الأمم الست

من سجلات المايجور جيمس موريس James Morris

١١ آب/أغسطس ١٧٧٩

بعد أن عبرنا مناطق مشجّرة غنية، وصلنا، على غير ما كنا نتوقع، إلى سهل مزروع أكبر من سهل Sheshekokuck يسمى مزرعة الملكة إيستر Easter. ويقال إن ملكة هنود السِنِكا Seneca سكنت هنا بأبهة ملكية عندما تقاعدت بعيداً عن كل رعايا أمّتها. ولا تزال آثار قصرها واضحة للعيان، فهو محاط بالأشجار المثمرة من أنواع كثيرة مختلفة.

... ومنذ أن وصلنا، بدأ جنودنا بنبش القبور حيث بدا من الواضح أنه كان هنا مدينة عامرة. وقد وجدوا أشياء مضحكة مثل الغلايين والخرز... وغير ذلك.

يوم ١٢ [أغسطس]، علمنا من الإستخبارات التي جمعها الكشّافة أن العدو في مدينة شمونغ Chemoung [على بعد ١٥ ميلاً من مدينة كاياغاCayaga] بدأ يستعد للرحيل بعد سماعه باقترابنا من تيوغا Tioga. لهذا تحرك جيشنا في الثامنة مساء ليكون على أتم استعداد لمفاجأة مدينة شمونغ... ووصلنا قبل ظهور الشمس، لكن،

لدهشتنا، وجدنا المدينة مهجورة. ووفقاً لروايات الذين يعرفون المدن الهندية، فإن هذه المدينة كانت عاصمة جميلة.

ومع شروق الشمس أصدر الجنرال أوامره بإحراقها فتصاعد منها اللهب. إنني لا أشك في أن أهلها الذين ينظرون إليها من تلالهم البعيدة قد أصيبوا بالإحباط واليأس وهم يرون مهرجان النار.

أما هدفنا الثاني فكان حقول الذرة. هناك أكثر من أربعين هكتاراً من حقول الذرة، قطّعناها كلّها وأتلفناها. وعندما تأكدنا من كمال الكارثة التي ألحقناها بالمدينة والحقول مضينا إلى تيوغا...

.. وحرق الحقول

من سجلات الليوتاننت إركورايز بيتي Erkurise Beatty

٣٠ آب/أغسطس ١٧٧٩

أمطرت قليلاً ليلة الأمس وبعض اليوم. كان معظم الجيش منهمكاً في إتلاف الذرة الوافرة جداً. أما فرقتنا فسارت على ضفة النهر حيث تمتد حقول الذرة فأحرقت خمسة بيوت كما أحرقت كل حقول الذرة على مدى أكثر من ميل. لقد أتلفت فرقتنا ١٥٠ فدّاناً من أفضل أنواع الذرة التي رأيتها في حياتي. بعض قصبها كان أعلى من ١٦ قدماً (خمسة أمتار تقريباً)، إضافة إلى كميات كبيرة من الفاصولياء المختلفة، والبطاطا، واليقطين والخيار، والكوسا، والبطيخ. وكان العدو ينظر إلينا من أعالي التلال، لكنه لم يصوّب علينا.

تدمير المدينة جينيسي

من سجلات الكولونيل هنري ديربورن Henry Dearborn

١٤ أيلول/سبتمبر ١٧٧٩

هذه المدينة [جينيسي Gennessi] من أكبر المدن... ويبدو أن المتوحشين غادروها

بسرعة كبيرة واضطراب، فقد تركوا كثيراً من الذرة المقشّرة وغير المقشّرة في أكوام، وغير ذلك من علامات الاضطراب.

في السادسة من صباح اليوم التالي أكبّ الجيش كله على إتلاف الذرة الوافرة جداً داخل هذه المدينة وحولها. وبقينا نتلف الذرة وندمر البيوت حتى الثانية بعد الظهر. وأعتقد أننا دمّرنا حوالي ١٥ ألف بوشل (٤ ملايين و٨٦٥ ألف ليتر) في هذا المكان. وقد استخدمنا في إتلافها ناراً هائلة.

.. وإتلاف الحقول والأرزاق

من سجلات سيرجنت مايجور جورج غرانت George Grant

٢٢ أيلول/سبتمبر ١٧٧٩

مشينا إلى مدينة كايوغا. وهي مدينة كبيرة وجميلة جداً. بيوتها مبنية جيداً. وأول ما فعلناه هو إتلاف حقول الذرة الخصبة.

وفي اليوم التالي دمرنا البلدات المتناثرة حول المدينة، وأتلفنا حقول الذرة على مدى أكثر من ثلاثة أميال. وحوالي الساعة الرابعة مشينا إلى بلدة لم نعرف لها اسماً. وهنا مكثنا. وفي الصباح انهمكنا في إتلاف الذرة والحبوب والحقول الزراعية. دمرنا حوالي ١٥٠٠ شجرة دراق، ومثلها من شجر التفاح وغيرهما من الفواكه.

Frederick Cook, Compiler, *Journals of the Military Expedition of Major General John Sullivan Against the Six Nations Of Indians In 1779: With Records Of Centennial Celebrations..* (Auburn N.Y. Knapp, Peck and Thomas, 1887), pp. 229-230.

«لن تقر عين الإنسان الأبيض
حتى يدمر آخر إنسان منا!»

يحب الهنود أن يعرضوا ما لاقوه من ظلم على أيدي البيض بكثير من البلاغة واللغة الطافحة بالحياة والعواطف التي لا تستطيع لغتنا المنمّقة أن تقلّدها. ولطالما استمعت إلى قصص معاناتهم القاسية إلى أن صرت أشعر بالعار من أنني أبيض. إنهم يعرضون ذلك بكثير من الدقة والتفصيل والتنظيم. يبدأون بالفرجينيين الذين كانوا أول المستوطنين في هذا الجزء من القارة الأميركية، ويسمونهم «السكاكين الطويلة long knives». يقول [الزعيم الهندي] لونابِه Lenape [دولاوير Delaware]:

«إننا نحن الذين استقبلناهم بلطف وكرم، وعطفنا عليهم أوّل ما وصلوا إلى بلادنا. أخذنا بأيديهم، ورحبنا بهم وبأن يستقرّوا إلى جوارنا ويعيشوا معنا، ويكونوا إخوة لنا. ولكن كيف قابلوا لطفنا ورحمتنا؟

في البداية طلبوا قطعة أرض صغيرة يعدون فيها خبزهم وخبز أطفالهم ويجعلونها مرعى لمواشيهم فأعطيناعم ما أرادوا لا جزاء ولا شكوراً freely. وسرعان ما طلبوا المزيد من الأرض فأعطيناهم. ثم إنهم استحسنوا غاباتنا وما في غاباتنا مما وهبنا الروح

الأعظم رزقاً لنا فأرادوها لهم أيضاً. وعندما اكتشفوا أن في هذه الغابات مناطق بهيجة عامرة أرادوها لهم. ولأننا نكره التنازل عنها، لا سيما أنهم أخذوا أكثر مما يحتاجون منها، فقد اغتصبوها بالقوة، وطردونا بعيداً عن بلادنا الأولى».

وعن وصول المستوطنين البيض إلى منطقة منهاكتاننك Manahachtanienk [اختصر الإنكليز الاسم إلى منهاتن وهي اليوم منطقة في مدينة نيويورك] يتحدث خطباء الهنود عن «جشع المستوطنين اللانهائي لاغتصاب أراضي البيض، وعن روح الغدر المتأصلة فيهم. فبدلاً من أن يزرعوا بالخضرة والأشجار هذه الأراضي التي وهبناهم إياها بغباء، زرعوها بالبنادق الكبيرة، ثم بنوا بيوتاً كبيرة وجعلوا أنفسهم سادة الجزيرة. لقد لجأوا إلى كل ما عندهم من الحيل والكلام المعسول لنضع سلاحنا. ولما وثقنا بهم ووضعنا سلاحنا طردونا من بلادنا نهائياً».

ومع وصول الينغييز Yengeese [يانكي Yankees، وهو اسم أطلقه الجنرال جيمس ولف James Wolfe (١٧٥٨) على جنود المستعمرين البريطانيين في العالم الجديد] إلى Machtitschwane [هي الآن مساتشوستس Massachusetts]، بحثوا عن أفضل الأراضي. «وكلما وجدوا واحدة اغتصبوها لأنفسهم وكأنها حق مكتسب لهم. وقد ذهلنا، لكننا تركناهم يمضون في غيّهم معتقدين أنه لا ينبغي خصامهم من أجل قطعة من الأرض. لكنهم سرعان ما زحفوا إلى مناطقنا المفضلة وشنوا حروبهم الدموية. كنا نعتقد أننا سنعيش بسلام إلى جوار هؤلاء البيض، لكنهم أسرعوا بالاعتداء علينا وانتهاك حرماتنا، مما يعني أنهم لن يدعوا لنا شيئاً إذا لم نقاومهم...

«ثم إننا استشطنا غضباً عندما رأينا البيض يسوقون أصدقاءنا وأقاربنا إلى سفنهم ويبحرون بهم إما ليرموهم في عرض البحر أو ليبيعوهم عبيداً فى البلد الذي جاءوا منه. لا نعرف. لكننا نعرف تماماً أن أحداً منهم لم يعد، بل لم يعد يُسْمَعُ عنهم شيء. لقد استولوا على كل بلادنا التي أعطانا إياها الروح الأعظم، وشرّدوا من لم يمت منا بنارهم...

«ولما جاء وليم بن William Penn [مؤسس بنسلفانيا] تحدث إلينا بكلمات السلام والنية الطيبة. وصدّقنا كلماته... ولم تمض فترة حتى انقلب فرحنا إلى أحزان، فقد مات أخونا مكوان Miquon [كما كانوا ينادون وليم بن]، ولم يعد أحد ينصت إلى

مستشاريه الذين شهدوا على حبنا للسلام. إن الغرباء الذين حلوا محلهم.. ضربوا تلك الصداقة التي أنشأها رجلهم العظيم بعرض الحائط، فهم لا يعنيهم إلا اغتصاب كل بلادنا بالقوة أو بالغش والخداع. وعندما ذكرناهم بما قاله أخونا الكبير [معاهدة السلام التي عقدها بن مع الهنود] غضبوا... وقالوا لنا إن هذه البلاد لهم، أعطاهم إياها إلههم الأبيض، ولا حقّ لنا فيها. ثم إنهم تكرّموا علينا بأن سمحوا لنا بالرحيل بعيداً إلى مكان حددوه لنا في وايومنغ Wyoming.

... لقد ظننا أنهم قوم طيبون. ما أحمقنا! إذ ما كادوا يحصلون على موطىء قدم على أرضنا حتى بدأوا بتدمير بيتنا من كل أطرافه. وها قد وصل الدمار إلى وسط البيت حيث كانت نارنا متقدة فأطفأوها ورمّدوها بدمنا ـ بدم هؤلاء الذين استقبلوهم بترحاب في أرضنا... كم سيُسمح لنا بأن نعيش في هذا المنفى، لا يعلم إلا الروح الأعظم. ما نعلمه علم اليقين أن عين الرجل الأبيض لن تقر حتى يدمر آخر إنسان منا ويجعلنا نختفي من على وجه الأرض.

Rev. John Heckewelder of Bethlehem, *An Account of the History, Manners and Customs of the Indian Nations Who Once Inhabited Pennsylvania And The Neighboring States 1819*, (Philadelphia: Historical Literary Committee of the American Philosophical Society, 1819), vol. 1, pp. 59-65.

«أنتم لا تتوقفون لحظة عن التدمير»
خطاب الزعيم تكومسه أمام حاكم إنديانا

٢٠ آب/أغسطس ١٨١٠

يا أخي، أتمنى عليك أن تسمعني جيداً...

عندما جاء الإنكليز، قالوا لنا بأنهم سيكونون آباء لنا، وأنهم سيعاملوننا كما كان آباؤنا يعاملوننا، وأنهم سيحتلون جزءاً ضئيلاً من أرضنا، ولن يعتدوا على أراضينا بل سينظرون إلينا وكأننا أبناؤهم. ولقد كنا يا أخي سعداء بسماع وعود الإنكليز... لكنهم سرعان ما انقلبوا على وعودهم وأشهروا السلاح في وجه [المستوطنين الذين صاروا يسمون] الأميركيين، ووضعوا هذا السلاح في أيدينا [لنحارب إلى جانبهم] ونفقد الكثير من شبابنا.

لقد بدأنا نكتشف خداع الإنكليز. إنهم لم يكتفوا بالاعتداء على أراضينا بل فعلوا ما هو أسوأ بأن أدخلونا في حرب... قالوا لنا إن علينا أن نحمل التوماهوك الإنكليزي... ولما حملناه جاءنا [المستوطنون] البيض ووعدونا... ولكنها دائماً وعود الإنسان الأبيض!

لعلّك تتذكر أن [هنود] الدولاوير عاشوا يوماً بجانب البيض، وصدقوا وعودهم بالصداقة والسلام. ومع ذلك فإنهم [البيض] أغاروا على مدن الدولاوير Delawares

وذبحوا رجالها ونساءها وأطفالها.

مثل هذه الوعود أعطاها البيض لهنود الشاوني Showonese وقالوا لهم إنهم بعد اليوم مثل أولاد البيض، وأنهم إذا أحسوا بأي خطر فما عليهم إلا أن يرفعوا هذا العلم [الأميركي]، ولن يعتدي عليهم أحد. لكن النتيجة أن الشخص الذي رفع العلم كان أول الضحايا فقد ذبح قبل أهل قريته. هل تلومنا بعد ذلك إذا لم نثق بآبائنا البيض؟

يا أخي، منذ أن عقدنا السلام معكم قتلتم كثيراً من [هنود] الشاوني والوينباغو Winbagoes والدولاوير والميامي Miamies واغتصبتم الكثير من أرضنا. ولا أدري كيف نبقى في سلام معكم وأنتم لا تتوقفون عن قتلنا واغتصاب أرضنا. إنكم أعطيتم هنود كيكابوس Kickpoos بضائع لقاء الأراضي التي أخذتموها منهم، وقد تسببت هذا البضائع في موت الكثير منهم. ثم إنكم وعدتمونا بالمساعدة، ولكنني لا أرى أنكم ساعدتم بشيء.

يا أخي، أنتم تفرضون الأذى على الإنسان الأحمر. وأنتم الذين تضطرونه اضطراراً لفعل الأذى. أنتم لا تتوقفون لحظة عن التدمير. وأنتم تفعلون كل ما تستطيعون لكيلا يتحد الهنود، ولكيلا يروا بلادهم مشاعاً لهم. أنتم تستفردون بهذه القبيلة أو تلك، وتنصحونها بأن لا تنضم إلى الإتحاد. أقول هذا لأنكم بهذه السياسية التمييزية تريدون أن تشعلوا الحروب بين القبائل. أنتم باستمرار تطردون الإنسان الأحمر من أرضه، وقد طردتموهم أخيراً إلى البحيرات الكبرى حيث لا يستطيعون العيش ولا العمل.

يا أخي يجب أن تفكروا بعواقب ما تفعلونه للهنود. قد تكون هذه الأفعال بتعليمات من الرئيس. وهذا عمل خبيث لا نرضاه. إن هذه الأرض التي بيعت [لكم] والبضائع التي أعطيت لقاءها عملٌ لا نوافق عليه فقد تمّ البيع مع ثلة قليلة ممن يخدمونكم. وإن المعاهدة التي عقدت في حصن واين Fort Wayne تمّت بالتهديد والإرهاب. وإننا في المستقبل سنعاقب كل من يبيعكم الأرض. أما إذا مضيتم في سياسة الشراء منهم فإن ذلك سيشعل الحرب.

يا أخي، كيف تريدون منا أن نثق بالإنسان المسيحي الأبيض وأنتم الذين قتلتم

المسيح ومسمرتموه على الصليب عندما جاء على الأرض. لقد ظننتم أنه مات، لكنكم مخطئون.

William Henry Logan Esarey (ed). *Messages and Letters of William Henry Harrison Volumes 1 & 2*; 1800-1812; (Governors Messages and Letters Series, Indiana Historical Commission, 1922), vol. 7 [vole. I, 1800-1811], pp. 463-469.

السلخ بالأسنان

إن ثلثي جيش الجنرال هاريسون كانا من كنتكي Kentuckians. ولكن بما أن كل جندي منهم كان مزوداً بسلاّخة (سكين خاصة بسلخ فروة الرأس) كجزء من عتاده، وكان متمرّساً بارعاً باستعمالها، وبما أن عدد الكنتكيين يفوق عدد القتلى الهنود عشرين ضعفاً، وبما أن من المستحيل سلخ فروة الرأس أكثر من مرة، فإننا نستطيع أن نتصور عنف التكالب على الغنائم [من فروة رأس الهنود].

ومن أجل تنوير القارىء الأوروبي، سأبدأ بوصف طريقة السلخ. يجب أن يكون هناك حَزّ حول الرأس في حدود ثلاث بوصات [حوالي ٧سم] عرضاً، حسب طول الشعر. ويجب أن توضع قدم السالخ على رقبة أو جثة المسلوخ ثم يتم السلخ بالإمساك بحزمة من الجلد والشعر وشدّهما شداً قوياً لاقتلاع فروة الرأس من الجمجمة. وعندما يكون الشعر قصيراً يصعب الإمساك به، يَقتلع السالخ بالسكين طرفاً من الدائرة [التي حزّها] ثم يعضّنها ويبدأ باقتلاع الفروة بأسنانه.

وللاحتفاظ بهذه الغنيمة الثمينة تبسط فروة الرأس وتشد لتجفف على طارة/طوق من الصفصاف التي تصنع من السلال.. إن هنود الغرب يقصّون شعرهم حتى لتبدو وكأنها مجزوزة جزأ، وذلك للانتقام من أعدائهم وإجبارهم عند السلخ على استخدام أسنانهم.

إن كاتباً أميركياً (كان شاهداً على ما يبدو) يصف كيف سُلخ تكومسه Tecumseh فيقول: «كانت هناك بهجة ضارية ferocious pleasure ـ إذا صحّ التعبير ـ بالبحلقة في رأسه ذي الأبهة الملكية التي لم يغيّب منها الموت شيئاً. لكن الزعيم المسكين فقدَ هيبته بعد أن مات وتعاورته سكاكين سلخ الكنتكيين Kentuckians التي حولت هذه الهيبة والجلال إلى بشاعة وشناعة. لقد أصروا على أن لا يعود واحد منهم دون غنيمة. لهذا سلخوا جلد الجثّة، وقطّعوها إلى أشرطة ضيقة لا يزيد طولها على ١٠ ـ ١٢ بوصة [٢٥ ـ ٣٠ سنتم] ليصنعوا منها رباطاً لموسى الحلاقة...

William James, *Full and Correct Account of the Military Occurrences of the Late War Between Great Britain and the United States of America*. (2 vols., London, Printed for the author, 1818), vol. I, pp. 293-296.

عقاب الأسير عند الهنود

في صيف ١٨١٧، أسرت مجموعة صغيرة من [هنود] السيمينول الكابتن دنكن مكريمون Duncan McKrimmon أحد ضباط ميليشيا جيورجيا، وقرروا إعدامه على الخازوق. القصة التالية رواها الكابتن نفسه للكولونيل هتشكوك Hitchcock.

بدأت ميللي Milly بالقول إنها هي وأختها الكبرى كانتا تتنزهان على ضفة النهر عندما سمعتا صرخة حرب، فعرفتا منها أن [رجلاً أبيض] وقع في الأسر. وعندما توجهتا نحو مصدر الصوت وجدتا رجلاً أبيض عارياً تماماً ومربوطاً إلى شجرة وحوله شابان يحملان بنادقهما ويرقصان استعداداً لإعدامه، كما جرت العادة. وشرحت لي ميلي أن حياة الأسير في مثل هذه الحالات هي بين يدي آسريه، ولا يستطيع الزعيم نفسه أن يفعل شيئاً. وقالت ميللي: إن الأسير كان شاباً وكان يبدو خائفاً جداً ويتلفت يميناً وشمالاً عسى أن يرى من يساعده. فقلت في نفسي إن من المؤسف أن يموت شاب مثله. هكذا مضيت إلى أبي وحدثته، فقال إنه لا يستطيع إنقاذه وإن من الأفضل أن أذهب بنفسي وأتحدث مع الهنديين. وفعلت ذلك. كان أحدهما غاضباً جداً، وقال إنه قتل أختين له وأنه سيقتل الأسير. فقلت له إن قتل الشاب لن يعيد له أختيه. وبعد التحدث إليه بعض الوقت هدأ خاطره، فقال: إذا قبل الشاب أن يحلق شعره [هذه إهانة عند الهنود] ويلبس مثل الهنود ويعيش بينهم فإنه ينقذ حياته. وقد عرضتُ

هذه الشروط على الرجل الأبيض فقبلها مسروراً. بذلك حوّل الهنديان مشهد الموت إلى مشهد بهجة. لقد حلقا شعر الشاب باستثناء خصلة لتعليق الريش بها. وبعد أن دهناه بالألوان وكسياه بالثياب الهندية أفرجا عنه ليصير واحداً من القبيلة.

Ethan Allen Hitchcock: Edited by W. A. Croffut, *Fifty years in camp and field, diary of Major-General Ethan Allen Hitchcock*, U.S.A., (New York: G. P. Putnam's Sons, 1909) pp. 152-153.

قتلوهم ليصنعوا من جلودهم
مشاحذ لموسى الحلاقة

هناك حادثة شاهدتها بعيني:

أحد الشجعان الهنود وأولاده الخمسة الذين أعرفهم، احتموا وراء جذع مكسور فوق الأرض. كلهم قُتلوا وسلخوا من قبل المستوطنين ليصنعوا من جلودهم مشاحذ لموسى حلاقة razor straps. وفي النهاية حصلت على قطعة من جلدهم.

John F. Fonda, "Early Wisconsin," *Collection of the State Historical Society of Wisconsin* (Madison: Published by the Society, 1907) p.263.

سلاح «السلام»

بعد أن أفلست الحيل المختلفة في اقتلاع ثلاثة آلاف مقاوم من هنود السيمينول Seminol من أرضهم، بدأ المضاربون العقاريون والمستوطنون والميليشيات يحضون رجال الدولة على شن الحرب عليهم. لقد فشلت الرشاوى، ولم ينجح حرق الأرض، والتجويع، والحروب المباشرة في اقتلاعهم.

هنا اقترح قائد القوات الأميركية في فلوريدا الجنرال وينفيلد سكوت Winfield Scott أن تقدّم وزارة الحرب مكافأة لكل من يأسر واحداً من هنود السيمينول ٥٠٠ دولار، لكن الوزارة رفضت الاقتراح. المضاربون العقاريون اقترحوا الإبادة الجسدية. وقد سمحت لهم الدولة باستخدام الكلاب الدموية bloodhound لمطاردتهم فلم ينفع ذلك أيضاً.

من المقترحات الناجعة تشكيل مجالس سلام تحت راية معاهدة أو اتفاقية يتم خلالها القبض على الهنود والتخلص منهم. وعندما أدرك الجيش أن الهنود على علم بهذه الحيلة جهد في طمأنتهم وإقناعهم بضرورة العودة إلى طاولة المفاوضات. ثم إنه اشترى ذمم بعض الهنود وأرسلهم إلى زعماء السيمينول لكسب ثقتهم ولإقناعهم بلا جدوى المقاومة وبضرورة التفاوض معهم [مع الجيش] تحت خيمة السلام

حيث سيقوم الأميركيون بالتخلص من الهنود الخادعين والمخدوعين معاً. وهذا ما جرى.

Letter from Levi Parker to Spencer H. Cone, October, 27, 1846. *Parker Manuscript*, (Box 2) American Philosophical Society, Philadelphia.

اختفاء رأس الزعيم أوسيولا

هذه هي القصة الحقيقية لاختفاء رأس الزعيم أوسيولاOsceola، كما روتها حفيدته:

بعد موت أوسيولا زعيم سيمينول، تمكن الدكتور ويدن Weedon من الاختلاء به. بذلك قطع رأسه، ولكنه تركه في النعش مع المنديل الذي كان أوسيولا يربطه حول عنقه. وقبل التشييع بقليل أخذ الرأس، وأغلق النعش. بذلك دُفن أوسيولا بدون رأس.

وأخذ الدكتور ويدن الرأس إلى سنت أغسطين، واحتفظ به في بيته، ووضعه في مكتبه... وقد اعتاد أن يعلق رأس أوسيولا فوق هيكل السرير حيث ينام أطفاله الثلاثة، ويتركه هناك طوال الليل عندما يريد أن يؤدبهم.

May McNeer Ward, "The Disappearence of the Head of Oseola," *The Florida Historical Quarterly*, vol. xxxiii, Numbers 3 & 4 (January-April, 1955), pp. 198-199.

١٧٠ فروة رأس للذكرى والفخار

القصة التالية عن فريق أميركي لسلخ الرؤوس بقيادة جيمس كيركر James Kirker نقلها الرحالة الإنكليزي جورج فردريك رَكستون George Fredrick Ruxton. وكان كيركر من أشهر تجار سلخ الرؤوس، فعلى يديه سلخت آلاف الرؤوس. وهناك دراسة فصيحة عنه بعنوان «ملك صيادي فراء الرؤوس King of the Scalp Hunters» نشرت في *The Smoke Signal*, Fall, 1962.

في مواجهة المدخل الرئيسي للكاتدرائية، فوق البوابات التي تشكل إحدى واجهات الساحة، نشرت ١٧٠ فروة من فروات رؤوس الأباشي الذين ذبحهم صيادو الهنود الذين يتلقون مكافآت من الدولة لقاء ذلك. لقد أحضرت هذه الفروات وعلقت هنا للذكرى والفخار.

من أجل القضاء على المتوحشين، تشكلت شركات مساهمة ترعاها الحكومة التي عرضت مكافأة قدرها ٥٠ دولاراً لكل فروة رأس مسلوخة، وذلك تشجيعاً للناس على إبادة الأباشي.

إن دون سانتياغو كيركر، الذي يضيق بقصص سفكه دماء الهنود مجلد كبير، يترأس

عصابة من ١٥٠ سفاحاً. وهذه الفروات المنشورة أمام مدخل الكاتدرائية ليست إلا آخر مآثره ومآثرهم.

في شهر آب/أغسطس، كان الأباشي في سلام مع الحكومة. ولهذا فقد جاء ١٧٠ منهم إلى قرية غالينا Galeana للتجارة، ظناً منهم أن معاهدة السلام تضمن سلامتهم. ولكن فيما كانوا بدون سلاح يرقصون ويسلون أنفسهم جاء كريكر وعصابته. ولم يبد الهنود أية مقاومة، وكأنهم كانوا يلقون بأنفسهم أرضاً ويستسلمون لمصيرهم.

لم يوفر كريكر شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً. لقد ذبح هذه الضحايا المسالمة دون أية مقاومة. وكان بين الهنود امرأة حامل فهربت إلى الكنيسة وتعلقت بالمذبح وصارت تصلي وتطلب الرحمة لنفسها وجنينها. ولكنهم لحقوا بها وطعنوها عدة طعنات صرعتها أرضاً. ثم ـ من الصعب الكتابة عن هذه الفظاعة، لكنني أرويها عن شاهد عيان ـ انتزعوا الجنين الذي كان ينبض في بطن أمه، وغطسوه بالماء المقدس لتعميده. وبعدها خبطوا رأسه على الجدار وسحقوه.

وعندما عاد رجال كريكر بمائة وسبعين فروة من رؤوس الأباشي استُقبِلوا بعَراضة حماسية اشترك فيها الحاكم والقسس وفرقة من الموسيقى.

Le Roy R. Hafen (editor), *Ruxton of the Rockies*, (Norman: University of Oklahoma Press, 1950), pp. 146-149.

مذبحة «بحيرة كلير»

ذات يوم، شاهد الهنود الذين يراقبون البحيرة قارباً يدنو فقال بعضهم لبعض: إن وراء الأكمة ما وراءها. ومضى اثنان منهم إلى المَرسى ليستطلعوا الأخبار. وهناك تأكدوا من أن المحاربين البيض جاءوا ليقتلوا كل الهنود [الذين يعيشون] حول البحيرة وأن عليهم أن يفروا بنسائهم وأطفالهم ويختبئوا.

وعندما نزل البيض إلى اليابسة قال زعماء الهنود من الأفضل أن نرحب بهم ونقابلهم بسلام. لذلك مضوا للترحيب بهم على الرغم من أنهم مدركون أن البيض قادمون لقتلهم.

وتقدم الزعيم غي ـ وي ـ ليه Ge-Wi-Lih من البيض رافعاً يديه، وقال لأحدهم: لا تؤذيني أيها الرجل الطيب. لكن الرجل الأبيض أطلق عليه النار وأصابه في ذراعه، ثم أطلق عياراً آخر فأصاب زعيماً آخر وقتله.

ولم يجد الهنود بداً من الهرب والاختباء.

بعضهم اختبأ في أعشاب البحيرة. أما النساء والأطفال الذين لم يستطيعوا الاختباء فتساقطوا صرعى حول الجزيرة. وتروي إحدى الهنديات العجائز ما شاهدته فتقول إنها

بينما كانت تختبىء تحت مقعد مغطى بعشب الديس المائي شاهدت رجلين أبيضين قادمين وسلاحهما مشهور في الهواء وقد عُلِّقَت عليهما طفلة رضيعة. لقد أخذوها إلى النهر ورموها فيه. وبعد ذلك جاء رجلان أبيضان آخران بنفس الطريقة ورموا طفلاً صغيرا في الماء. وقالت [العجوز] إن امرأة صريعة كانت غير بعيدة عنها، وأنها شاهدت رجلين أبيضين يركضان نحو امرأة وطفلها الرضيع ويطعنانهما ثم يرميانهما في الماء. لقد سمعت المرأة تقول: «آه يا بني!» . وعندما جمعوا الموتى وجدوا كل الصغار وقد قتلوا بالطعن. أما جمع القتلى فقد استغرق أربعة أيام.

كذلك أخبرت المرأة كيف شنق البيض رجلاً في جزيرة إمرسون ثم شووه بنار هائلة أشعلوها تحته. وكذلك قبضوا على هندي آخر عند هضبة إمرسون وربطوه إلى شجرة ثم أحرقوه حياً.

وفي اليوم التالي مضى الجنود إلى مندوسينو Mendocino وقتلوا عدداً كبيراً من الهنود. لقد أراد الهنود الاستسلام لكن الجنود عاجلوهم وبدأوا بإطلاق النار عشوائياً وكأنهم يقتلون الكلاب. بعضهم نجا بالسباحة بالجدول الذي يصب في النهر، وآخرون اختبأوا في الدغل. لكنهم تعقّبوهم وقتلوهم جميعاً. لقد قتلوا كل طفل وامرأة. ورموا بعض الأطفال في البحيرة. ثم إنهم جمعوا الموتى في المعبر وأحرقوهم.

وقال شاهدا عيان Bo-Dom, Kroa-Loh إن امرأة عجوزاً قالت لهما إنها نجت [وكانت يومها طفلة] لأن أباها حفر حفرة عميقة وخبأها فيها. وقال شاهد آخر إنه كان صغيراً حين أطلق الجنود النار على أمه وأخيه الرضيع فسقطا على الأرض. وقال: إنها نصحت له بأن يعلو شجرة ويختبىء ففعل. كانت تحتضر وهي تحضن رضيعها. وبرغم ذلك فقد أوصته بالصمت. وقد سمعها جنديان فأسرعا إليها وراحا يطعنانها هي ورضيعها إلى أن فارقا الحياة. وقال إنه من أعلى الشجرة شاهد الجنود يركضون حول المخيم ويطلقون النار على الرجال والنساء ويطعنون الصبيان والبنات. وقال كذلك إنه شاهد رجلاً صريعاً على مقربة من أمه. كان يحتضن طفله الذي يبكي. فجاء الجنود وأجهزوا على الأب طعناً، وأخذوا الطفل، ولفوه ببطانية ثم رموه في نار مشتعله. لكن الطفل لم يحترق. ولا يزال حياً إلى الآن، واسمه Bill Ball ويعيش

الآن في بونفيل Boonville. وقال لي رجل عجوز إن طفلين هربا من الجنود، وحين عادا إلى القرية لم يجدا إلا القتلى. وقال أحدهما: إنني لا أرى أمي وأخي. لكنني أرى الدماء تنداح فوق الأرض وقد صار جسداهما قوتاً للكويوتِه [من عائلة بالثعالب]. لقد جلست تحت الشجرة أبكي طول النهار.

"William Ralganal Benson's Narrative" in Max Radin, "the Stone and Kelsey "Massacre" on the Shores of Clear Lake in 1849", *California Historical Society Quarterly* (September, 1932), vol. XI, pp. 271-273.

بيع وشراء الهنود

هناك، في الأراضي Territory، [المناطق التي يسكنها السكان الأصليون] عدد هائل من الهنود، معظمهم إناث (نساء وأطفال) سيقوا بالقوة، أو خطفوا، أو بيعوا. وهم ينتمون إلى عدد من قبائل نيو مكسيكو الأكثر وحشية. ومنهم أيضاً هنود النافاهو. إن الذين يزعمون أنهم يملكونهم يعاملونهم خدماً أو عبيداً. فهم يباعون ويُشترون بين السكان بسعر لا يزيد على سعر الأحصنة والثيران... لكن الأسعار ارتفعت أخيراً. إن البنت المرغوب فيها إذا كانت في الثامنة من عمرها وكانت ذكية سليمة البدن قد يصل سعرها إلى أربعمائة دولار. وعندما تبلغ وتصبح امرأة قد تحمل من مالكها بزواج أو بغير زواج وتصبح أماً...

ولقد علمت أن لدى مفوض الشؤون الهندية نفسه واحدة في بيته.

وفي ربيع ١٨٦٢، عندما نقلتُ أنا والقاضي هبل Hubble أُسَرَنا إلى الولايات، أخبرني في لاس فيغاس أنه باع امرأة هندية.

United States Congress, Senate. Special Committee appointed under joint Resolution of March 3, 1865. *Condition of the Indian Tribes*. S. Rept156., 39th Congress, 2d session, 1867, p. 326.

أغنى بلاد العالم بالذهب.. لنا

من مركز القيادة في نيو مكسيكو

سانتا في Santa Fe، نيو مكسيكو في ١٠ أيار/مايو ١٨٦٣

عزيزي الجنرال

... أنشأتُ حصن وست Fort West، وطردت الهنود بعيداً عن قمة «غيلا Gila» [حالياً في نيو مكسيكو]. وإن المستوطنين يجدون هنا ذهباً وفضة وزنجفرا cinnabar. ولا شك عندي أن «غيلا» واحدة من أغنى بلاد العالم بالذهب. لهذا السبب وحده تَعرِف لماذا يريدها المتمردون [الهنود]، ولماذا لن نسمح لهم أبداً بأن يستولوا على بلد يكتنز الملايين المملينة من الثروات...

كنت أتمنى لو أن لدي كتيبة جيدة من حامية كاليفورنيا، إذن لنشرتها في «غيلا». بذلك تعمل على إبادة هنود هذه البلاد في نيو مكسيكو وتحمي الناس الذين يرغبون في فتح البلد وجعله مستعمرة عسكرية عندما تنتهي الحرب.

وكما تتذكرون، فإن كاليفورنيا لم تكن تعتبر غنيمة قيمة حتى بدأ ذهبها يدهش العالم كله.

[التوقيع] جنرال جيمس كارلتون James H. Carlton

United States Congress, Senate. Special Committee appointed under joint Resolution of March 3, 1865. *Condition of the Indian Tribes.* S. Rept156. 39th Congress, 2d session, 1867, p. 110.

أمر بقتل كل ذكور الأباشي والنافاهو

من مركز القيادة في نيو مكسيكو

سانتا في، نيو مكسيكو في ٣ آب/أغسطس ١٨٦٣

يا كابتن، أرسِل مجموعة من جنود المشاة في موقعك لتطهير السفح الشرقي من منطقة جبل سانديا Sandia، بدءاً من تيجراس Tejerras حتى جبال بلاسر Placer، وأوعز إليهم أن يقتلوا كل ذكر من هنود النافاهو والأباشي.

يجب البدء فوراً.

الجنرال جيمس كارلتون

United States Congress, Senate. Special Committee appointed under joint Resolution of March 3, 1865. *Condition of the Indian Tribes*. S. Rent156. 39th Congress, 2d session, 1867, p. 122.

الإبادة هي الحل

سانت لويس، في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٦

من الجنرال W. T. Sherman إلى وزير الحرب،

.. علينا أن نجدَّ في الانتقام من [هنود] سو، حتى ولو بإبادتهم رجالاً ونساء وأطفالاً. لا شيء غير هذا يحل المشكلة من جذورها.

جنرال و. ت شيرمن

United States Congress, Letter of the Secretary of War. S. Ex. Doc. No. 515., 39th Congress, 2d Session, 1867, p. 27.

قتل الأسرى العزّل

(من رسالة الطَّبيب كونانت برسلي Conant B. Briesly إلى لجنة التحقيق)

كان هناك حوالي ٤٠٠ من هنود الأباشي الأسرى...

فجأة، في ٣٠ نيسان/أبريل، سمعتُ إشاعة بأن الهنود قد هوجموا... فأخذت معي ١٢ رجلاً وعربة وأسرعنا إلى مكان الجريمة. وعند وصولي وجدت أن لا فائدة كبيرة من العربة والأدوية فقد قضي الأمر بسرعة وانتشرت جثث النساء والأطفال هنا وهناك.

في البداية ضُربت أدمغة الجرحى بالصخور. بينهم اثنتان من أجمل النساء كانتا مستلقيتين. وواضح من أعضائهما التناسلية وجراحهما أنهما اغتصبتا ثم قتلتا. معظم القتلى تم التمثيل بجثثهم. هناك طفل في شهره العاشر تقريباً، ومن الواضح أنه أصيب بطلقتين. ويبدو أن إحدى رجليه قد اقتلعت بالقوة ومزقت إرباً. وفيما كنا نجول في المكان وجدنا امرأة لم تصب بأذى، لكننا لم نستطع أن نحملها على الكلام فقد كان من الواضح أنها لا تثق بنا. وعندما وجدتُ أن ليس باستطاعتي أن أفعل شيئاً عدت أدراجي وكتبت تقريراً إلى ليوتنانت ويتمان Lieutenant Whitman في مركز القيادة.

U. S. Commissioner of Indian Affair. *Annual Report for 1871* (Washington: Government Printing Office, 1871), pp. 487-488.

.. تدمير وإبادة على أكمل وجه

١٨ أيار/مايو ١٨٧٣، كوهويلا، مكسيكو Coahuila, Mexico

ما أن تذكر الكولونيل مكنزي [Ronald Mackenzie] أوامر [الجنرال] شريدان Sheridan بأن هدف هذه الحملة هو الإبادة annihilation والتدمير destruction حتى أعطى أوامره اللازمة لتنفيذ ذلك... وفعلاً، فقد كان الدمار والإبادة على أكمل وجه.

Robert. G. Carter, *On the Border with MacKenzie or Winning West Texas from the Comanche* (Washington: Eynon Company, 1953), pp. 441-443.

تدمير الطبيعة وموارد غذاء الهنود

١ ـ مذابح الحمَام المهاجر

عند وصولنا إلى بتوسكي Petoskey وجدنا ما فاق كل توقعاتنا. هنا على بعد ثلاثة أميال شمالاً، كان الحمَام يبني أعشاشه بأعداد هائلة فوق مساحة يقدرها الاختصاصيون بأربعين ميلاً طولاً وعشرة أميال عرضاً. إنها، ربما، أوسع رقعة لتفريخ الحمام في الولايات المتحدة، فهي تغطي مائة ألف فدان، كما تتضمن ما لا يقل عن ١٥٠ ألف فدان متفرقة حولها.

في الفندق، أسعدنا الحظ بمقابلة العم لين جويل Uncle Len Jewell من مدينة باي Bay فهو مراقب عام مختص بحياة الغابات. كان في طريق عودته إلى البيت بعد أسابيع أمضاها في المراقبة لكنه وافق على أن يساعدنا ويبقى معنا لبضعة أيام.

لم يكن أحد في القرية يشاهد سوى الحمام. إنه المشهد الطاغي والحديث الأول لكل الناس. أما «الحماميّون» فقد جاءوا من كل فج بعد أن درسوا تقارير السوق حول أسعار الزغاليل.

لا يعلم عدد هذه الطيور إلا الله. كانت تُحزم في الصناديق حيّة وميتة. وكانوا ينقلون

هذه الصناديق إلى محطة القطار فيفرغونها هناك ثم يعودون بها ليكدسوا الحمام فيها من جديد. وكانت مراكز النقل تغص بالصيادين المحترفين وبعُددهم. أما القطارات فكانت تحمل إليهم أدوات الصيد لتعود محمّلة بصناديق الحمام.

صناديق الحمام في كل مكان؛ في الفنادق، وفي مراكز البريد، وفي الشوارع والساحات. كان الحمام كما أجمعت التقارير في ولاية نيويورك، وولاية وسكنسون، وولاية بنسلفانيا، وولاية ميشيغن، وولاية أياوا وفرجينيا وأوهايو وتكساس وإلينويز وماين ومينسوتا وميزوري [أي في رقعة أكبر من القارة الأوروبية].

استأجرنا فريقاً يعيننا على التحقيق في حجم التعشيش والتفريخ. لكننا كنا، عملياً، نهتدي بالحمام الذي يطير فوق رؤوسنا ذهاباً لتحصيل القوت وإياباً إلى الأعشاش.

بعد حوالي خمسة عشر ميلاً وجدنا قافلة من العربات تتجة إلى الغابة حيث لا يتوقف الهديل. وقد لحق ثلاثة منا بالقافلة. كان الهديل يعلو ويعلو، ويزداد عدد الطيور زيادة هائلة. وبعد دقائق قليلة، وجدنا أنفسنا في وسط إحدى عجائب الأرض والغابات المسحورة. الطيور تفرّخ. كنا لا نعلم أين ننظر، مذهولين بالمشهد حولنا وفوقنا. هل نحن في عالم الخيال؟ هل تخدعنا أبصارنا؟ حيثما وجهنا أنظارنا وجدنا تلك المخلوقات السماوية اللطيفة التي تطير برشاقة في كل الاتجاهات وتخطر بألوانها الزاهية: الزرقاء والأرجوانية والبنيّة... كل غصن كان مثقلاً بها ومحنيّاً. لا يوجد غصن صغير ليس عليه أربعة أعشاش أو خمسة.

ثم بدأنا نسمع ضجة أشجار تُحْتَطَب، فاتجهنا إلى مصدر الضجة لنرى الصيادين رجالاً وصبياناً وهم يحتطبون الشجر ويمسكون بالفراخ وهي تتساقط من أعشاشها. وما أن يمسكوا بها حتى يفصلوا رؤوسها عن أجسادها بأيديهم، ويكدسوها في أكوام هائلة. آخرون ينقرون العش بعصا طويلة فتتساقط الفراخ غير قادرة على الطيران. ثم إنهم كذلك يفصلون رؤوسها عن أجسادها بأيديهم ويرمونها فوق الأكوام. آلاف مؤلفة من الطيور صرعى بين السرخس وأوراق الشجر المتساقطة.

بعد ذلك، مضينا عبر ممشى هندي قادنا إلى منطقة تفريخ أخرى حيث الطيور لا عد لها ولا حصر، وحيث إن سقسقتها ورفرفة أجنحتها تصم الآذان وتجعل الحديث

مستحيلاً إذا لم نتكلم بأعلى أصواتنا. وعلى ضفاف البحيرة، كانت ملايين الطيور تحسو الماء، لكنها حين تخاف أو تتوجس شيئاً تطير جميعاً حتى لتحسب صوت أجنحتها صاعقة رعدية.

بعد ساعة من المشي وصلنا إلى وهد عميق اقتربنا منه بحذر... وسرعان ما لاحظنا المصيدة والشبكة. ورحنا نراقب المشهد من وراء بعض الأجمات في انتظار وثبة المصيدة. إن أرضية المصيدة السوداء تحولت بسرعة إلى زرقاء وأرجوانية بالحمام الذي جذبه الطعم. وفجأة سقطت الشبكة فوق مئات الحمام العالقة فيما طار من استطاع الطيران إلى الأغصان البعيدة.

وعندما نزلنا من التلة واتجهنا نحو الشبكة وجدنا منظراً مخيفاً لا ينسى. كان الوهد العميق يغص بالحمام المقتول، وكان الصيادون على أطرافه مُغَمّسين بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم. كانوا يمسكون بالسكاكين الحادة يقطعون بها رؤوس الحمام ثم يرمونها في الوهد. إن متوسط ما يقع في الشبكة هو ما بين ٦٠٠ إلى ٩٠٠ حمامة. أما متوسط حصيلة الصياد الواحد في اليوم الواحد فبين ٢٠ ألف حمامة و٢٥ ألف حمامة. ويقدر دخل الصياد المحترف في هذا الموسم بنحو ستين ألف دولار أميركي [ما يعادل ثلاثة ملايين دولار بالقيمة الشرائية الحالية للدولار]. وفي الولايات المتحدة ما لا يقل عن خمسة آلاف صياد محترف، يقدر عدد الحمام الذي اصطادوه عام ١٨٧٨ بمليار حمامة.

Chicago Field, Jan 11, 1879, vol. x, pp. 345-346.

٢ ـ إبادة الجواميس

مع استكمال بناء سكة حديد Union Pacific انشطرت جواميس الولايات المتحدة إلى قطيعين هائلين صارا يعرفان بالقطيع الشمالي والقطيع الجنوبي. كلا القطيعين كان يبتعد عن سكة الحديد بسرعة إلى أن أقيم على طرفي السكة «شريط عازل» بعرض خمسين ميلاً.

... لطالما كانت هناك سوق رائجة لجلود الجواميس. ولكن ما أن عبرت سكة الحديد أرض الجواميس حتى بدأت المذبحة في هجمة لا تعدلها إلا الهجمة على مناجم ذهب كاليفورنيا. إن باني سكك الحديد، وسائقي العربات، والباحثين عن الثروة السريعة، والصيادين المحترفين، وكل عاطل من العمل... بدأوا جميعاً باصطياد الجواميس للإتجار بلحمها وجلودها. أما التجار الذين استقروا في المدن القليلة على طرفي سكة الحديد فإنهم وجدوا في ذلك فرصة ذهبية للربح. لهذا بدأوا بتنظيم فرق صيد محترفة زودوها بالسلاح والذخيرة والعتاد.

هكذت كان العمل الأساسي لسكان هذه المدن ما بين ١٨٧١ و١٨٧٤ هو صيد الجواميس. وقد أنشئت مستودعات مركزية انطلقت منها فرق الصيد في كل الاتجاهات. كذلك أقيمت أبنية خاصة لمعالجة اللحم تمليحاً وتقديداً، وأنشئت المدابغ لدبغ الأكوام الهائلة من جلود الجواميس. ففي مدينة دودج Dodge رأى البروفسور تومسون في عام ١٨٧٨ أحد هذه المستودعات وقال إن فيه ما لا يقل عن ١٢٠ كورداً Cord [ما يعادل ٤٣٥ متراً مكعباً] من الجلود.

في البداية ضاع الكثير من الجواميس المقتولة هباء. فالكل أراد قتل الجواميس. لكن لم يكن هناك من يريد سلخها أو معالجة لحمها بالتمليح والتقديد. الآلاف المؤلفة من الجواميس قتلت من أجل انتزاع ألسنتها فقط. والآلاف المؤلفة جرحها الصيادون الهواة جروحاً بليغة فنفقت بعيداً دون أن يستفيد منها أحد. لكن ذروة هذا العبث بلغت أوجها عندما بدأ سلخ هذه الجواميس اعتماداً على الأحصنة. هذا مثال على الدرك الذي يسقط فيه الإنسان ويصر على أن يسمي نفسه إنساناً. هنا يُشقّ جلد الجاموس ما بين البطن والحلق، بينما تقطع القوائم من الركب ثم تشقُّ إلى الأعلى. أما جلدة الرقبة فتقسم إلى قسمين. وأخيراً في عملية وحشية معقدة يقيد جلد الجاموس المشقوق بحصانين قويين من كل طرف فيما يثبت الجسم على الأرض بقضبان من الحديد. وقد كان معظم هذا النوع من السلخ ينتهي بتمزيق الجلد وسحب قطع من عشرات الكيلوغرامات من اللحم معه.

خلال هذه السنوات كان الصيادون يتنافسون في القتل. وكان الجلد الكامل الذي يرسل للبيع يعني مقتل خمسة جواميس أو ستة وتمزيق جلودها... ثم تحسن الوضع

قليلاً في عام ١٨٧٣ بعد أن تنظمت تجارة الصيد وتحسنت الخبرة. وتقول سجلات سكة الحديد إنها نقلت في عام ١٨٧٣ من ثلاث مدن ٢٥١٤٤٣ جلداً و١٦١٧٦٠٠ رطل من اللحم و٢٧٤٣١٠٠ رطل من العظم. كان قطيع الجنوب قد نضب تقريباً وكان يهرب من الصيادين في كل الاتجاهات.

William T. Hornaday, "The Extermination of the American Bison", *Reports of the U. S. National Museum under the Direction of the Smithsonian Institution, 1887.* (Washington: Government Printing Office, 1889) pp. 492-496.

ملاحق

«الولايات المتحدة ـ يحدّها من الشمال القطب الشمالي؛ ومن الجنوب منطقة الأنتركتيكا [القطب الجنوبي]، ومن الشرق يحدها الإصحاح الأول من سفر التكوين، أما من الغرب فحدودها يوم القيامة».

- Arthur Bird, *Looking Forword* (1899)

«أصبحت حضارتنا هي السيد، سيد هذا المتوحش، وسيد حكومته... إنه الآن بين حَجري الطاحون الأعلى والأسفل، ويجب أن يُسحق. صحيح أن الإنسانية لا تسمح، لكن مصلحة الحضارة تتطلب».

سناتور لوط موريل .Lot M. Morrill، الكونغرس الأربعون.

ملحق (١)

مَدّنوهم ببندقية(*)!

«أثخِنوا في حناجرهم تقطيعاً
تحت الراية [الأميركية] المتلألئة بالنجوم
مَدّنوهم ببندقية».

من أناشيد الجيش الأميركي

«كفّنوا العرب المسلمين الإرهابيين
برقائق من لحم الخنزير bacon».

جندي أميركي في العراق

- I -

في مكتبة كوب The Coop بساحة هارفرد مقهى أرتاح فيه عادة كلما أرهقني العمل أو أحببت تقليب صفحات بعض المنشورات الجديدة التي أكره شراءها. ذات مساء،

(*) كُتبت هذه المقالة مستقلة عن الكتاب، ونشرت في مجلة الكرمل (خريف ٢٠٠٥) بعنوان مختلف: زحف القديسين من المجاز إلى الحقيقة.

بعد زيارة طويلة للصديق صالح عبد الجواد ـ وكان أستاذاً زائراً في جامعة هارفرد ـ عثرت في هذه المكتبة على كتاب وثائقي طريف[١] يضم معظم الخطابات التي برر بها ٢٤ رئيساً أميركياً حروبهم.

في الكتاب مئة وخطبتان تتكرر مفرداتها وتعاد حججها من حرب إلى حرب ومن جيل إلى جيل كأنها تتقمص وتتناسخ ولا يتغير فيها إلا الزمان وعناوين الموتى: أميركا «أكثر الأمم حباً للسلام. وهي لا تذهب إلى الحرب إلا على مضض» (الرئيس وودرو ولسون Woodrow Wilson). وهي في كل حروبها لم تقتل إنساناً، فكل ضحايا هذه الحروب التي تتحدث عنها خطب الرؤساء كانوا «وحوشاً» أو كانوا ينتمون بنسب متفاوتة إلى البشر، ويحتاجون إلى شيء من التأهيل «الحضاري» الذي قد يقتضي بعض التعديل في خَلقهم أو خُلُقهم أو ثقافتهم أو أعمارهم، أو يحتاجون إلى قدر محسوب من التنظيم لعلاقتهم بالثروات الطبيعية في «البراري» أو «المجاهل» أو «الأراضي البور» التي يسكنونها، وذلك بما يعود بالخير والسعادة والرفاه على «ثروة الأمم».

مشهد مهيب واحد تعرضه هذه الخطب لآخر مئتي سنة من زحف القديسين[٢] القدري من المجاز إلى الحقيقة؛ من أرض «كنعان الإنكليزية الجديدة New English Canaan»[٣] إلى أرض إبراهيم وإسماعيل الإنكليزية الجديدة. الخطب جمعها المؤرخ رَسل بوهايت Russell Buhite عميد كلية العلوم والفنون في جامعة ميزوري ـ رولا Missouri-Rolla، وقدم لها بمقدمة نقدية لاحظ فيها أن الرؤساء جميعاً أضفوا على حروبهم طبيعة «خيرية benevolent» نبيلة تهون في سبيلها الضحايا والتضحيات أو ما يعرف في قاموس الحروب الأميركية بالأضرار الهامشية collateral damag، وأن لخطبهم التي تضمنت «نداءات عاطفية للدفاع عن النفس» أو «لنشر الديموقراطية» أو «لحماية الأرواح والممتلكات» أو غير ذلك من المهمات الرسالية النبيلة دائماً هدفاً عاماً هو «التضليل misleading»[٤].

وعلى الرغم من الطبيعة التاريخية للمقدمة فإنها تضمنت بعض الإشارات الأدبية السريعة فلاحظت مثلاً أن أبراهام لنكولن كان أبلغ الرؤساء خطابةً، وأن الرئيس الحالي «استهتر بكل القواعد وكسّر اللغة»[٥] مع ما كَسّر من أشياء جميلة كثيرة أُلحِقت بالأضرار الهامشية.

□ □ □

للعودة إلى البيت من ساحة هارفرد لا بد من المرور بإشارتين ضوئيتين لعل أكثر ما تضيئانه هو الوجه الذي تعنيه خطب هؤلاء الرؤساء بالتضحية التي يجب على الأمة الأميركية تقديمها في حروبها «الخيرية»:

الأولى عند تقاطع الساحة مع شارع «غاردن Garden». هنا، حيث يختنق التقاطع بالسيارات والمارة في الصباح والمساء، يقامر رجل معوّق بحياته فيقفز بين صفوف السيارات مستجدياً لقمة عيشه. إنه (أو لعله) مشرف على الستين من عمره، يتعكّز على عصا، يمسكها بيد، ويمسك بيده الأخرى «كرتونة» مقطوعة من علب الدكاكين السمراء كَتَب عليها: «محارب قديم، جائع، وبلا مأوى».

الإشارة الثانية تنتصب على تقاطع أخطر وأشد ازدحاماً تخرج عنده من كامبردج إلى جارتها «آرلنغتون Arlington» أو إلى الطريق السريعة رقم ٢. هنا تلتقي بمحاربيْن قديميْن يتناوبان على قمار الموت في أوقات يبدو أنهما يتفقان عليها. الرجل لا يختلف عن رفيق السلاح في ساحة هارفرد إلا في العاهة، فهو لا يعرج ولا يتوكأ على عصا بل يكشف صدره عن جرح قديم عريض ذي قُطَب عنبية يمتد من أعلى عنقه حتى بداية ثديه. أما المرأة فيبدو أنها ضريرة تهتدي بعيون كلبها الأسود الذي يلازمها ويحرسها. إنها تقف على حافة المستديرة المزينة بالعشب والزهور صيفاً وبالثلج شتاء، لا تتحرك منها. إلى جانبها عربة معدنية صغيرة من عربات المخازن الكبرى محشوة بأكياس قمامة سوداء بالية مغبرّة، من الواضح أن فيها كل ما أبقت لها «ثروة الأمم» من أوسمة الحرب التي أعطبتها ورمتها في غابة العمى.

الرجل والمرأة ومعظم هؤلاء المعطوبين الذين حصدتهم الحروب «الخيرية» من حقول الفقر والطبقات الدنيا؛ من السود، والملونين، والهنود، والطلاب الذين ربطتهم وزارة الدفاع بجنزير في أعناقهم[٦]، ومن المهاجرين الجدد الحالمين بالجنسية، ومن المعذبين في الأرض، فأغرتهم بالمنّ والسلوى، وسمّتهم بالأبطال، وزينتهم بالنياشين، وأغرقتهم بالأحلام، وربطت كرامتهم بكرامة العلم المتلألىء بالنجوم، هاهم مذلون مهانون جائعون بلا مأوى، لم تُبق لهم «ثروة الأمم» من وطن سوى عراء الصيف أو كيس من البلاستيك في الشتاء يندسّون فيه ليلاً وينامون في أرض كنعان الواسعة، ولم تترك لهم من عَلَم سوى هذه «الكرتونة» يزينون بها معظم مفارق الطرق، ومداخل

قطارات الأنفاق وأبواب السينما والمسارح والكنائس وحدائق البيت الأبيض وأرصفة البنك الدولي. بعضهم يتعمد مجابهة عينيك بملابس الحرب المرقطة وبعضهم لا ينسى أن يحلّيها بالأشرطة والنياشين التي علاها القذر ولم تعد تصلح حتى للاستجداء.

□ □ □

للجنرالات وطن آخر. إنهم منذ انتهاء الحرب الأهلية في عام ١٨٦٥ يخرجون من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ من سفك الدم إلى تقطيره في المصارف؛ تتلقفهم الشركات الكبرى لاستغلال مواهبهم في رسم استراتيجيات اقتصادية لا تقل «خيرية» عن استراتيجياتهم الحربية. والمعادلة في حساب «ثروة الأمم» بسيطة جداً: لكي يستطيع «ماكدونالد» ملء بطون فقراء العالم بالهمبرغر لا بد أولاً من إرسال طائرات «مكدونالد دوغلاس» وصواريخه لتزيين سماوات هؤلاء الفقراء بالمشاعل النارية.

العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية وشهدَ زواجاً تاريخياً بين «فكرة أميركا» بأهدافها الثلاثة، وثوابت تاريخها الخمسة(٧)، وبين «ثروة الأمم»، هو الذي أعطى مهمة استعباد من استعصى على الموت من كنعانيي العالم الجديد طابعاً نفعيّاً لا تحيا الأسطورة التاريخية بدونه، بينما احتفظ بطابع القداسة لاستعباد من طاردتهم الأسطورة في أرض كنعان الأولى ولهثت في أعقابهم آلاف السنين. الطرفان على جبهة هذه الحرب، وهم في معظمهم من الزنابير(٨)، أدركا أن «ثروة الأمم» تنقذ فكرة أميركا من الانتحار، وتقدم للمتحاربين جميعاً تسوية رابحة لمسألة العبودية.

في هذا العام الذي كشف فيه معظم جنرالات الحرب الأهلية عن عبقريتهم الاقتصادية، وعن أن «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» كالمسدس للرصاصة، كان الهنود الذين أخطأتهم سكاكين شعب الله الطويلة يشيّعون الهزيع الأخير من سيادتهم على ما أبقت لهم الحروب الخيرية من بلادهم، ويحثون التراب فوق معاهداتهم التي حولتها القوة إلى «أوراق للتمسيح»(٩). صعود هذا يعني هبوط ذاك. وموت هذا يعني حياة ذاك. وفي النهاية فإن استعباد هذا الكنعاني الأحمر مجازاً (في تجربة مفيدة على الطريق إلى كنعان الحقيقة) هو من أعمدة هيكل الأسطورة نفسها، وله قدسية عناصرها الأخرى التي سكنت ولا تزال تسكن هواجس ومخيلات وغرائز كل

المؤمنين بها. والزنابير الذين تعهّدوا هذه الأسطورة أكثرهم إيماناً وتسليماً وحرصاً على الطقوس.

جنرالات الحرب الأهلية هم الذين أطلقوا رصاصة الرحمة على معاهدات الهنود وحولوا «السيادة» و«الحكم الذاتي» إلى مزرعة لتربية الطواويس حين رسموا للشركات العملاقة استراتيجياتِ «خردقةِ» معازل الهنود (وهي فعلياً قماقم متناثرة، يمسك الزنابير بأعناقها وأغطيتها) بسكك الحديد ومناجم الفحم وآبار النفط، وهم الذين، بتشنيعهم، حدّثوا تقنيات مَسخ هؤلاء الضحايا إلى ما لم يخطر على بال أوفيد. بذلك أخصبوا مخيلة هوليوود بألوان كل ريش الطيور، وأغنوها بكثير من صور «المتوحشين العراة» وبمشاهد مهينة من دماماتهم وبلاهاتهم وخَرَقهم وعدوانياتهم التي شاعت في أفلام الغرب الأميركي، وبذلك صنعوا من كل طفل أميركي «جون وين»، وأهدوا رؤساء أميركا كنزاً من المفردات والعبارات والدعاوى التي شاعت في خطبهم الحربية.

□ □ □

كل الأمكنة التي وصلتها حروب الخير، سواء كانت في أعماق الغابات أو في أرض أعرق الحضارات الإنسانية، كالصين واليابان ومصر والهند مثلاً، تحول أهلها إلى برابرة، أو مُسخوا إلى «حيوانات تتدلى من مؤخراتهم أذناب الخنازير»[١٠]. فالله كما يقول مارك توين «خلق العالم للإنسان؛ الإنسان الأبيض»[١١] وإن أي طالب دراسات لغوية مبتدىء يلاحظ في هذا التراكم التاريخي الممل لكلمات مثل «المجاهل» و«الأرض العذراء، أو الخاوية» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدين» و«جئنا لنحرركم، لا لنستعمركم» .. إلخ، كما تعرضها خطب رؤساء أميركا وأدبيات المستعمرين الزنابير في العالمين الجديد والقديم، أنها أحبّ متكآت لغة حروبهم الخيرية.

هناك ما يشبه الدليل وضعه دافيد سبر David Spurr لهذه المفردات والعناصر الأسلوبية والمنطقية التي ميزت الكتابة عن هذه المناطق «المدهشة» التي لا توجد إلا في مخيلاتهم، وعن هؤلاء الوحوش البشرية الذين طبخوهم بالطريقة المشهّية ومع البهارات التي تغري بأكلهم. فهي في كل أشكال تعبيرها «تُزَيّت» آلة الزحف الإمبراطوري، حيث ينظر مفتريها بعين خياله وعقدة اختياره؛ ينظر بعنجهية واحتقار إلى هذه الأرض المدهشة وهؤلاء «السكان» الأعاجيب الذين احتقر لغتهم قبل أن يسمعها،

وشوّه آدابهم قبل أن يقرأها ويفهمها، ومسخهم وسخر من قوانينهم وعاداتهم وأخلاقهم وعقولهم ونظرتهم إلى العالم قبل أن يراهم.

حتى بعض العادات الحضارية التي قد يمارسها هؤلاء الهمج الملونون يمكن طردها من ملكوت الحضارة واستهجانها بسرعة. أنت لا تستطيع أن تكون متحضراً لمجرد أن تكون لك أخلاق حضارية وسلوك حضاري. لكي تتحضر يجب أن يكون لك أولاً بشرة حضارية متلألئة فالرحّالة شارلز وورنر مثلاً يستغرب حب المسلمين للنظافة الجسدية، لكنه يشكك في جدواها الحضارية التي لا تتحقق إلا ببياض البشرة فيقول في كتابه «مومياءات ومسلمون»: «يبدو أن هؤلاء المسلمين لا يدركون عَبث تنظيف جلودهم الملونة ولم يكتشفوا لاجدوى فركِها وحكّها»[١٢].

هذه المتكآت اللغوية [«المجاهل» و«الأرض العذراء» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدين» و«جئنا لنحرركم، لا لنستعمركم» .. إلخ] في رأي سبر ـ وهو من أبرز المختصين باللغة الإمبراطورية، وله كتابان نقديان عن جويس وإليوت ـ عناصر ثابتة في الشنشنات الإمبراطورية لدى الزنابير، سواء ظهرت في الروايات، أو أدب الرحلات، أو التحقيقات الصحافية، أو الكتابات والخطب الرسمية. وهي في كل صورها وأشكال تعبيرها أسلحة في المشروع السياسي لبناء الإمبراطورية[١٣].

□ □ □

مع انتهاء الزحف نحو الغرب (باستثناء تلك «القماقم» التي حُشر فيها من تبقى من همج القارة)، ومع امتداد عيون الزنابير إلى غرب الغرب؛ إلى عتبات المحيط وما وراء عتباته وعناقيد جزائره، اتسع مفهوم المجاهل أو الأراضي البور[١٤] wasteland ليشمل كل أرض لا يسكنها أو يستثمرها البيض. لقد استكملت فكرة أميركا في «كنعان الإنكليزية الجديدة» كل ما يلزم لإنعاش الأسطورة المؤسسة والعودة بها إلى مهدها الأول؛ إلى كنعان اللحم والدم.

في هذا الإطار تم تعميم «المجاهل» على كل محطات الرحلة القدرية المقدسة حول كوكب الأرض. لم تُستثن منها قارات كاملة كانت عامرة تعج بالحياة وتنتج أروع الآداب والفنون والقوانين والصناعات يوم لم يكن في الأرض عِرق ملفق هجين اسمه

الأنكلوسكسون. بذلك خُلعتْ صفة «الهمجية» على أعرق حضارات العالم، في الصين والهند واليابان ومصر ووادي الرافدين. وسرعان ما تحلى أبناء هذه الحضارات بكل صفات سكان الغابات والكهوف، وصُنِّفوا أنثروبولوجياً مع إنسان جاوة Homo erectus of Java.

□ □ □

معظم الأطفال الأميركيين مثلاً، لا يعرفون عن أفريقيا أكثر مما شاهدوه في أفلام طرزان، ويعتقدون أن الريش (لا الشَّعر) ينبت في رؤوس الهنود الحمر، مثلما يعتقدون اليوم أن الفلسطينيين هم الذين يستعمرون أرض إسرائيل[١٥].

يكفي أن تزور متحف سميثونيان للتاريخ الطبيعي National Museum of Natural History في المنطقة الواقعة بين البيت الأبيض وهضبة الكابيتول لترى هذه التصنيفات العجيبة لشعوب العالم مجسدة أمام عينيك. هنا تقف حائراً متسائلاً: لماذا تُعرض نماذج من الهياكل العظمية لسكان الصين والهند ومصر ووادي الرافدين ومعظم البلدان التي شهدت ولادة حضارتنا الإنسانية إلى جانب هياكل وعاديات السحالي والسلاحف والسمك والدببة والماموث والديناصورات والحيوانات المنقرضة؟ أين الزنابير؟ أليس لهذا الشعب المختار هياكل عظمية؟ أليس للمتحضرين ذوي الدم الأزرق تاريخ يوصف بالطبيعي؟

هنا يُنجِزُ العرضُ والسرد مهمة خيرية نبيلة. إن مثل هذه التصنيفات العجيبة لحقول «علمية» خُلقت مع بداية حركات الاستعمار الأوروبي، وفي سياقه، جعلت مسألة «تمدين» هذه الكائنات ـ كائنات ما قبل اللغة، وما قبل الإنسان ـ لا تختلف عن تأليف الحيوانات التي كستنا بصوفها وغذّتنا بحليبها ولم تبخل علينا بلحمها وشحمها. إنها حتمية قدرية كحتمية تمدين أرض كنعان الإنكليزية «حيث الهنود والحيوانات يسرحون ويمرحون معاً دون سلاسل في رقابهم»[١٦].

معظم المفردات النبيلة في قاموس «التمدين» الذي يرافق رحلة الزنابير القدرية إلى مغرب الشمس تؤكد أن فقهاء هذه اللغة ونِطاسييها متفقون على أن ليس لهمج الأرض من دواء وشفاء وترياق إلا في لسع الزنابير، وأن قَدَر هؤلاء الزنابير أن يكتنزوا

مزيداً من الشحم واللحم عبر تمدين الشعوب الهمجية وإعمار مجاهلهم وتحرير ثرواتهم و.. عقولهم. هذه حضارة شعب الله الغنية، وقَدَرها أن تزداد غنى مهما كانت الضحايا والتضحيات.

وفعلاً، فإن كل حملات «التمدين» التي رافقت عولمة «فكرة أميركا» وإعادة صياغة الطبيعة والتاريخ على إيقاع الأسطورة، كانت تسعى إلى تكييف حاجات وعادات وأخلاق وأفكار وأذواق «الهمج» لاستيعاب «فائض الإنتاج» الأميركي. وقد كان تمدين المحظوظين الذين استعصوا على الإبادة من «الكنعانيين بالغلط» ورشةً خرافية للهندسة البشرية تكررت فصولها حيثما رفرفت الراية المتلألئة بالنجوم، وحيثما أنشدَ رسل الحضارة: «مَدّنوْهم ببندقية civilize them with a crag» في الفيليبين وجزائر المحيطات وفي الصين وأميركا اللاتينية والعربية.

□ □ □

ما أن وضع جنرالات الحرب الأهلية عبقرياتهم العسكرية في خدمة «ثروة الأمم»، حتى انضم «الازدهار» إلى آيات «القدر المتجلي» الذي أعطى الزنابير حقاً إلهياً جديداً بالتوسع اللانهائي في أراضي الهمج، وأهدى لهم مبرراً إضافياً لعولمة «المجاز الكنعاني» وترجمة «فكرة أميركا» إلى كل لغات العالم القديم.

بخلق الحاجة إلى استهلاك «الوفرة» غرق الزنابير حتى شعفة رؤوسهم في صناعة بشر الأرض من جديد، وُصفت كلها بحملات التمدين، واحتاجت كلها إلى الحروب الخيرية و«الهضم الخيري». من لندن إلى سيدني، ومن كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة، لغةٌ لم يبلها التكرار، ولا رثّها بُعدُ آلاف الأميال عن الدار.

على مدى كل هذه القرون التي تلت الموجة الاستعمارية الأولى، لم تتزحزح فكرة أميركا عن أهدافها ولا تنازلت عن ثوابتها. لم تكن الوفرة التي سخت عليهم بها أرض كنعان لتزيدهم إلا جشعاً وإيماناً بقدرهم المتجلي زحفاً وتوسعاً مع مدار الشمس، وإلا عطشاً إلى استنبات حاجات وشهوات لدى همج هذه الكنعان أو تلك توحد بين قابليتهم للتمدن وبين إقبالهم على استهلاك ما يراد لهم استهلاكه.

لقد اكتشفت «ثروة الأمم» أن همج الأرض خُلقوا ليتولوا وظيفةً مضاعفة في هذا القدر المتجلي، فَبِهِمْ تتعولم «فكرة أميركا»، وبهم تنتفخ كروش شعب الله.

بِقَدْرٍ معلوم من التنقيح في خَلق هؤلاء الهمج والتشريح في أخلاقهم وثقافاتهم يُسخَّرون لإحدى الحسنيين: إما للعمل في صناعة هذه الوفرة، وإما لاستهلاكها. إن ازدهار «ثروة الأمم» يعتمد على تهييج همج الأرض على استهلاك ما يصنعه إخوانهم المروَّضون على إنتاج «الوفرة» لحساب الزنابير. وفي الحالين أسندت «فكرة أميركا» تمدين هذين المسَخَّرَيْن (قدرياً، وطبيعياً، وإلهياً، وما تَشائياً) لازدهار «ثروة الأمم» إلى عبقرية الجنرالات، وأنقذت «الجلاد المقدس» بذلك من فظاعة الضجر.

□ □ □

فجر جديد في أفق كنعان الإنكليزية، وشمس القدر المتجلي التي ملأت بأشعتها القارة بدأت تذرّ قرنها على جزائر المحيط وتقترب من شواطىء الصين. الرئيس مكنلي تحدث مع الله[١٧] ليلاً في أروقة البيت الأبيض، وتلقى منه ألواح تمدين الفيليبين وهداية وثنييها.

في تلك الفترة التي فاضت فيها وفرة الأرض المنهوبة عن حاجة كل من فيها، صارت حملات «التمدين» تجري على وتيرة «فضلِ الإنتاج» أو على ما يشتهيه «الازدهار»، وصار قَدرُ الزحف نحو غرب الغرب يتضمن في ما يتضمن استثمار ميتافيزياء كراهية الكنعانيين في مشروع «التمدين». وهذا ما استلزم خلق أساطير جديدة عن واقع الآخرين تسمح لأميركا (كما يقول جوسيا [هوسيا] سترونغ **Josiah Strong** أحد أنبياء تمدين العالم في كتيب بعنوان «بلادنا») بالزحف ـ مادياً وروحياً ـ إلى حيث يمضي بها قدرها المتجلي دون خوف على النقاء العرقي للزنابير.

> «إن عظمة هذا العرق لا تكمن في حضوره في كل مكان من العالم وزحفه نحو مناطق أخرى وشعوب مختلفة، بل تكمن أيضاً في إعادة صياغة طرق حياة هذه الشعوب باسم الحضارة... ولأنها حضارة روحية ومادية فإن تصدير المثالية المسيحية سوف يمضي يداً بيد مع تصدير الأقمشة والبضائع المصنعة... لقد آن للعالم، كل العالم، أن يتنصّر ويتمدّن... وهل إجراءات

التمدين إلا أن تخلق في الهمجي احتياجات أعظم [للاستهلاك] وشهوات أقوى؟ إن التبشير سوف يعبّد الطريق للتجارة، وإن الملايين في أفريقيا وآسيا يشعرون اليوم بالحاجة إلى حضارتنا المسيحية. إنها تنبض في عروق أفريقيا وتشيع الحياة في جنوب أميركا. وها هي العظام الرميم **dry bones** لآسيا تتململ، فالنَفَس الدافىء الذي تبعثه حضارتنا يكسو أضلاعها لحماً... مما سيضيف هذه القارات إلى أسواقنا، ويجعل من الولايات المتحدة مَشغلاً workshop جباراً للعالم كله»[١٨].

وفي كتاب سترونغ أكثر من تصريح وتلميح إلى أن تصميم الله لمستقبل العالم يعتمد كلياً على الزنابير، وأن هذا الشعب المختار ـ من وجهة نظر داروينية مُلَهوتَة ـ هو المؤهل لصناعة مصير الإنسانية.

حتى فردريك تيرنر فيلسوف الثغور [الحربية] الذي ذهب إلى أن قدر رسالة «التمدين» الأميركية أن لا تطفىء حرباً إلا بنار حرب جديدة، نشر كُتيّباً طريفاً عن التجارة مع الهنود في وسكنسون بنى فيه للعروسين السعيدين «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» بيت الحجال، ثم ربط قدَرَهُما بالثغور الحربية التي تركض أمامها الشمس. لقد أفاد تيرنر كثيراً من الاقتصادي الاستراتيجي ألفرد ثايرماهن Alfred Thayer Mahan العسكري البحار المخضرم والأستاذ في الأكاديمية الحربية الذي ربط مصير أميركا بالثغور الحربية الجديدة في المحيط. وعلى الرغم من كراهيته وخوفه من البحر فإنه دعا في كتابه «تأثير القوة البحرية على مسيرة التاريخ *The Influence of Sea Power upon History*» إلى التنسيق بين «الوفرة» الأميركية وبين الاستعمار والفتوح البحرية التي وصفها بأنها «ترياق التاريخ».

وبمنطق دارويني، كان يومها صرعةَ معظم حقول الدراسات «الحديثة»، أطلق بروك آدامس Brook Adams نظريته عن دور «ثروة الأمم» في «نشوء وانهيار الحضارات»[١٩]، ثم طورها في كتابه «استعلاء الاقتصاد الأميركي» الذي وصف فيه الدولة الأميركية عن حق بأنها «شركة عملاقة» لا بد لها من التوسع في الأرض وتمدين العالم إذا كانت تريد البقاء وتؤمن فعلاً بأنها أصلح الأمم[٢٠]. وبالتأكيد، لم تكن زيارة «الله» ليلاً للرئيس مكنلي في البيت الأبيض ودعوته

إلى تمدين الفيليبين والكوبيين إلا مباركة لهذه الأفكار.

□ □ □

لطالما تحولت مأساوية هذا التمدين الخيري الذي تسخو به «ثروة الأمم» على همج الأرض إلى مادة أدبية أو فنية ساخرة. ففي مجموعة قصصية نشرها أوهنري O Henry عام ١٩١٥، بعنوان «ملوك وملفوف *Cabbages and Kings*»، يروي قصة ديبلوماسي أميركي التقى مصادفة في أرض متخيلة اسمها «أنشوريا» ببائع أحذية أميركي كان رفيق صباه.

كل سكان البلدة «كوراليو» التي التقيا فيها كانوا حفاة عراة. هناك ثلاثة آلاف إنسان في هذه البلدة يمشون حفاة في الطرقات وليس في العالم بشر أحوج إلى الأحذية منهم. ومع ذلك فليس في «كوراليو» بائع أحذية واحد. والحال غنية عن الشرح. هكذا شكا بائع الأحذية إلى صديق طفولته مرارة الكساد. لقد تجشم ما تجشم وأنفق ما أنفق ليحمل إلى همج أنشوريا أبدع صناعة الأحذية الأميركية وليخطو بهم على طريق الحضارة، وها هم يقابلونه بالجحود.

لكن الجنتلمان الأبيض بائع الأحذية لم يعدم حيلة، ففي جلد كل «جنتلمان» ذي دم أزرق «سوبرمان» خارق يطير في الوقت المناسب ليحقق المعجزة. إن سكان أنشوريا لا يشعرون بالحاجة إلى الأحذية، فليَخلق لهم سوبرمان هذه الحاجة إذن. هكذا استورد كميات هائلة من الشوك السام ورماها في دروبهم مما اضطر الهمجي إلى شراء الحذاء الأميركي مُرفَقا بشهادة «متحضر».

□ □ □

لهذا الشوك النسام المُهدى دائماً مع أرق عواطف الحنان والشفقة والحميّة الرسالية[٢١] لغة سحرية تُمني القارىء والسامع باليوم الذي تَعْمُرُ فيه مجاهلُ كلِّ كنعانٍ مشتهاةٍ بما عمرت به مستعمرة بليموث وجيمستاون من سيدات شقراوات تزين رؤوسهن قبعات كبيرة معروشة بالزهر، وأن لا يبقى في شوارعها وحقولها سوى بشر كاللؤلؤ المكنون يتلذذون صباحاً بالبايكون[٢٢] ولا يحلمون إلا بحشيش يوحنا البطمي.

فنيّاً، لا بد لهذا المشهد القيامي من ديكور مسرحي تُعرض فيه عينات أثرية من «السكان الأصليين natives» ، لعل واحدة من فتياتهم البدائيات نصف العاريات تُغرم بالجنتلمان الأبيض الساحر وتفتح له، مما تفتح، أسرارَ «قبيلتها» ومخابىء كنوزهم وأسلحة أبطالهم، كما سحر الكابتن جون سميث John Smith مؤسس مستعمرة جيمستاون الفتاةَ الهندية بوكاهنتاس Pocahontas، وكما يَسحَر جيمس بوند بنات وزوجات الأشرار المجرمين، ويسحر رُسُلُ الحضارة اليوم حرائر أرض الرشيد.

> إن القرون الثلاثة الماضية التي انتشر فيها الأنكلوسكسون في مجاهل العالم لم تكن أبهى ملامح الإنسانية وحسب، بل كانت أيضاً أعظم أحداث التاريخ وأشدها أهمية وأبلغها تأثيراً،

كما يقول الرئيس روزفلت. وفي كتابه عن أفريقيا الكثير من هذه الأضغاث[٢٣]. لقد كتبه كما يقول عنوانُه البليغ بلسان «صياد أميركي». وقدّم له بمقدمة ذات دلالة عن غرامه بالتاريخ الطبيعي.

من هذا المنطلق الطبيعي، لم يترك روزفلت شعباً على وجه الأرض لم يرشحه لمتحف التاريخ الطبيعي. فالأفريقيون دون استثناء «عراة همج لهم أشكال القرود، يسكنون في الغابات ويفترسون وحوشاً ليست أكثر منهم وحشية، أو أحط منهم خلقة. وإن كل القارة مسكونة بأحط أنواع البربرية[٢٤].

وهذا أيضاً ما كتبه كذلك عن الصينيين وعن سكان أميركا اللاتينية، وباللغة والصفات التي وُصفت بها الجزائر على لسان سلفه جيمس ماديسون James Madison في خطبة حربه على هذا البلد العربي المسلم. (٢٣ شباط/فبراير ١٨١٥).

□ □ □

منذ أن نشر داروين «أصل الأنواع» انكبت العلوم الطبيعية والإنسانية في العالم الأنكلوسكسوني على إثبات أن «البقاء للأصلح» يعني أن «البقاء للزنابير»، وأن «الانتخاب الطبيعي» يعني «الاختيار الإلهي» لهم، وأن هذا كله من فضل الله الذي «اختار» الأنكلوسكسون، وبارك حروبهم الخيرية، ومن آيات «القدر المتجلي

Manifest Destiny» الذي يقود زحفهم من غرب إلى غرب، فإلى حيث يلج الليل في النهار.

بهذه الداروينية اكتشفت «فكرة أميركا» لأهدافها الثلاثة وثوابت تاريخها الخمسة لغة ومبررات علمية حديثة سرعان ما استُثمرت إضافياً في التنظير للتفوق العرقي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والثقافي... إلخ، وفي التبرير لدورها الرسالي وحروبها الخيرية. بهذا التنظير أعطت لنفسها دور القهرمان على الأنظمة السياسية المختلفة والأنظمة الاقتصادية المشاكسة لثروة الأمم، وبررت به «تهميج» ما تريد تهميجه من أخلاق وثقافات الشعوب.

لقد بنى تشارلز داروين للزنابير برجاً إضافياً يُطلّون من عليائه على الأنواع السفلى من البشر، ينتقون منهم ما يحلو لهم ليمدنوهم، أو يمهلون منهم ما يحلو لهم إمهاله. ولكلٍّ أجلٌ ونصيب من الخير.

من هذا البرج التطوري، صارت الشعوب الهمجية في العالم السفلي «مستحاثات حية» للدراسة رأت فيها كل العلوم نافذة مهمة على التاريخ الغابر للمتحضرين الأنكلوسكسون. فالتطور البشري يدل على أن المجتمعات تدرجت من الهمجية إلى البربرية فإلى عرش الحضارة الأعلى الذي يستوي عليه الزنابير. أما

> هؤلاء الهمج [الذين يمدنونهم] فيمثلون الحلقة المفقودة في سلسلة التطور البشري الذي يمتد عميقاً في الزمن، ولعلهم هم الأمل في الكشف عن الكيفية العجيبة التي تطور فيها الجنتلمان الإنكليزي من القرد»[٢٥].

لكن هناك من ساقه بحثه «العلمي» إلى التأكيد على أن التطور الطبيعي لم يشمل كل من يقال عنهم إنهم بشر، وأن

> بعض الشعوب مثل الصينيين واليابانيين والمصريين يلهثون في مؤخرة هذا التطور، وأن بعضها لا يستطيع أن يقلد المتحضرين ويتعلم منهم إلا بالقدر الذي تستطيعه البهائم[٢٦].

أي كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دمهم؟... كيف يمكن بطرفة عين انتشالهم

> ورفعهم إلى المستوى الرفيع... الذي تطلَّب منا ألف سنة وجعلنا ما نحن عليه الآن نحن الأنكلوسكسون[٢٧].

هؤلاء الهمج المتُخَلفون طبيعياً عن ركب التطور هم الذين أوفدتهم أريحية الزنابير ليتعلموا دروس الحضارة في العالم الآخر.

من فوائد مذهب التطور أنه شجع على صقل الجوهرة الأنكلوسكسونية بيولوجياً قبل أن يفكر النازيون بصقل جوهرتهم العرقية بخمسين سنة. فداروين الذي قضى على الضعيف بالانقراض الطبيعي، حذّر من الاهتمام الصحي بالضعفاء وأثار المخاوف من العناية الفائقة بهم، لأن ذلك سيزيد من ضعفاء المجتمع المتحضر. بذلك صار القضاء الحتمي على الضعيف ينطبق أيضاً على كل مستضعف.

> إن كل الذين عملوا على تهجين الحيوانات الأليفة يعرفون أن هذا [الاهتمام الصحي بالضعفاء] يضرّ بالنوع الإنساني[٢٨].

وفعلاً فقد استثمرت تجارب «التهجين» طبيعياً وسياسياً لدعم «الانتخاب الطبيعي» للأنكلوسكسون وتحسين شروطه. وكان فرانسيس غالتون Francis Galton (قريب داروين لأمه) أول المشتغلين في هندسة الذكاء العنصري في تاريخنا البشري. ولأنه كان يرى أن بإمكان «التهجين» أن يتحكم بالذكاء، فقد نذر حياته لهذا العلم الذي سيَنعمُ «العرق» الأنكلوسكسوني بخيره العميم[٢٩].

ولم يتخلف زنابير العالم الجديد عن أهلهم في الجزيرة الأم، إذ سرعان ما أفادت «فكرة أميركا» من علم الخلايا الوراثية وتحسين النسل، وشاع التصنيف والتوصيف لكل من ليس زنبوراً في أرض كنعان. لم يعد الأدب العنصري يحفل بأولئك الملونين السود أو الهنود في درك السلم البيولوجي فقد فرغ الأمر منهم، وقنطت عبقرية التمدين والتهجين والهندسة الحيوية من ملكاتهم العقلية، ففي النهاية لن يصلح العطار ما أفسد اللون. إن صقلَ الجوهرة الأنكلوسكسونية يقتضي كذلك حمايتها من كدر المهاجرين البيض وغير البيض. لهذا، لم يكد يغلق القرن أبوابه حتى أسس الزنابير عشرات المنظمات «العلمية» التي نذرت نفسها للحفاظ على بريق الجوهرة وحمايتها من الكدر. كل هذه المنظمات والروابط استثمرت علم الوراثة وتحسين النسل في

شنشنتها البلاغية وفي مرافعاتها أمام الكونغرس عن خطر المهاجرين غير الأنكلوسكسون.

أثناء مناقشة قانون «تحديد الهجرة» في الكونغرس، سأل نائبٌ زميلَه:

جيمس مكلافرتي James H. MacLafferty (جمهوري عن كاليفورنيا): هل يفكرالزميل المحترم في أن يكون الهدف الأساسي من هذا القانون هو التمييز العنصري بين بعض الناس؟

جيمس أوكونور: James O'Connor (ديموقراطي من لويزيانا): أظن أن اللجنة [التي تناقش القانون] ومقترحي هذا القانون يعتقدون أن من الضروري التمييز العنصري بين الناس للحفاظ على مثاليات هذا البلد وأهدافه العليا.

مكلافرتي: هذا كلام طيب. هل ستميز عنصرياً ضد الأعراق الآسيوية؟

أوكونور: أعتقد أن هذا تقليد متجذر في أميركا.

مكلافرتي: تقصد التمييز العنصري؟

أوكونور: نعم.

مكلافرتي: وهل هو ضروري؟

أوكونور: قد يكون ضرورياً.

مكلافرتي: وهل للتمييز العنصري مبرر؟

أوكونور: أحياناً.

مكلافرتي: أحسنت قولاً(٣٠).

□ □ □

منذ أن أنقذت «ثروة الأمم» «فكرة أميركا» من الانتحار وقدمت لطرفي الحرب الأهلية كليهما تسوية رابحة وإخراجاً نافعاً لمسألة العبودية لا يتنكر لطبيعتها الخيرية، صار «المهاجرون الفقراء، بعد الله، أكبر مصدر للثروة الوطنية»[٣١] الأميركية، فقد التحق معظمهم، وبدرجات متفاوتة، بركب العبيد «المحررين» في المزارع والمصانع، وتقاسموا معهم الخبز و«الدونية» وصناعة الازدهار، كما يروي ساكستون صاحب الشاهد السابق في رواية طريفة له بعنوان «بيت عنكبوت متألق في الظلام ***Bright Web in the Darkness***».

أكثر من ٢٦ مليون مهاجر جديد من كل بلاد البياض وصلوا إلى أرض كنعان الجديدة فلم يشفع لهم البياض، ولم يجدوا لهم أهلاً أرحب من أهلها الكنعانيين الحمر أو«المحررين» من عبيدها السود الذين أغدقت عليهم «فكرة أميركا» جميعاً نعمة «الهضم» وجيشت كثيراً منهم في حروبها الخيرية، ولم تنس التنبيه إلى خطرهم على نقاء الدم الأنكلوسكسوني[٣٢].

يومها لم يبق من مهمات «فكرة أميركا» في أرض كنعان الإنكليزية إلا استعباد من استعصى من هؤلاء الكنعانيين بالغلط على الموت، واستنقاذ تلك المعازل وكنوزها من همجيتهم. ويومها أيضاً، تساءل تيرنر فيلسوف الثغور عن الصورة المزرية التي ستؤول إليها «إسرائيل الله الجديدة God's New Israel» إذا لم يُطهَّروا، هم وهؤلاء المهاجرون الجدد، خَلقاً وخُلقاً، ويُلقى بهم في مصاهر الحضارة. ثم بكى على ما آلت إليه «بلاد الحرية من ضياع the free lands are gone». حيث لم يعد غريباً أن يلتقي الجنتلمان في طريقه بهمجي يزين جسده العاري ووجهه بالأصبغة، كما يكرر ذلك في معظم كتبه.

كذلك وصف هنري جيمس الروائي الأرستقراطي في «المشهد الأميركي *The American Scene*» ما يصيبه من قرف كلما تعثر بوجوه الإيطاليين في طرقات بوسطن (مسقط رأسه)، أو غيرهم من هذا التلوث في شوارع إليس آيلاند Ellis Island (نيويورك) التي تضم اليوم متحفاً لهؤلاء المهاجرين (تقول دعايته التي تستقبلك على الباب إن هذا الثغر البحري استقبل ١٢ مليون مهاجر بين ١٨٩٢ و١٩٥٤)، ذلك لأن هذه المخلوقات الزاحفة من تحت جعلت «الزنابير» «يشعرون

كما لو أن بيتهم (!) الآمن قد عجّ بالأشباح»[٣٣].

> هذه زبالة الأرض وصلت إلى وينشستر، وحين ستبدأ المذبحة لا بد أن يكون لي نصيب من رقابهم. ولربما أنني لن أكتفي بمجرد الذبح[٣٤].

ولتدارك هذا الخطر المهدِّد للنقاء العرقي أرسل الزنابير إلى جزيرتهم البريطانية الأم ٣٦٠٠ وكيل هجرة لاستنهاض الهمم. كانوا ينظمون المحاضرات، ويقيمون المعارض، ويَرشون رؤساء تحرير الصحف ببطاقات سفر مجانية على متن أفخر السفن، ويجولون من مدينة مقدسة إلى أخرى لتشجيع البريطانيين على الهجرة وإنقاذ عترتهم الأميركية من تلوث الدم الطاهر بزبالة الأرض الزاحفة يومها من الصين[٣٥].

كان تدفق الصينيين على ولايات الشاطىء الغربي كابوساً أين منه اليوم كابوس المهاجرين من أميركا اللاتينية. فمن ولاية واشنطن وأورغن شمالاً إلى حدود كاليفورنيا مع المكسيك جنوباً، ومن الأعماق القارية لهذه الولايات في أيداهو ونيفادا وأريزونا، كان الزنابير يصرخون بصوت واحد «نريد أسواق الصين ولا نريد فائض سكانها»[٣٦]. مرة يصفون هؤلاء المهاجرين الذين ينافسونهم بمهارتهم وتواضعهم وأجورهم الرخيصة بأنهم

> أحط جنس بربري، جاءوا لينافسوا أبناء العرق الأُكثر ذكاء والأرفع ذوقاً... ويقدموا للرأسمالية نوعاً جديداً من العبيد[٣٧] [ومرة يصفونهم بأنهم] وحوش ذوو أذناب طويلة[٣٨].

حتى لجنة الكونغرس التي حققت في «خطر» التدفق الصيني ثبت لديها أن «أدمغة الصينيين معطوبة»[٣٩].

على مدى أكثر من عقدين، خاض الحزبان الرئيسان انتخاباتهما في تلك المناطق بشعارات تتنافس في صياغة هذه الديباجة الخالدة: «ما أكره الصينيين وما أشهى أسواقهم». بل إن «حزب العمال»، وهو أول حزب ماركسي في الولايات المتحدة، حصد ما يعادل ثلث الأصوات في انتخابات ١٨٧١ بسبب الشعار الذي ناضل من

أجله لأكثر من عشر سنوات: «يجب على الصينيين أن يرحلوا The Chinese must go». وهو شعار لم يختلف عما نادى به الحزبان الرئيسان إلا فى أنه لم يتضمن هذه الإضافة: «أو يذوبوا» .

أما كيف يذوبون، ومن حُق عليه أن يذوب فقد أجابت *The Atlantic Monthly* عن ذلك بمقالة ساخرة عنوانها «أن تكون متحضراً أكثر من اللازم» جاء فيها:

> خذ هذا المهاجر الهمجي بيدك. قصّ شعره. ضع ساقيه في بنطلون. أدخله المدرسة [الأميركية] العامة. أعطه جريدة يومية وانظر كيف سيتطور عقله، وتتغير مشاعره. ولكن حذار من أن تُمدنه أكثر من اللازم، فذلك سيشل عقله...[٤٠].

□ □ □

ظل هذا الغرام بمسخ «الآخر» أو «هضمه» و«عبادة الذات» يعيد ويبدي على مدار السنين، منذ حملات «تمدين» جيرانهم الإيرلنديين البيض في القرن الثاني عشر، وفي كل حروبهم مع الإسبان والفرنسيين ومع الألمان وغيرهم من سكان القارة الأوروبية، كما شمل السود والحمر والصفر والسمر في كل قارات الأرض بلا استثناء، وكان من بعضِ بعضِ ثماره تطهير قارتين كاملتين من قارات الأرض الخمس هما أستراليا وأميركا الشمالية[٤١] من سكانهما. ولولا أن «حرب الأفيون» انتكست، برغم كل أبعادها الخيرية، لكان من المنتظر أن تكون «صينلاند» اليوم مثل «آيسلاند» و«غرينلاند» جزءاً من خراج «الزنابير»، ولكان على أهلها الصينيين أن ينبت في رؤوسهم الريش ويتعروا ويعووا في البراري على أعقاب إخوانهم الأباشي.

يومها، أيضاً، وُصِف نضال الصينيين ضد أفيون الإنكليز بالوحشية والبربرية ووُصم أبطال هذا النضال وعلى رأسهم لين تسو هسو Lin Tse-hsü بكل ما وصم به الأشرار أعداء الحضارة والحرية.. إلخ[٤٢].

□ □ □

على مدى أطول تاريخ عرفته الذاكرة الإنسانية من «الحروب الخيرية» السخية التي عمت أربع جهات الأرض، ظل هذا الغرام بمَسخ «الآخر» و«عبادة الذات» يستمد

أخلاقه ولغة خطابه من «عقيدة الاختيار» والتفوق العرقي والثقافي.

لغة ودعاوى ملائكية تسلخ جلدها مع كل تطور جديد، كالثورة الصناعية، ومع كل نظرية علمية جديدة، كنظرية التطور، لكن حوافز هذه «الحروب الخيرية» ورسالتها الحضارية ظلت من كنعان المجاز في العالم الجديد إلى كنعان الحقيقة في أرض فلسطين واحدة لا تحول ولا تزول: إنعاش الأسطورة: إنعاش أسطورة «لعنة كنعان» التي نسجها بدو رعاع متسيبون حاقدون على كل حضارات عصرهم؛ نسجوها من هاجس نهب هذه الحضارات بأهلها وأرضها وسمائها، وأورثوا الزنابير (الذين يرضعون هذه الأسطورة قبل حليب أمهاتهم) عنجهية «الجلاد المقدس» وأبلغ آداب «مسخ الآخر» و«عبادة الذات» و«تقديس الجريمة».

«الحضارة» في سياق هذه الخطب الحربية ـ وما أكثر تردادها واستهلاكها وابتذالها وتكني أدمى الوحوش بها ـ لم تستعر معناها من الأسطورة المؤسسة وحسب بل إنها نسجت منها كذلك نظامها القيمي والأخلاقي. وربما لهذا لم يجد صاحب «ثروة الأمم» تناقضاً بين أن يكون أستاذاً لفلسفة الأخلاق واللاهوت، باحثاً في «نظرية العواطف الأخلاقية *The Theory of Moral Sentiments*»[٤٣] وبين أن يكون المؤسس النظري لما يعرف بالرأسمالية المتوحشة. فصانعو الأسطورة الذين لم يكونوا يؤمنون بيوم آخر ـ لا بحساب ولا ثواب ولا عقاب ـ استعاضوا عن نعيم الجنة بنعيم «نهب جنة الآخر» والتمتع بإبادة من فيها أو استعباده، وذاقوا عذاب الجحيم كلما عجزوا عن إنزال هذا العذاب بالآخر، ثم لفّقوا لذلك نظاماً أخلاقياً يمجد نهب جنة الآخر (الذي هو دائماً كنعاني مستباح) ويرفعه إلى مرتبة العبادة ــ عبادةٍ تجذر فيها ذلك العويل الشكّاء الندّاب اللوام العضال الذي لازم حياة «الجلاد المقدس» كلما أدركته البطالة.

لكن أعظم فضائل هذا الزواج بين الأسطورة المؤسسة وبين «ثروة الأمم» أنه أدخل الناس في دين الأسطورة أفواجاً من عرب وعجم ومن كل فج عميق، وغسل بنور الإيمان قلوب كثير من أعدائها وضحاياها وجنّدهم لها: من شاء منهم أن يعبد رب الأسطورة فليعبد رب الأسطورة، ومن شاء أن يعبد عجل الذهب فليعبد عجل الذهب. فللربين كليهما عرشان متناظران في بانتيون «فكرة أميركا».

□ □ □

في هذه النزعة الذئبية لمفهوم الحضارة، اختفت قيم الفقراء والمستضعفين والرومانسيين السذج؛ قيم «الصدق» و«الكذب» و«الحق» و«الباطل» و«الشرف» و«الأمانة» واستعيض عنها بقيم من عجين التراب كالملْكية، وتوزيع الثروة، وطرق الإنتاج، ونماذج الاستهلاك. ولطالما كانت قيم «الاكتناز» و«تكديس المال» و«التملك» بمعناه البطِر الأناني من أهم المعايير التي حكم الزنابير من خلالها على نظام «الملكية الجماعية للأرض» لدى الهنود بالوحشية، ولاسيما أنه حال دون السيطرة السهلة على أراضي الهنود، سواء كان ذلك بالرشوة أم بالبيع الاختلاسي. إن فكرة «الاكتناز» و«التكديس» والتملك الفردي الأناني كما يصفها عالم الإنسانيات لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan

«هي عاطفة تسمو على كل العواطف، وهي المهد الذي ولدت فيه الحضارة الإنسانية... بل إن تطور فكرة التملك يجسد أهم تطور طبيعي في تاريخ العقل»![٤٤].

معظم دراسات «ثروة الأمم» لنشوء الحضارة الإنسانية وتطورها وضعت «المنفعة» في أعلى سلّم القيم وصنّفت حياة الشعوب وفقاً لمنزلتها من سلم التطور الاقتصادي أو حتى الآلي: (مرحلة الإنتاج الصناعي فوق مرحلة الصيد والجمع، والرأسمالي فوق «الشيوعية» أو ملكية القبيلة... إلخ). وما أكثر ما تحولت هذه القيم المستمدة من خارج فلسفة الأخلاق إلى ذرائع أخلاقية لإلقاء الحجارة من أعلى هذا السلم على رأس مَن في أسفله، ومعاذير لتبرير استخدام القوة لتمدين و«رفع مستوى» من تقتضي مصلحة «الحضارة» تمدينه ورفع مستواه.

هذا «التمدين» الذي صار شعاره منذ الاحتلال الأميركي للفيليبيين: «مدّنوهم ببندقية civilize them with a crag»[٤٥] يشمل ـ كما تدل على ذلك كل خطب الحروب ـ مروحة واسعة من أعمال البر والإحسان تبدأ بالإبادة الجسدية الكاملة ولا تنتهي عند الإبادة الثقافية الشاملة التي سمّاها الرئيس الأميركي وليم مكنلي بالهضم الخيري benevolent assimilation. ودعا إلى استخدام كل ما يلزم لتحقيقها. لقد برر الزنابير لأنفسهم حق «تمدين» من يشاءون، بأي سبب يشاءون، وحيثما يشاءون، وكيفما يشاءون، بالبندقية أو بالديموقراطية.

والدرس في النهاية بليغ ومكتوب بلغة إنكليزية ملكية: «تغيّروا أو زولوا change or begone».

- II -

ما أن حُشر كنعانيو العالم الجديد في معازلهم مُخدّرين بسيادة وهمية(٤٦) ومعاهدات أرخص من ورقها حتى أعلن رجل الكونغرس سيدني كلارك Sidney Clarke

«أن حال هؤلاء الهنود لا يختلف عن حال امرأة تم تخديرها لاغتصابها»(٤٧).

«الولايات المتحدة [يقول السناتور توماس هنريكس Thomas Hendricks]، شاءت المعاهدات أم أبت، مضطرة إلى أن تزيح هؤلاء الهنود من طريق تقدمها»(٤٨).

كان جنرالات «ثروة الأمم» يشبّهون هذه االمعازل المتناثرة في رحب كنعان التاريخية والمطوقة بالزنابير من أرضها وسمائها والتي لا تزيد مساحتها مجتمعة على ٣ بالمئة من وطن الهنود التاريخي مرة بجدار الصين، ومرة بحزام النار الذي يقف في وجه الازدهار. وكانوا يعدون عدة «التمدين»، ويتطلعون إلى نبش كنوز هذه المعازل وإشراع أهلها للرياح الأربع.

لقد ووجه سيدني كلارك بعاصفة من التصفيق حين دعا إلى ترحيل كل من في [ولايته] كانساس من هنود [لتتمكن شركات سكك الحديد من اختراقها] والسماح لممثلي هذه الشركات بطردهم ومطاردة فلولهم(٤٩).

لكن حزام النار الأخطر على ازدهار «ثروة الأمم» كان يتجسد فعلياً باستعصاء الهنود على «التمدين»؛ تمدين هؤلاء الربع مليون الذين نجوا من أصل ما يزيد على ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة عند وصول كولومبس إلى العالم الجديد. وكان جدار الصين الذي ينهض في وجه جنرالات «ثروة الأمم» هو عملياً «همجية» هؤلاء الهنود المتمثلة في ثقافتهم، وفي نظامهم الاجتماعي الذي لا يعترف بملكية فردية، وفي فلسفتهم الأخلاقية التي تحتقر «النهم» و«الجشع». كل ذلك فرض على فلسفة «تمدين» الهنود أن تضم خصالاً مثل

«الأنانية» و«النهم» و«الجشع» إلى معجم الفضائل وأن تزرعها سدى في نفوسهم.

□ □ □

عندما أخفقت جهود الجنرالات، استعانت الدولة بالمبشرين وسخَت عليهم. لقد طلبت إليهم في عام ١٨٠٢ أن يكتفوا لاهوتهم بما يرضي الله و«ثروة الأمم». سألتهم أن يذهبوا إلى الهنود وأن يزرعوا في نفوسهم حب الشهوات والتملك والاكتناز والاستهلاك السفيه: «اشتروا أو موتوا buy or die». من ذلك مثلاً أن يبشروهم بأعجب خلاص عرفته أديان البشر كأن يقنعوهم بأن التخلي عن منسوجاتهم الوطنية وارتداء البنطلون ذي الجيوب وغيره من الملابس المصنوعة آلياً [في مصانع ثروة الأمم] يساعد على إنقاذ أرواحهم![٥٠].

والجيوب ـ كأحذية O Henry في أنشوريا ـ قصة ليست جديدة على حروب الخير وحملات التمدين، فلطالما تكررت مثل هذه الملاحظات عن الجيوب وغيرها من مستلزمات «ثروة الأمم» في حملات تمدين معظم همج العالم، وشُحذت لكسر أنظمتهم الاجتماعية أو الثقافية.

«الصينيون [مثلاً] «خلت ملابسهم من الجيوب!»[٥١] أيضاً، وأُسقطت عليهم بسبب هذه الجيوب التي لم ترها عيون معلمي الحضارة كل عاهات المتخلفين التي تحرمهم من استهلاك السلع الأميركية.

في كتابه عن «الخصال الصينية» أفاض آرثر سميث Arthur Smith (صاحب الملاحظة السابقة عن الجيوب، وكان يتولى رئاسة بعثة تمدينية في الصين).. أفاض في شرح ما يعود به التبشير من خير على «ثروة الأمم» وذلك من خلال التشنيع على نظام التكافل الاجتماعي الذي يعتبر من صفات الهمجية وزرع عادات حضارية في نفوس الهمج تسمح باستهلاك المنتجات الحضارية:

«قبول الصينيين للمسيحية سينسف كل علاقات الملكية البدائية بينهم من الجذور كما سيقضي على نظام التكافل العائلي. وستكون هذه أول درجة يرقاها الصينيون على سلم الحضارة. إنها خطوة تطور هائلة إذ ليس هناك من

معوق لتقدم الحضارة بين الصينيين أخبث من نظامهم العائلي الكبير الذي يتعاون فيه أفراد العائلة ويتكافلون ويعتمد الواحد منهم على الآخر في إطار الملكية العامة»[٥٢].

بعد نحو قرن من الجهود التبشيرية التي تألفت لها مئات من جمعيات «أصدقاء الهنود» و«الحوار مع الهنود» و«التفاهم مع الهنود» ظلت فضائل المدنية تراوح مكانها، لم تغر الكثيرين منهم، فألقى المبشر ميريل غايتس Merill Gates خطبة أمام مؤتمر «جمعية أصدقاء الهنود» التي يرأسها قال فيها

«لا تزال هناك حاجة ماسة لإيقاظ الشهوات والملذات والاحتياجات في هذا الهندي الهمجي. لإنقاذ الهندي من همجيته يجب أن نجعله أنانياً ذكي الأنانية، وليس [كما هو الحال الآن] ذكياً أناني الذكاء. علينا أن نوقظ فيه الجشع، والنهم إلى الأشياء. إنه في همجيته المقيتة يحتاج إلى لمسة مباركة من أجنحة ملائكة السخط؛ السخط على مسكنه، والسخط على طعامه...، والسخط على نمط حياته المتقشفة... يجب أن ننقذه مما يلتحف به ليلبس البنطلون.. بنطلون مع جيوب.. جيوب يضع فيها الدولارات ليشتري بها ما تنتجه المصانع الأميركية ويتمدن... كل هذا يحتاج إلى تربية أخلاقية صارمة، تحببه بالتملك وتؤهله للحضارة»[٥٣].

ومع إخفاق التمدين العلماني والتمدين الديني في كسر النظام الاجتماعي الهندي، كان لا بد من التمدين بالبنادق. هكذا سن الكونغرس في عام ١٨٨٧ ما يعرف بقانون توزيع الأراضي General Allotment Act (أراضي الهنود طبعاً)، وهو كما نصت حيثياته أول خطوة نحو «الحضارة ونحو الخروج من ولاء القبيلة إلى الولاء للدولة الأميركية». وكان من ثمار هذه الخطوة نحو الحضارة أن سلب المتحضرون من أراضي الهمج الهنود ما يقرب من ١٠٠ مليون فدان في أقل من خمسين عاماً بعد صدور القانون[٥٤].

□ □ □

كان هناك اعتقاد بأن الهندي سيتبخر طبيعياً عندما «يتمدن»، ولهذا صار تمدينه من

أسمى متطلبات التبخّر. سيتمدن؛ عندما تنسج سككُ الحديد عنكبوتها في أرضه وتقصفه بالحضارة من كل صوب. لكن الأمل وحده لا يكفي ولا يعول عليه، كما رأى بعض رجال الكونغرس، إذ

«لا بد من مساعدة الحضارة على إبادة الهنود كما أمر الله يشوع حين دخل أرض كنعان بأن يبيد الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم، ثم إنه عوقب على تقاعسه عن الانصياع لأمر الله... إن على الهنود أن يفسحوا المجال لعنصر من البشر أصلب عوداً وأرجح عقلاً heavier physically and heavier mentally. لا بد من تدمير كل منجزات الإنسان المتوحش ليتقدم العنصر الأقوى بمنجزاته»(٥٥).

ومن يومها لم يوافق الكونغرس على أية معاهدة لا تتضمن بنداً يسمح لعنكبوت الحضارة ببناء بيته ونصب مصيدته على عنق القمقم، وهذا ما وضع نظام «الاكتفاء الذاتي» لدى الهنود على فوهة المسدس. لقد تلازم تصدير جنرالات الحرب الأهلية إلى إدارة الشركات مع انتصار «الاتحاد» ومع ارتهان مفهوم الحضارة للآلات العجيبة التي «تدهش الهمجي» دائماً، مما أعطى التفوق التكنولوجي (والتفوق في تكنولوجيا السلاح بشكل خاص) معنى التفوق الحضاري(٥٦)، ومعنى الخير أيضاً.

كان الهنود يعرفون أن اختراق «سكك الحديد» لما تبقى من وطنهم التاريخي سيملأ أرضهم بالزنابير الذين سيخترعون آلاف الأعذار لطردهم منها بإحسان أو تمدينهم في العالم الآخر. بل إن كثيراً من «العقلاء» الهنود والمتمحصين منهم في موازين القوى، هؤلاء الذين لمستهم «أجنحة ملائكة السخط» وحولتهم إلى طواويس دعاة اعتدال وسلام وواقعية، بدأوا يتحدثون عن خيرات مشاريع «ثروة الأمم» داخل أراضي الهنود، ويحذرون أهلهم من «الانتحار»:

«لا جدوى من المعارضة الغبية. إن سكك الحديد ستعبر بلادنا وتحسّن وضع أراضينا، ومَن منكم لا يحب سكك الحديد فليرحل بعيداً قدر مستطاعه»(٥٧).

وهذا أيضاً ما ردده جنرالات «ثروة االأمم» والمسؤولون الحكوميون أثناء المفاوضات،

فكل الخطب والحجج التي ترددت مثلاً في مفاوضات «فورت سميث Fort Smith» (١٨٦٤) على مدى ١٢ يوماً كانت تؤكد على الطابع الخيري لعبور سكك الحديد أراضي الهنود، لأن «الهدف من بناء هذه السكك هو الحفاظ على حقوق الهنود وأملاكهم، إذ لن يُسمح لأي إنسان أبيض بالسكن في أراضيهم غير العاملين في الشركة وعمال الصيانة والتطوير وبعض من ستعطيهم الحكومة الأميركية أذونات خاصة». وكانت أولى بوادر الخير حجز الأموال المستحقة للهنود لقاء عبور هذه السكك في أراضيهم. و«لأن المتوحش لا يحسن استخدام المال بمسؤولية» فقد تم إيداع المال في صندوق خاص بواشنطن، ثم استثمر من قبل «مكتب الشؤون الهندية» [وكان اسمه يومها The Indian Office] على حماية سكة الحديد وعمالها من الهنود، وتم التبرع بالباقي للشركات[٥٨].

في عام ١٨٦٤، استثمر ما في الصندوق الوطني الشيروكي وصندوق أيتام الشيروكي في سندات الحكومة ثم تم التبرع بها لدعم شركة سكك حديد Eastern Union Pacific التي كانت يومها قد وسعت نشاطها وبدأت باحتطاب غابات هنود الدولاوير في كنساس، وشاركت في طردهم ومطاردتهم، هم وهنود الشيروكي، إلى الجنوب. أما سندات الحكومة التابعة لأيتام هنود الكريك فتم التبرع بها لشركة Chesapeake and Ohio Canal Company[٥٩].

□ □ □

في تلك السنوات القليلة التي سبقت الحرب الأهلية أو تلتها، سلبت «ثروة الأمم» من الهنود معظم ما استعصى على «فكرة أميركا» سلبه من أرض و«سيادة» وحرية وأنفاس معدودة. فقبل أن تجف دماء الحرب كان جنرالاتها الذين حولوا السيادة والحكم الذاتي إلى مزرعة لتربية الطواويس قد أوكلوا إطفاء «حزام النار» لمسؤولي السلطة الوطنية الهندية Bureau of Indian Affairs، بعد أن «دسّوا سيقانهم في بنطلون مع جيوب؛ جيوب يضعون فيها الدولارات ليشتروا بها». بذلك أفلح الطواويس في ما عجز عنه الجنرالات، وتولت «أجنحة ملائكة السخط» إنعاش الأسطورة التي تسكن عظام الزنابير. تلك كانت بداية ما يصطلح عليه في «تعريفات» الزنابير من سيدني إلى غرينلاند بالاستعمار غير المباشر (أو الداخلي):

طبقة تترجم ما نريده للملايين التي نحكمها، طبقة من الأشخاص، هنودِ الدم واللون، إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقلية»[٦٠].

... a class who may be interpreters between us and the millions we govern, a class of persons, Indian in blood and colour, BUT English in taste, in opinions, in morals, and in intellect.

كان لا بد من مساعدة الحضارة على تمدين «الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم»[٦١]؛ تمدينهم من الداخل، وعلى أيدي «طبقة من الأشخاص، هنود الدم واللون، إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقلية»، وفي إطار الثقافة الهندية حتى لا يقال إن «التمدين» يفرض عليهم من الخارج.

«حالة حصار» حضارية، وصفها السناتور لوط موريل Lot M. Morrill ببهجة وافتخار:

«أصبحت حضارتنا هي السيد، سيد هذا [الكنعاني] المتوحش، وسيد حكومته... إنه الآن بين حَجري الطاحون الأعلى والأسفل، ويجب أن يُسحق. صحيح أن الإنسانية لا تسمح، لكن مصلحة الحضارة تتطلب»[٦٢].

الهوامش

(١) Russell D. Buhite, *Calls to Arms*, (Scholarly Resource Inc, Wilmington, Delaware, 2003).

(٢) «القديسون» لقب فخري أطلقه الزنابير على المستعمرين الإنكليز الأوائل للعالم الجديد.

(٣) عنوان كتاب لتوماس مورتون Thomas Morton، نشره عام ١٦٣٧. و«كنعان» هو أحد الأسماء التوراتية التي أطلقها المستعمرون الإنكليز على أميركا.

(٤) Russell D. Buhite, *Calls to Arms*, p. xv.

(٥) من الاعتراضات الكثيرة على لغة هذا الرئيس أنه أدخل إلى قاموس اللغة الرسمية كلمات وعبارات سوقية مثل «goddamned bitch وmotherfucking traitors وbullshit وassholes» وكثيرا غيرها. انظر:

Doug Thompson, "Bush's Obscene Tirades Rattle White House Aides", *Capitol Hill Blue*, Aug. 25, 2005.

ولعل من أفضل الدراسات عن تطور لغة الخطابة لدى الرؤساء الأميركيين من عهد الآباء المؤسسين إلى أيام ريغان كتاب *The Rhetorical Presidency* لجفري توليس Jeffry K. Tulis (منشورات برنستون، ١٩٨٧) حيث لا يستطيع القارىء معه إلا أن ينحني إجلالاً لعبقرية نفاق اللغة الإنكليزية الرسمية.

(٦) معظم الطلاب الفقراء الحالمين بمستقبل أفضل في وطن لا يقل معدل القسط الجامعي فيه عن ٢٥ ألف دولار في السنة يصطادهم تجار الموت، فيغرونهم بتسديد تكاليف دراستهم لقاء استدعائهم إلى أول حرب خيرية. ولطالما قتل كثير من هؤلاء أو أعطبوا قبل أن يتخرجوا. لهذا لم أفاجأ مع بداية العام الدراسي الجديد أن أجد على لوحات الإعلانات في الجامعة (وكنت يومها في جامعة كونيكت)، بل على جدران أبهائها وأروقتها الطويلة أوراق نعي، أو أوراق احتجاج، أو ملصقات يقول أحدها على لسان طالب جندي يحمل بندقية ويقفز خائفاً في حقل ألغام، بعد أن يشتم وجوده في ساحة الحرب بأبشع الشتائم: «لم ألتحق [بالعسكرية] إلا من أجل الدراسة» .

"what the F... k am I doing here. I am only joined up for college money".

وما عرضه مايكل مور في فيلمه الوثائقي «فهرنهايت ١١/٩» عن صيد الأطفال الفقراء لتجنيدهم في حروب «ثروة االأمم» ليس إلا قطرة من بحر. فقد كشفت حركة MoveOn المعادية للحرب على موقعها MoveOn.org كيف أن البنتاغون ينتهك القوانين الأميركية لهذا الهدف، وكيف أوكل إلى شركات خاصة (يعلم الله من يملكها) مهمة التجسس على سجلات المدارس الثانوية وكشف المعلومات الخاصة جداً عن ٣٠ مليون مراهق (مثل رقم الضمان الاجتماعي، والانتماء العرقي، والحالة الاجتماعية/ الدخل، والسلوك في المدرسة، والمراسلات عبر البريد الإلكتروني.. إلخ) لدراستها وترشيح المناسب منها

للصيد. وهذا ما دعا عدداً من الأمهات إلى تشكيل جمعيات خاصة تنادي بحماية أطفالهن من تجار الموت، لعلها أهمها جمعية «Leave my Child Alone خَلّوا عن ولدي».

ويقول «التجمع الوطني للمحاربين القدامى [الذين يعيشون] في العراء» National Coalition for Homeless Veterans و«الفيلق الأميركي The American Legion» (لسان حال المحاربين القدامى) إن في كل ليلة ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف محارب قديم ينامون في عراء الشوارع والساحات بينهم ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف ليس لهم مكان ينامون فيه ويعيشون في العراء بشكل دائم. بعضهم لا يزال على هذا الوضع المأساوي منذ حرب فييتنام. انظر:

http://www.nchv.org/background.cfm

http://www.cay202detroit.org/content.php id = 99

(٧) «فكرة أميركا» هي الترجمة الإنكليزية لفكرة إسرائيل التاريخية، وهي تقوم على ثلاثة عناصر: (١) احتلال أرض الغير، و(٢) استبدال سكانها بسكان غرباء، أو استعباد من يعصى منهم على الموت، و(٣) استبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم. هذه الفكرة هي التي أرست الثوابت التاريخية الخمسة التي رافقت كل تاريخ أميركا: (١) المعنى الإسرائيلي لأميركا، و(٢) عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي، و(٣) الدور الخلاصي للعالم، و(٤) قدرية التوسع اللانهائي، و(٥) حق التضحية بالآخر.

(٨) WASPs هي الأحرف الانكليزية الأولى للـ White Anglo-Saxon Protestants البيض الأنكلو ـ سكسون البروتستانت، أو ما يعرف بالزنابير. والتعبير لا يقتضي مدحاً ولا ذماً.

(٩) «I use them for ass wipe...» عبارة لريتشارد وايتسل Ritchard Whitesell مدير مكتب الشؤون الهندية قالها للهنود الذين جاءوا يذكرونه بالمعاهدات. راجع القصة ومرجعها في «تلمود العم سام»، لمنير العكش، منشورات رياض الريس ٢٠٠٤ ، ص٦٢ ـ ٦٣.

(١٠) جاء وصف الصينيين بذلك على لسان أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي. راجع القصة كاملة في:

Gavan Daws, *Shoal of Time: A History of Hawaiian Islands* (Honolulu University of Hawaii Press, 1968), p. 290.

(١١) Mark Twain, *Following the Equator: A Journey Around the World* (New York, Dover 1989), p.186.

(١٢) Charles D. Warner, *Mummies and Moslems* (Hartford, Connecticut: American, 1876). 83.

(١٣) David Spurr, *The Rhetoric of Empire: Colonial Discourse in Journalism, Travel Writing, and Imperial Administration* (Post-Contemporary Interventions), (Durham, N. C.: Duke University Press, 1993), p.31.

وعبارة «جئنا لنحرركم لا لنستعمركم. ولا طمع لنا في أرضكم» التي سمعها من القواد الإنكليز أهل الصين والهند وأفريقيا، سمعناها أيضا من كل الأصدقاء، من «الصديق» الجنرال اللنبي في القدس (١٩١٧) و«الصديق» الجنرال F.S. Maude في العراق (١٩١٧) إلى «الصديقين» بلير وبوش.

(١٤) الرئيس تيودور روزفلت عَوْلَم جغرافية المجاهل التي كانت في مرحلة الزحف نحو الغرب قَصراً على بلاد الهنود فضمّ إليها معظم قارات العالم وقال إنها «كواكب من قبْل التاريخ» مستعيراً ذلك التعبير من معاصره جوزيف كونراد Joseph Conrad. راجع:

Archibald Roosevelt ed., *Theodore Roosevelt on Race, Riots, Reds, Crime* (West Sayville. New York, 1968), p. 119.

ولطالما سخر روزفلت من فكرة «أن تبقى قارات الأرض مرتعاً لقبائل مبعثرة ومتوحشة لا تكاد تختلف حياتها توحشاً وحقارة ولامعنى عن حياة الوحوش التي ترتع معها» .

Theodore Roosevelt, *The Winning of the West* (Licoln University of Nebraska Press, 1995), vol III, p. 44.

(١٥) جاء ذلك في فيلم وثائقي عن «الإعلام الأميركي والقضية الفلسطينية» أعده مخرجان أميركيان. الفيلم هو:

Peace, Propaganda and the Promised Land: U.S. Media and the Israeli-Palestinian Conflict (The Media Education Foundation).

(١٦) Owen Wister, *The Virginian* (New York: Viking Penguin, 1988), p. 69.

وفي أدب وستر Wister صانع أسطورة الكاوبوي البطولية، أعاجيب من عبقرية الأنكلوسكسون في مسخ الكائنات. إنه هو ونظيره Fenimore Cooper صنعا معظم أساطير الغرب الأميركي وبطولات ثغوره التي كانت تزحف فوق أرواح الهنود. وليس من المؤكد ما إذا كان وستر قد أفاد من عبقرية تيودور روزفلت في رواية *The Winning of the West* التي مجّد فيها الكاوبوي، لكنه بالتأكيد كان زميل صفه في هارفرد ويلتقي معه في كثير من التفاصيل.

(١٧) يحضر الله بين الحين والآخر إلى البيت الأبيض ليسلّي وحدته بالحديث مع هذا الرئيس الأميركي أو ذاك، وكثيراً ما يطلب إلى الرؤساء قبل أن يودّعهم هداية هذا الشعب الوثني أو تمدين ذلك الشعب الهمجي. وقصة حديث وليم مكنلي أو جورج بوش مع الله في البيت الأبيض ليست استثنائية، راجع:

William Drinnon, *Facing West...* (University of Oklahoma Press (Norman and London, 1997), p. 279.

ولمن يرغب في معرفة المزيد عن زوار هذا البيت الذين ينسلّون ليلاً إلى مخادع الرؤساء، أو عن الأطفال غير الشرعيين الذين «جُنيَ عليهم» فيه، أنصح بقراءة

Shelly Ross, *Fall from Grace: Sex, Scandal, and Corruption in American Politics from 1702 to the Present* (New York, Ballantine Books).

(١٨) Josiah Strong, *Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis* (New York: Baker and Taylor, 1866), pp. 14, 15.

أثناء التحضير لغزو كوريا أضفى بعض الجنرالات على هذا التناغم بين «القدر المتجلي» وبين «ثروة الأمم» بعداً أخلاقياً يقطر شفقة على الطبقات الدنيا من أقنان المزارع وعبيد المصانع الذين سيقطفون ثمار فتح

ما كان يعرف بمملكة هرميت Hermit Kingdom. من ذلك ما قاله الجنرال Robert Shufeldt: «إن ثلث إنتاجنا الصناعي والزراعي يفيض عن حاجتنا، وعلينا إما أن نمدّن مملكة هرميت ونصدّر هذا الفائض من الإنتاج إلى أسواقها، أو أننا سنضطر إلى ترحيل البشر الذين صنعوا هذا الفائض».

Chales Camble, Jr., *The Transformation of American Foreign Relations, 1865-1900* (New York, Harper And Row, 1976). p. 109.

(١٩) في كتاب له بعنوان *The Law of Civilization and Decay*، وقد كان لنظريته تأثير كبير، خاصة أنه كان حفيداً للرئيس الأميركي السادس شارلز كوينس آدامس.

(٢٠) Brook Adams, *America's Economic Supremacy* (New York, Macmillan, 1900), p. 72, 131, 133.

(٢١) وفي هذا يقول مارك توين: إن البيض لا يريدون إلا الخير عندما ينتشلون سمكاً بشرياً من المحيط ويحاولون تنشيفه وتدفئته وإسعاده وإراحته في قن الدجاج! *Following the Equator*, p. 276.

(٢٢) رقائق من لحم الخنزيرمقتطعة من مؤخرته وجنباته، تُملح وتجُفف، وتعتبر أشهى ما في مائدة الفطور الحضـاري. أنـظـر Studs Terkel في Anders Breidlid, Oyvind T. Gulliksen, Torbjorn Sirevag, *American Culture: An Anthology of Civilization Texts*, (Routledge, 1996), p. 123.

ومقالة «الطقس الحضاري لطعام الغداء المبكر يوم الأحد» في: Quentin Ranson, "Awaken to the Civilized Tradition of Sunday Brunch," *Vue Weekly*, (Week of April 27, 2006, Issue 549).

وهناك اقتراح في مجلة الصور العسكرية الأميركية MilitaryPhotos.Net من جندي أميركي في العراق بأن يكفِّن العرب المسلمون الإرهابيون بالبايكون (رقائق من لحم الخنزير).

http://www.militaryphotos.net/forums/showthread.php t = 14984&page = 6.

(٢٣) الشاهد من الصفحة الأولى، في المجلد الأول من *The Winning of the West* السابق ذكره. وكان روزفلت حيثما حل من هذه القارة الأفريقية التي أصر المستعمرون على وصفها بالسوداء يحلم باليوم الذي سيتمدن فيه هذا المكان ويسكنه الأنكلوسكسون. راجع:

Theodore Roosevelt, *African Game Trails: An Account of the African Wandering of an American Hunter-Naturalist* (New York: Scribner, 1910). p.2

(٢٤) المصدر السابق، ص X ، ٤٠٥.

(٢٥) George Stocking, Jr., *Victorian Anthropology* (New York: Free Press, 1987), p. 185.

(٢٦) John Fiske, "The Progress from Brute to Man", *North American Review*, Oct 1873, p. 255.

(٢٧) من خطبة للسناتور ألبرت بفردج Albert Beveredge، عن **تلمود العم سام**، للمؤلف ، ص ١٦٩، الحاشية رقم ٢.

(٢٨) Charles Darwin, *The Descent of Man and Selection in Relation to Sex*, (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1981), p. 168.

(٢٩) أفضل مرجعين عن حياة غالتون وأعماله في هندسة الذكاء العنصري وفي نَذر حياته لصقل الجوهرة الأنكلوسكسونية:

(A) D. W. Forrest, Francis Galton: *the Life and Work of a Victorian Genius* (London, 1974).

(B) F. Galton, *Memories of my Life* (London, 1908).

(٣٠) *Congressional Record,* (68th Cong., 1st sess., vol. 65, pt6. 1924) p. 5648.

(٣١) Alexander Saxton, *The Indispensable Enemy: Labor and the Anti-Chinese Movement in California* (Berkeley: University of California Press, 1995), p. 247.

(٣٢) أعجب ما في هذه الحملة العربية / الإسلامية على أفكار «النقاء العرقي» أو «الهضم» لدى صاموئيل هنتنغتون Samuel Huntington أنها أعطت «فكرة أميركا» نفسها هامشاً من البراءة، بل حوّلت الأنظار عن أهدافها حين اقتلعت أفكار هنتنغتون من سياقها واقتطعتها من جذورها. فهذه الأفكار العنصرية المستمدة أصلاً من «عقيدة الاختيار» ليست من اختراع هذا الكاتب ولا يتفرد وحده اليوم برفع رايتها أو الدعوة إليها. هذه الفكرة أبحرت إلى أرض كنعان الأميركية في سفن الغزو الأولى، ورافقت مسيرة الأمبراطورية من جيمستاون إلى مانيلا، ومن مانيلا إلى فييتنام فإلى عاصمة الرشيد. وما أكثر السجلات الموثقة لها في كل محطة من محطات زحفها القدري حول كوكب الأرض منذ «العهد» الأول الذي قطعه «الحجاج» مع الله سنة ١٦٢٠ على متن سفينة ماي فلور حتى اليوم. هذه الفكرة محور مركزي في كتابات المستعمرين الأوائل مثلما هي اليوم محور مركزي في أدبيات الميليشيات العرقية وأبواق النزعة الإمبراطورية. هناك الكثير ممن لا يزالون في العالم الزنبوري من سيدني إلى واشنطن يعيشون في عصر الماموث والديناصورات ويعتقدون مثلاً بأن العرش الإنكليزي هو عرش داود وأن االزنابير هم شعب الله حقاً وأن الله نفسه كما كان يرى أوليفر كروموبل رجل إنكليزي. أعاجيب «ما بعد ـ حداثية» كثيرة من هذا الجنون والآفات النرجسية وعبادة الذات في الاعتقادات الشعبية كلها تؤكد بمستويات مختلفة من لغة التعبير والمناهج والتبريرات أن تصميم الله لمستقبل الإنسانية يعتمد كليّاً على الأنكلوسكسون. ومن الواضح أن هؤلاء ـ وهنتنغتون نقطة في خضمّهم ـ لا يكتفون بمصادرة أرض كنعان بمن فيها لأنفسهم بل يريدون أن يصادروا العالم بكل ما يعني ذلك من مصادرة حق تقرير مصير الحياة والموت والرزق والحرية.. لكل من عداهم من عباد الله. ما يهمني هنا ليس الاعتقاد نفسه بل ما ترتب عليه اجتماعياً وسياسياً، وما جرّ على الإنسانية من ويلات. فالخطر ليس فيْ الاعتقاد المجرد بل في تعاون جنرالات «مكدونالد» و«مكدونالد دوغلاس» على تحويل هذه الخرافات إلى معجزات، وفي تبخير «أولاد مكولاي» لها. إن هاجس التلوث العرقي الذي يملأ مخيلة هنتنغتون بالكوابيس كان أيضاً يملأ مخيلة الذين كانوا يتلذذون بحرق الهنود أحياء ويصفون إحراق القرى وأهلها بأنها حفلات شواء (باربكيو)، وهو أيضاً ما كان يعتقده زنابير أستراليا والمتأفرقون Afrikaners والبور Boers البيض مستعمرو جنوب أفريقيا، بل هو الذي حسم في الكونغرس مسألة عدم ضم الفيليبين بعد احتلالها إلى الولايات المتحدة خوفاً من التلوث العرقي.

هذا الاهتمام الساخن بكتابات هنتنغتون وبدجل «حوار الحضارات» الذي تتولى كبره ورفع درجات حرارته مستعمرات مهد العرب بالاتفاق مع دوائر وزارة الخارجية الأميركية، وتستجر إليه كثيراً من أصحاب الحماسات البلهاء للأخذ والعطاء مع «قلوب وعقول أميركية منفتحة» مثل مارتن إنديك وبيل كلينتون مثير للريبة فعلاً، لا لأن هذه الحوارات تحيل عن عمد وعن سابق تصميم كل هذه القيامة إلى سوء تفاهم أشبه بالخلاف على نواقض الوضوء، ولا لأن هناك تعمداً في إخفاء خنجر القاتل في سيمفونيات بيتهوفن وإضفاء صفة الحضارة الغربية على كل جرائم مافيا «ثروة الأمم»، بل أيضاً لأنه ليس لهذا الكاتب البروباغندي الذي يضر الولايات المتحدة أكثر مما ينفعها وزن علمي أو أكاديمي في أميركا. إنه برغم حظوته الكبيرة لدى المؤسسة الحاكمة وأصحاب الأحلام الإمبراطورية التي مولت كتبه ونشاطاته (مؤسسة سميث ريتشاردسون Smith Richardson Foundation المرتبطة بتشيني ورمسفيلد وزبغنيو بريزنسكي مثلاً هي التي مولت كتابه ?Who Are We) يُعتبر كاتباً هامشياً تافهاً في الوسط الثقافي الأميركي. وعلينا أن نتذكر أن كل طلبات انتمائه إلى الأكاديمية الوطنية للعلوم في الثمانينات رفضت لهذه الأسباب، وكان الرفض دائماً يقترن بوصفه pseudoscientist كاتباً مشعوذاً. يبقى أخيراً أن مقولة النقاء العرقي الأنكلوسكسوني وهي المقولة التي ينسج حولها هو والزنابير كلٌ دعاواهم مقولة فاسدة علمياً. فالأنكلوسكسونية كذبة بيولوجية لا أساس لها في الدراسات العرقية الجادة، وكل الذين حاولوا الترويج لها كانوا يشيرون إلى ذلك الخليط المهجن من السلت والفايكنغز والجرمان الذين كانوا يسكنون الجزيرة البريطانية، ثم عمموه في أميركا على القوقاز البيض من الناطقين بالإنكليزية، وبعدها ضموا إليه بعض «المتأبيضين» أخلاقياً ورأسمالياً. ومثال جون أبو زيد وكونداليسا رايس، وربما باراك أوباما أيضاً، ليس ببعيد. هناك دائماً خلط أوراق مغشوش في هذه اللعبة العنصرية التي تديرها مافيا «ثروة الأمم» لحساب «فكرة أميركا» وأهدافها.

(٣٣) انظر ص ٤٢٥ و٤٢٦، طبعة Library of America، عام ١٩٩٣.

(٣٤) هذا ما قاله النحات فريدريك رمنغتون Frederick Remington سليل أحد قديسي الموجة الاستعمارية الأولى ليوتانئت جون رمنغتون. وهو من رموز العنفوان الوطني الأميركي، فمنحوتاته مجدت أسطورة الكاوبوي وجسدت بطولات الزحف نحو الغرب، وتباع نماذج مصنّعة منها للمغفلين في المتاحف الوطنية ودكاكين السياحة. والشاهد نقلاً عن:

Frederick Pike, *The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization and Nature* (Austin University of Texas Press, 1992), p. 179.

(٣٥) Philip Tayler, *The Distant Magnet: European Emigration to the U.S.A.* (New York: Harper and Row, 1971), pp. 72-73.

(٣٦) Elmer Sandemeyer, *The Anti-Chinese Movement in California* (Urbana University of Illinois Press, 1973). p. 42.

(٣٧) **نيويورك تايمز**، ١ تموز/يوليو ١٨٧٠، والكلام منسوب للجنة مظاهرة زنبورية ضد الصينيين في نيويورك.

(٣٨) Gwendolyn Mink, *Old Labor and New Immigrants in American Political*

Development: - (Ithaca, N. Y: Cornell University Press, 1986), p. 109.

(٣٩) *Congressional Record*, 44th Cong., 2nd sess., vol.5. pt.3, 1877. p. 2005.

(٤٠) عدد حزيران/يونيو ١٨٩٧.

(٤١) ليست لدي معلومات موثقة عن عدد سكان أستراليا قبل غزو الزنابير. ما أعلمه هو أن المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة كان فيها أيام كولومبس أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب، وأن عددهم بحسب أبحاث أجراها علماء من جامعة بيركلي هو أكثر من ١٨ مليون إنسان، لم يبق منهم في إحصاء استدارة القرن العشرين سوى ٢٣٧١٩٦ مرشحاً للموت. أما تقدير عدد سكان أميركا كلها أيام كولومبس فبين ١١٢ و ١٢٥ مليوناً. راجع في ذلك:

Henry F. Dobyns, *Their Number Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America.* (Knoxville: University of Tennessee Press, 1983), p. 42.

وتبلغ مساحة الأراضي التي اغتصبها الزنابير في شمال أميركا وأستراليا ٢٥٩٩٧٨٦٠ كلم٢، أي ما يعادل ١٠٧ مرات حجم بريطانيا ومعها كل المملكة المتحدة (انظر الخارطة ص ٢٧٩). هذه الأراضي المنهوبة من أهلها أكبر بعشرات الأضعاف من الأراضي التي غزاها التاتار والنازيون مجتمعين. وأما عدد ضحاياها فينحني لها الطاعون الأسود تواضعاً.

(٤٢) Mark A. Kishlansky, ed., *Sources of World History*, Volume II, (New York: Harper Collins College Publishers, 1995), pp. 266-69.

وفعلاً، لو قدر للزنابير أن يصلوا بحرب الأفيون إلى مداها كما وصلوا بحرب الجراثيم في العالم الجديد إلى مداها، لما كان غريباً أن نسمع اليوم أن الصين ـ وقد كان فيها ٤٠٠ مليون إنسان أيام حرب الأفيون ـ كانت مجاهل خاوية، وأن سكانها كانوا مجرد قبائل متوحشة يعيشون في الكهوف والغابات وينبت في رأسهم الريش والحشيش.

(٤٣) لآدم سميث كتاب بهذا العنوان نشره في عام ١٧٥٩.

(٤٤) Lewis Henry Morgan, *Ancient Society*, (Cleveland: World Publishing, 1963), p. 6.

ومورغان (١٨١٨ ـ ١٨٨١) أول من كتب دراسة واقعية عن نظام العائلة الهندي. كان من المعجبين بحياة الهنود، وقد انضم إلى شعب سينيكا وعاش معهم واتخذ لنفسه اسماً هندياً هو تاياداهك Tayadaowuhkuh، بل إنه مضى إلى الكونغرس ليدافع عنهم عندما بدأت شركات سكك الحديد تخترق أراضيهم.

وكان الرئيس وليم هوارد تافت قد رفع فكرة تكديس الثروة واكتناز المال إلى مرتبة الفضيلة في خطاب ألقاه في هافانا ـ والمكان ذو دلالة كبيرة في حرب التمدين ـ أثناء افتتاح جامعتها الوطنية، عام ١٩٠٦. راجع:

Frederick Pike, *The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization and Nature* (Austin University of Texas Press, 1992), p. 147.

(٤٥) يقول نشيد الجنود في الفيليبين: «اللعنة، اللعنة، اللعنة على الفيليبينيين/ لصوص قراصنة بثياب الخاكي فأثخنوا في حناجرهم تقطيعاً/تحت الراية [الأميركية] المتلألئة بالنجوم / مَدِّنوهم ببندقية / وأعيدونا إلى وطننا الحبيب» .

Damn, damn, damn the Filipinos!

Cut throat khakiac ladrones!

Underneath the starry flag,

Civilize them with a Krag,

And return us to our beloved home.

(٤٦) لم يكن لدى الزنابير مانع أن يعلن الهنود دولتهم أو ولايتهم، بل إنهم هم الذين اقترحوا عليهم تسمية هذه القماقم المبعثرة «دولة». «فليس في الاتفاقيات ما يمنع ذلك» كما قال روبرت ووكر Robert Walker حاكم مناطق كنساس. راجع:

Charles J. Kappler, *Indian Affairs: Laws and Treaties* (Washington D.C., Government Printing Office, 1904), vol. 2, pp. 756-63.

(٤٧) *Western Journal of Commerce*, July 30, 1864.

(٤٨) *Congressional Globe*,39th Cong., 1st sess., 36, pp. 3125-3126.

(٤٩) *Kansas Tribune*, September, 20, 1865.

(٥٠) هناك قصص كثيرة مشابهة تجدها في الصفحات ١٤٦ ـ ١٥٨ من Robert Berkhofer, *The White Man's Indian: Images of the American Indian from Columbus to the Present* (New York: Vintage, 1978).

وللعلاقة الوطيدة بين التبشير والجيش الأميركي راجع:

Ann C. Loveland, *American Evangelicals and U.S. Military, 1942-1993* (Baton Rouge and London: Louisiana State University Press, 1996).

(٥١) Arthur Smith, *Chinese Characteristics* (London, Oliphant, Anderson, and Farrier, 1900), p. 128.

(٥٢) Arthur Smith, *Village in China*: A Study in Sociology (New York: Fleming H. Revell, 1899), p. 346.

(٥٣) Robert F. Berkhofer, *The White Man's Indian: Images of the American Indian from Columbus to the Present*, (Vintage, 1979) p. 173.

(٥٤) Kirk Kicking Bird and Karen Ducheneaux, *One hundred Million Acres* (New york, Macmillan, 1973).

والعنوان «مئة مليون هكتار» كاف واف لا يحتاج إلى شرح.

(٥٥) *Congressional Globe,* 33 Cong. sess., 23, Appendix, pp. 213, 972.

(٥٦) مما لاحظه المبشر David Livingstone مثلاً «أن الأسلحة النارية تفرض الاحترام والهيبة وتجبر الوثنيين على أن يكونوا عاقلين معنا خوفاً من عواقب الشغب والتمرد الذي هو الموت المحتم». هذا شاهد واحد من الشواهد الكثيرة التي يوردها Michael Adas في *Machines As the Measure of Men: Science, Technology, and Ideologies of Western Dominance* (Cornell Studies in Comparative History) Ithaca, N. Y. (Cornell University Press, 1989). pp. 160-161.

والكتاب يُقرأ من غلافه المزين بصورة بالأبيض والأسود لقطار يعبر قرية «همجية» وينفث دخانه الأسود في أجوائها، بينما «يقعي» على الأرض قريباً منه خمسة رجال معممين يحملقون فيه بدهشة. ومن الواضح أن هذا اللقاء بين الحضارة والهمجية يتم في قرية يفترض فيها أن تكون عربية أو مسلمة.

(٥٧) National Cash Register Microfiche Edition 1864., p.3.

(٥٨) *House Report* 98, 42d. Cong., 3d sess, March 3, 1873 (S 1578), pp. 392, 409, 410.

كل الرسائل والوثائق التي يضمها هذا الملف تؤكد أن التصرف بأموال الهنود تم بدون استشارتهم.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) من «مذكرة تربوية» أعدتها الحكومة الاستعمارية في الهند، سنة ١٨٣٥. راجع Thomas Babington Macaulay, "Minute of 2 Feb, 1835 on Indian Education".

(٦١) *Congressional Globe*, 33 Cong., sess., 23, Appendix, pp. 213, 972.

(٦٢) *Congressional Globe*, 40th Cong., 1st., sess., 38, 686-87.

ملحق (٢)

افتراس قارّة(*)

«جريمة الإبادة في أستراليا مريعة. وهي حقيقة واضحة كضوء الشمس».

لسلي هايلن Leslie Haylen،

سياسي وروائي أسترالي من أصل إيرلندي، ١٩٤٩

في نهاية القرن التاسع عشر زار الروائي الإنكليزي أنطوني ترولووب Anthony Trollope مؤسسة تبشيرية في Rama Yuck بأستراليا، وكتب:

> لكي نُمدنهم، سلبناهم أرضهم، وأتلفنا غذاءهم، وفرضنا عليهم قوانيننا وعاداتنا المتعارضة مع قوانينهم وعاداتهم، وجهدنا في إخضاعهم لأذواقنا التي يكرهونها، وذبحناهم حين دافعوا عن أنفسهم وأملاكهم، وأجبرناهم بقوة السلاح على أن يعترفوا بنا أسياداً[1].

(*) لم أشأ أن أضم هذا الفصل إلى صلب الكتاب، لأنني ما زلت أعتقد بأن البحث في مصير سكان أستراليا الأصليين يحتاج إلى كثير من المراجعة والجهد اللذين لا يسمح بهما سياق هذا العمل. لكن لكي يعرف القارىء أن ما فعله شعب الله الإنكليزي بالهنود الحمر ليس استثناء، فقد أردت أن أفتح نافذة أوسع على ثقافة الإبادة التي لازمت مسيرتهم الاستعمارية الأكثر دموية في التاريخ البشري، والتي كانت فيها عيونهم - حيثما شحذوا سكاكينهم الطويلة - شاخصة على فلسطين وأهل فلسطين.

لم يمض نصف قرن على هذا «التمدين» حتى تبين في إحصاء ١٩١١ أن كل ما تبقى من سكان هذه القارة التي تزيد مساحتها على مساحة ٣٧ جزيرة كالجزيرة البريطانية ٣١ ألف إنسان فقط[٢].

٣١ ألف إنسان في قارة كاملة تدل الدراسات الأنثروبولوجية والأثرية والجغرافية والنباتية على أنها «مسكونة بالبشر منذ ستين ألف سنة على الأقل، حيث كان يسكنها في ذلك الزمان الغابر ما لا يقل عن خمسمائة قبيلة»[٣] تقتضي أبسط قوانين الطبيعة أن يتحول كثير منها إلى أمم وشعوب تضحك للحياة قبل وصول الزنابير بآلاف السنين كما هو حال إندونيسيا والفيليبين القريبتين منها، خاصة أن الغزاة يتذمرون من أن «لدى سكان أستراليا الأصليين أعلى نسبة تكاثر في العالم»[٤] ويعترفون «بأن عددهم قبل وصول الأوروبيين كان أكبر مما نعتقد»[٥].

في كتابه «سيرة أمة Biography of a Nation» الذي نشر بمناسبة العيد المئوي للاتحاد الأسترالي، قارن فيليب نايتلي Phillip Knightley ما جرى فى أستراليا من إبادة عرقية واستعباد وعنصرية وعزل وترحيل وتشتيت بجرائم النازية[٦]. وفي شهادة له أمام المحكمة العليا (٨ تموز/يوليو ١٩٩٨) قال المفكر الأسترالي واجلاربينا نُلياريما Wadjularbina Nulyarima:

> إن أستراليا لا تمتنع عن التوقيع على «ميثاق تحريم وتجريم الإبادة» إلا لأنها تريد، قبل التوقيع، أن تتأكد من أنها قضت نهائياً على سكان أستراليا الأصليين، فالإبادة لا تزال مستمرة[٧].

لهذا لم يعترف غزاة أستراليا بأن الإبادة جريمة يعاقب عليها القانون حتى عام ٢٠٠٢، أي بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على إقرار الميثاق. وقد «صاغوا تشريعاتهم بحيث تكون الإبادة جريمة لا يُعاقَب عليها أي شعب أنكلوسكسوني»[٨] [داخل بريطانيا وخارجها].

Genocide, a crime of which no Anglo-Saxon nation could be guilty

وفعلاً، «فحين جرت محاكمة الاتحاد [الدولة الأسترالية] بتهمة الإبادة (١٩٩٨)، اعترف المدعِي والمدّعَى عليه بأن تاريخ أستراليا الاستعماري هو تاريخ إبادي. لكن

هذا الاعتراف لم يترتب عليه أي إجراء قانوني لأن «الإبادة العرقية لا تشكل جريمة يعاقب عليها القانون في أستراليا»[٩].

ساعة وصول الزنابير إلى شواطىء هذه القارة (١٢ كانون الثاني/يناير ١٧٨٨)، أعلنوا أنها أرض خاوية ليس فيها إلا الحيوان والنبات terra nullius, a land empty but for fauna and flora. لم يستطيعوا أن يروا في البشر بشراً. كل الذين رأوهم وصفوهم بأنهم «وحوش بريّة» أو «هوام vermin» أو «أشباه بشر»، أو «أشكال كريهة»، أو «أشياء بغيضة»[١٠] أو كل ما في هذه الممسوخات من بشاعة. لم يكن في هذه القارة ولا في مئات الجزائر[١١] التي أفنوا أهلها أو شتتوهم إنسان واحد، وكأنّ أسلحتهم وبطانياتهم المسمومة كانت تقتل أشباحاً. ربما لهذا يقول صديق إيرلندي: «إن الشمس لا تغيب عن هذه الإمبراطورية لأن الله لا يثق بالإنكليز في الظلام»[١٢].

وكما فعلوا في كنعان المجاز، وبعدها في كنعان اللحم والدم، تبخّر إعلانهم عن «احترام حقوق السكان الأصليين» مع أول خطوة استيطانية. فقد بدأ المستوطنون بمصادرة الأراضي وهم يلوكون الأعذار التي لاكوها في كل أرض استباحوها، وراحت كل جماعة استيطانية تتسلى بدم أهل البلاد وأرزاقهم على هواها، مستخدمةً ما أبدعته تكنولوجيا القتل الإنكليزية من نار، ودمار، وحصار، وجراثيم، و... تمدين، ومستهترةً بكل الأعراف والقوانين الإنسانية[١٣].

في تلك الفترة قدّم داروين لشعب الله تفويضاً إضافياً باقتلاع أهل هذه القارة من الوجود، وصاغت الداروينية الاجتماعية «قوانين طبيعية» لعقيدة الاختيار الإلهي. بذلك صدحت السماء وقوانين الطبيعة كلها بلعنة كنعان، وصار «البقاء للأصلح» حُكماً مبرماً بحتمية فناء هؤلاء الكنعانيين الأشقياء. لهذا كان كثير من رجال الحكومة في أستراليا يعتقدون بأن سياستهم العنصرية امتثال لأمر الله ونزول على حكم الطبيعة التي قضت بأن «البقاء للأصلح»:

> إن حكمة الله العظيم مدبّر هذا الكون قدرت أنه من أجل صلاح العالم وخيره أن يُقِرّ الأسود بحق الأبيض عليه وأن يخليَ له السبيل ليتقدم. كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نحميهم قدر الإمكان ونترك للطبيعة أن تتولى ما تبقى. إنها مسألة «بقاء الأصلح»[١٤].

لقد اعتبروهم «الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد، بينما وصفهم الإنسانيون منهم بأنهم بشر في طور البربرية وأنهم ماضون حتماً إلى الانقراض»[١٥]. ثم اتخذوا من ضعف مناعتهم وموتهم السريع بالأوبئة التي لسعوهم بها دليلاً على أنهم لا يصلحون للبقاء. وبالطبع فإن التاريخ المنتصر في أستراليا كأخيه التاريخ المنتصر في أميركا الشمالية يَعتبر أن طبيعةَ الضحية هي المسؤولة عن كل ما يفعله الجلاد بها. فجراثيم الجدري التي يُنكر الغزاة استخدامها في حرب الإبادة لم تكن لتقتل السكان الأصليين لو أن الطبيعة زودتهم بالمناعة الكافية! وهي لم تزودهم بهذه المناعة «من أجل صلاح العالم وخيره». إن جون فورست John Forest رئيس لجنة التحقيق في أوضاع السكان الأصليين (١٨٨٣)، مثلاً، يرى أن «تلاشي هؤلاء [مجرد هؤلاء] أمر حتمي وطبيعي... لأنهم عرق أحمق لا يستجيب لتحسين شروطه»[١٦] ولكن كما فضحتهم وثائق اللورد أمهرست Jeffrey Amherst في العالم الجديد كذلك كشف المؤرخ الأسترالي نويل بتلن Noel Butlin كيف استخدم الزنابير سلاح الجراثيم في حرب إبادة أهل استراليا الأصليين، وكيف أن جراثيم الجدري التي تعمدوا إفناءهم بها كانت أكثر الأسلحة فتكاً[١٧]. هذا ما يذهب إليه أيضاً جون غولدسميد John Goldsmid رئيس كلية الطب الاستوائية الأسترالية The Australasian College of Tropical Medicine حيث يرى أنه كان إفناءً متعمداً بسلاح الجراثيم، وبالطريقة التي تم فيها [القضاء على ذلك «الجنس اللعين»[١٨]] في شمال أميركا[١٩].

بعد ١٥ شهراً مضت على إنشاء المستوطنة الأولى، انتشر وباء الجدري بين السكان الأصليين الذين لم يعرفوه من قبل كما يشهد بذلك كتاب صادر عن منظمة الصحة العالمية بجنيف[٢٠]. أما ستيفن كونيتز Stephen Kunitz أستاذ الطب الاجتماعي والسلوكي بجامعة روتشستر (نيويورك) فقد نشر دراسة عن إبادة سكان وسط أستراليا بعنوان: «أهي إبادة أم لا؟...» تحدث فيها عن «المخلوقات الشنيعة hideous creaturs» للإدارة الاستعمارية التي كان لها الفضل الأكبر في قطف الأرواح. وكان بذلك يشير إلى «ساديّة رجال الأمن» ثم إلى «رياضة صيد البشر» المفضلة لدى المستوطنين، وأخيراً إلى «السموم التي دُسّت في دقيق الإعاشة»[٢١].

وما جرى في وسط أستراليا لم يكن استثناء، فمع أول موجة استيطانية وصلت إلى تَسمانيا Tasmania في عامي ١٨٠٣ و١٨٠٦ استعر القتل المباشر في هذا الفردوس

الأرضي، واستشرس شعب الله في خطف الأطفال واستعبادهم، واغتصاب النساء وتعذيبهن، ثم تكرّم على الناجين من أهل هذه الجزيرة المسالمة بالدقيق المسموم والهدايا الملوثة بجراثيم الجدري[٢٢]. ولم تمض سنوات قليلة على إنشاء المستوطنة الأولى حتى أعطت دولة القانون للمستوطنين حقاً قانونياً (١٨٢٨) بقتل أهل البلاد بالرصاص. بذلك نال مستوطنو شعب الله تفويضاً من السماء وتفويضاً من الأرض بإطلاق الرصاص على كل من ولدته أمه في أرض كنعان التسمانية. كان القتل فردياً وجماعياً، قضى في خمس سنوات على أهل هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها أكثر من عشرة أضعاف مساحة هولندا، ففي عام ١٨٣٤ أرادت الحكومة أن تجمع كل من نجا من مذابحها فلم تجد سوى ١٢٣ إنساناً [بينهم الفتاة تْروغَنيني Truganini، آخر من عاش منهم]. كانوا مختبئين في كهوف جزيرة فلندرس Flinders[٢٣] وهي واحدة من ٥٢ جزيرة صغيرة ما بين تسمانيا وقارة أستراليا، وتعتبر من أجمل فراديس الأرض. وفعلاً فقد جمعتهم الحكومة وعزلتهم، ولم تلبث أن اعتبرتهم جماعة خارجة على القانون تعتدي على المستوطنين وتسرقهم(!). وبذلك تبخّروا. ولا يزال موت معظمهم بالأنفلونزا وغيرها من الأمراض سراً غامضاً.

كان ذبح خراف تسمانيا رياضة المستوطنين وحديث أسمارهم المفضل فى الأماسي والعشيات وحين يُقرع الكاس بالكاس في المقاصف. وفي هذا كتب المفوض السامي آرثر هاملتون غوردون Arthur Hamilton Gordon رسالة خاصة إلى صديقه وليم غلادستون William Gladstone رئيس وزراء إنكلترا اشتكى فيها من أن هذا الغرام بالحديث عن المجازر لا يقتصر على العامة... بل إن كثيراً من المثقفين المرهفين وأصحاب النزعة الإنسانية أنفسهم، حين يجتمعون هنا في البيت، يتحدثون عن مذابحهم الجماعية للسكان الأصليين وكأنهم يتحدثون عن يوم أمضوه في الرياضة، أو عن قتل بعض الحيوانات المؤذية[٢٤].

في ٨ أيار/مايو ١٨٧٦ ودّعت تسمانيا آخر سكانها الأصليين الخُلّص، وهي تْروغَنيني Truganini ابنة زعيم شعب جزيرة بروني. وكانت أمها قد قتلها صيادو الحيتان قبل أن تبلغ تْروغَنيني الثامنة عشرة. كذلك قُتل خطيبها الأول عندما حاول إنقاذها من الخطف بينما خُطفت أختاها وسيقتا إلى جزيرة كنغارو Kangaroo لتباعا في سوق العبيد. وكانت تروغنيني التي أصيبت بطلقة في رأسها أثناء مطاردة صيادي الحيتان قد

أوصت بحرق جثتها وذر رمادها في بحر جزيرتها التي عاش فيها قومها منذ ستين ألف سنة، لكن «الجمعية الملكية التسمانية» أصرت على عرض هيكلها العظمي للفرجة، ولم تحترم وصيتها إلا في عام ١٩٧٦، أي في الذكرى المئوية الأولى لفناء آخر إنسان من سكان تسمانيا الأصليين(٢٥).

معظم «أصدقاء» السكان الأصليين و«محبي السلام» و«دعاة التفاهم والحوار» الذين استنكروا العنف وأدانوه كانوا يفضلون إبادة خيرية لطيفة «يهشهشون» فيها وسادة الموت ويوثِرون فراشَه بالمدنية والسلام. لهذه الغاية استحدثت بعض حكومات المستوطنات إدارة خاصة لحماية من نجا من السكان الأصليين وما زال ينتظر على معبر الآخرة. وتتلخص سياسة الحماية هذه في التمدين والتنصير داخل معسكرات موت غَزّاوية لا يخرجون منها إلا موتى أو محتضرين؛ «حِماية» يقول عنها كاهنان لوثريان زارا أستراليا: «إنها تقوم بدور الأطباء والممرضين لمرضى لا شفاء لهم، بينما لا تستطيع الإرساليات أن تعطيهم سوى مراسم دفن مسيحية»(٢٦).

> ولم تكن «حماية» السكان الأصليين تعني إلا التحكم بحركتهم، وعملهم، وزواجهم، وقراءاتهم، ورياضاتهم، وتسلياتهم، بل وطقوس دياناتهم وثقافاتهم وخاص خصوصياتهم. فحماية دخلهم مثلاً تعني أن موظف الأمن هو الذي يتحكم بهذا الدخل، ويقرر ما يمكن أن يتصرفوا به من حساباتهم المصرفية، ويحدد صلاحيتهم للدخول في أي عقد للبيع أو للشراء(٢٧).

وفي ظل هذه الحماية فرضت الحكومة عليهم سياسة الاستيعاب، أي تفريغهم من ثقافاتهم ودينهم وأخلاقهم ولغاتهم، وذلك عبر فصل الأطفال عن أهليهم ومجتمعاتهم بالقوة، ونقلهم للخدمة لدى البيض. «فما لم ينشأ هؤلاء الأطفال تنشئة البيض ــ كما يعلن المسؤول الأول عن سياسة الحماية في كوينزلاند Queensland ثاني أكبر ولاية في أستراليا ــ ستتحول الفتيات إلى عاهرات ويتحول الصبيان إلى لصوص!»(٢٨).

وكما جرى في أميركا الشمالية فإن خطف الأطفال من أحضان أمهاتهم وآبائهم تم باستنساخٍ فج لخطف أولاد «الهنود الحمر» ضمن استنساخ قيصري أعمّ لفكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة، وتاريخ بتاريخ.

لتمدين هؤلاء الأطفال المخطوفين من حضن أمهاتهم وآبائهم فقد قررت «اللجنة الملكية في جنوب أستراليا» أنّ

من المفيد خطف الطفل عند ولادته، وفي حد أقصى عندما يبلغ السنتين. غير أن حكومتي كوينزلاند وغرب أستراليا قررتا أن أفضل عمر لفصل الطفل عن أبويه هو الرابعة[٢٩]. يبقى أن تسمانيا [لم يكن يعنيها كل هذه الشكليات فقد] ظلت حتى ستينيات القرن الماضي ترفض الاعتراف بوجود سكان أصليين داخل حدودها[٣٠].

وكان الخاطفون، تجنباً للمواجهة مع الآباء، يتوسلون أساليب ملتوية يستدرجون فيها الأطفال بعيداً عن أهليهم ليسهل عليهم خطفهم. وقد كان هذا الخطف السري أقسى على الوالدين وأشد إيلاماً من الخطف القسري العلني حيث يعرفان من هو الخاطف على الأقل.

هنا يروي طفل في السادسة من عمره كيف خدعه الخاطفون وسرقوه وأخته من مدرستهما فيقول:

جاءنا موظفان من «إدارة الإحسان» إلى المدرسة، وقالا إنهما يريدان أن يأخذاني أنا وأختي روزالين إلى البيت لنتحدث إلى أجدادنا [يبدو أن والديهما ميتان أو مخطوفان]. وقال الموظفان إنهما يريدان أولاً أن يأخذانا إلى البلدة لشراء بعض الحلوى. وظننا فعلاً أنهما سيفعلان ذلك. ولكن ما إن بدأنا نأكل الحلوى في المقعد الخلفي حتى استدارا بعيداً عن المعزل وتوجها إلى ويليمز Williams ثم إلى إرسالية وندرينغ Wandering Mission. ولم تتح لنا الفرصة لأن نودع أجدادنا. إنهم لا يعرفون شيئاً عنا ولا عمن أخذنا.

[وتقول الطفلة ماري ذات السنوات العشر] كنا سعداء في مدرستنا إلى أن جاء رجال «إدارة الإحسان» والتقطونا من مدرستنا بدون سبب. لا أعرف لماذا. لكن أبي التقاهم في الطريق. وضعونا في الشاحنة مثل المواشي. وكانت تمضي بنا إلى الإرسالية. ووقف أبي في وسط الطريق وأخبرهم أنهم لن يمروا بسلام وأنه لن يتحرك من وسط الطريق. وأعتقد أنه كان يحمل مسدساً. وقال إنه سيفجر

أدمغة الرجال إذا ما أخذونا. وقال لهم: من الأفضل أن تعيدوا هؤلاء الأطفال إلى مدرستهم. كنا نبكي، وكنا لا نعرف ماذا يجري لنا. أما أختي ذات الخمسة عشر عاماً فقد خطفت قبلنا من المدرسة دون أن يعلم أحد[٣١].

ظل خطف الأطفال من أحضان أمهاتهم في أستراليا عملاً قانونياً حتى عام ١٩٦٣ حين استعيض عنه بقانون «الرعاية الخيرية للسكان الأصليين The Native Welfare Act,1963».

أما لماذا الخطف في هذه السن المبكرة فإن أوبير نيفيل Auber Octavius Neville كبير مسؤولي «حماية» السكان الأصليين يبرر ذلك في خطاب له أمام البرلمان الأسترالي بكانبرّا (نيسان/أبريل ١٩٣٧) قائلاً:

أخذُ الطفل من حضن أمه في أصغر سن ممكنة ضروري جداً، فهو في كثير من الأحيان لن يراها أبداً. بذلك ينشأ هؤلاء الأطفال وهم لا يعرفون شيئاً عن ثقافتهم ومحيطهم. [وأضاف في هذا الخطاب]: «إن القانون في غرب أستراليا خوّلنا أخذ أي طفل من أمه، في أي مرحلة من مراحل حياته سواء أكان زواج الأم شرعياً أم غير شرعي... ولا شك في أن من الأفضل أخذ الطفل من أمه [وقد أشار للأم بضمير it الذي يشار به إلى غير البشر] ووضعَه [كذلك أشار إلى الطفل بضمير it] في مؤسسة حيث تتم رعايته [كذلك أشار إليه من جديد بهذا الضمير لكي لا يكون هناك لبس في أن الطفل فعلاً لا ينتمي إلى بني البشر][٣٢].

باسم المدنية والتمدين، خُطف تسعون بالمئة من أطفال أستراليا الشمالية وفيكتوريا وغيرهما من الولايات؛ خطفوا ولم ترهم أمهاتهم بتاتاً، كما جاء في حيثيات المؤتمر الأسترالي الأول حول التبني. وكان المؤرخ بيتر ريد Peter Read قد نشر رسالة عن «الأجيال المسروقة Stolen Generations» في ولاية نيو ساوث ويلز New South Wales (ولاية في جنوب غرب أستراليا)، قال فيها إنه برغم اختفاء السجلات الرسمية من دوائر هذه الولاية فإنه استطاع التأكد من خطف ٥٦٢٥ طفلاً ونقلهم للخدمة لدى البيض. وقال إن هذا الرقم متواضع جداً وأنه في الحقيقة أكبر بكثير وربما وصل إلى مئة ألف[٣٣]. بعض هؤلاء الأطفال المنهوبين صار عبداً لدى عائلة بيضاء[٣٤] أو

اختفى، وبعضهم ألقي به فى إرسالية لتُزرع فيه ذاكرةُ الغزاة ولغتُهم وملَكةُ حكمهم ومزاجُهم وأخلاقُهم ودينُهم، وليتدرب على أن ينظر إلى نفسه والعالم بعيون جلاديه. لم يشفع للطفل المخطوف نشيج الأم ولا ضراعة الأب، فهؤلاء آباء ـ يقول عنهم الزنابير إنهم ـ ينسون نسلهم بسرعة. في عام ١٩٠٩، قال شارل غايل Charles Frederick Gale المسؤول الأول عن سياسة الحماية في أستراليا الغربية:

> إنني لن أتردد لحظة واحدة في عزل الطفل المهجن عن أمه ذات الدم الأسترالي الكامل مهما كان حزنها ونشيجها وعويلها في تلك اللحظة. إنهم سرعان ما ينسون نسلهم[٣٥].

لهذا كان الآباء يخفون أبناءهم في الأدغال كلما أحسوا باقتراب رجل أبيض، ولا سيما إذا كان رجل أمن. ولطالما كانوا يلونون بشرته بالفحم الحجري [ليبدو أفريقياً أسود][٣٦]، فقد كان «التمدين» يعني اختفاء الولد إلى الأبد. وهذا ما وصفه النائب أوبري كوفرلي Aubrey Coverley عام ١٩٣٦ في البرلمان حين قال:

> اتصل بي رجل مختلط الدم بخصوص أطفال قال إنه ليس من أقاربهم لكنه يعرفهم. لقد جاء إلى بيرث Perth في عطلة، وسألني أين يستطيع أن يجد الأطفال. ولأنني لا أعرف أين فقد هاتفتُ الإدارة وعرفت أنهم في مستوطنة نهر مور Moore. هنا سألني الرجل كيف يستطيع أن يتصل بهم. أراد أن يراهم حتى إذا عاد أمكنه أن يطمئن أمهم ويخبرها كيف ترعرعوا وماذا تعلموا أن يفعلوه بأنفسهم. وقال إنها ستكون سعيدة بأن تسمع شيئاً عنهم. وقد اعتقدتُ بأن هذا اقتراح إنساني جيد فاتصلت بالمسؤول الأول عن «الحماية» ، وطلبت منه إذناً بالحديث إلى الأطفال. لكنه رفض أن يسمح للرجل بالذهاب إلى المكان رفضاً قاطعاً. بل قال إنه يرفض أن يسمح لي أنا أيضاً بالذهاب... وأعتقد أن هذا خطأ مميت، فالآباء لا يعرفون أين سيق أطفالهم، وما إذا كانوا أحياء أو أمواتاً[٣٧].

وهناك وثائق وسجلات كثيرة لحالات اغتصاب وتعذيب في الإرساليات والبيوت التي تدّعي الحكومة أنها نقلت الأطفال إليها لتمدينهم. ولعل أفضل هذه الوثائق شهادة المسؤولين الرسميين كخطبة البرلمانية فرانكا أرينا Franca Arena في مجلس نواب

ساوث ويلز South Wales يوم ١٣ أيار/مايو ١٩٩٧ حيث تقول:

لطالما تجاهلنا موضوع التحرش الجنسي بأطفال السكان الأصليين؛ تجاهلناه طويلاً... إن رجلين أخوين من السكان الأصليين، وكانا قد فصلا عن أسرتهما عندما كانا طفلين صغيرين، أخبَراني عن سنوات طويلة من الاغتصاب والتحرش الجنسي من قبل من يفترض أنهم أوصياء عليهما. إنهما الآن بعد عقود طويلة يطلبان تحقيق العدل. إن كليفورد وروبرت Clifford and Robert وهما أصلاً من كوينزلاند الشمالية أمضيا أسبوعين في كانبرا ليرفعا ظلامتهما دون أن يستجيب لهما أحد. لكنهما يقولان إنهما لن يقر لهما قرار إلى أن تتأسس هيئة ما للنظر في ظلامات السكان الأصليين الذين عانوا من التحرش الجنسي عندما كانوا صغاراً.

لقد بدأت قصتهما عندما كان عمر أحدهما ستة أشهر، وأُخِذا من أسرتهما ليوضعا في إرسالية، حيث اضطرت أمهما أن تجري وراءهما مئات الكيلومترات، ثم «ماتت». وقيل للطفلين بعد ذلك إنها ماتت بحادث سيارة. لكنهما لم يتأكدا من سبب موتها.

ويقول الأخوان إن خطفهما من أحضان أمهما جريمة ضد الإنسانية، وأنهما قاسيا كثيراً من الهلع والكوابيس. لقد أوصدت الأبواب أمام كليفورد عندما نشد مساعدة أطباء النفس... وقال إنه لا يستطيع أن ينام إلا بمسكنات قوية، وإن لدى السكان الأصليين مخاوف كبيرة من المساعدات الثقافية [عملية التمدين]...

وطالب الأَخَوان بمناقشة صريحة للمسألة [في البرلمان] يشترك فيها الطرفان [الخاطفون والمخطوفون]، لا مناقشة تقتصر على شخصيات من غير السكان الأصليين. وقالا إن خطفهما جريمة ضد الإنسانية، وقد تم ذلك بعد ١٩٦٠ مما حوّلهما إلى نفاية منبوذة في حر وطنهما ودمر علاقتهما بأهلهما. وقال كليفورد البالغ من العمر ٣٦ عاماً إنه عانى من الاغتصاب الجنسي منذ الثامنة وإلى أن بلغ ١٤ عاماً. أما روبرت البالغ من العمر ٣٥ عاماً فقال إنه اغتُصِب عندما كان في السابعة وظل يُغتصب إلى أن بلغ الثانية عشرة[٣٨].

وكان التلفزيون الأسترالي (قناة ABC، برنامج Lateline) قد عرض يوم الإثنين ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٦ تفاصيل مثيرة عن التحرش الجنسي والاغتصاب الذي عانى منه السكان الأصليون. وقدم البرنامج مقابلة مع نانت روجرز Nanette Rogers المدعية الملكية العامة في وسط أستراليا حول تقريرها عن «التحرش الجنسي بأطفال السكان الأصليين» في الإرساليات ولدى عائلات البيض. ثم إن المذيع حذر المشاهدين من أن بعض لقطات العنف والتحرش الجنسي قد تؤذي مشاعرهم. وعلى الرغم من الطبيعة السرية لدراستها التي وزعت على مسؤولي الأمن العام فقط فإنها وَصفت في المقابلة التلفزيونية بعض الحوادث الموثقة لاغتصاب وقتل أطفال السكان الأصليين الذين لم تتجاوز أعمار بعضهم سبعة أشهر. وهذا ما أثار عاصفة من الغضب الرسمي وحفز بيتر يو Peter Yu مدير مجلس كمبرلي Kimberly ورئيس مجلس الإسكان والبنية التحتية على دعوة الجيش الأسترالي للتدخل مُصرّاً على أن تعمل الحكومة تماماً كما فعلنا... في أفغانستان والعراق(٣٩).

الحكومة الأسترالية تدّعي أن هدف «التمدين» ذو طبيعة خيرية، وأنها لم تَسنَّ تشريعاً واحداً يهدف إلى تدمير السكان الأصليين. بل إنها تقول إنها عملت ما في وسعها للحفاظ على أطفالهم وأن «نقلهم وعزلهم» عن آبائهم كان بهدف حمايتهم. وهي تعزو ما جرى لهم إلى طبيعتهم أولاً ثم إلى بعض الأسباب الاقتصادية(٤٠). لكن لجنة التحقيق الوطنية National Inquiry في مصير هؤلاء الأطفال لم تدع مجالاً للشك في أن ماجرى للأطفال كان حرب إبادة جسدية وثقافية. فبعد أن أجرت اللجنة ١١٨ استجواباً رسمياً وتحقيقاً قضائياً، أعلنت:

> أن أستراليا ارتكبت جريمة الإبادة الجماعية عن سابق تصميم، وذلك باستخدام القوة لنقل الأطفال ضمن سياسة رسمية ظلت سارية المفعول حتى السبعينيات [سبعينيات القرن العشرين. وقالت اللجنة:] إن أساس هذه الجريمة هو العمل عمداً على تدمير حياة السكان الأصليين... إن نقل الأطفال لم يكن يهدف إلا إلى القضاء نهائياً عليهم. وهذا ما ينطبق عليه وصف «الإبادة» وفقاً لميثاق تحريم الإبادة(٤١).

كذلك فإن الدعوى المقامة على حكومة الاتحاد والمعروفة بدعوى كوبيللو Cubillo

وصفت سياسة «التمدين» التي لجأت إليها الحكومة بأنها إبادة ثقافية، وأن هدفها هو «الحفاظ على نقاوة الدم الأنكلوسكسوني»[٤٢]. وهذا أيضاً ما أعلنه صراحة أوبير نيفيل Auber Octavius Neville المسؤول الأول عن «الحماية» في غرب أستراليا من ١٩١٥ حتى ١٩٤٠ كما يروي صاحبا كتاب «الأجيال المسروقة Stolen Generations»:

> لا بد من موت كل أصحاب الدم الأسترالي الكامل، وعزل المهجّنين عن أمهاتهم الأستراليات، وفرض رقابة صارمة على زواجهم. بهذه الطريقة يصبح من الممكن أن ننسى تماماً أنه كان [يا ما كان] ذات يوم سكان أصليون في أستراليا[٤٣].

ولكي ينظر ملوثو الدم إلى أنفسهم والعالم بعيون جلاديهم في دولة القانون فإن قانون الجنسية (١٩٤٤) اشترط على ملوَّث الدم فيما اشترط:

> أن يصبح أبيض الأفعال [والتعبير الحرفي: أبيض بالفعل in effect] ، ويقدم للقاضي ما يثبت أنه قطع علاقته نهائياً بأهله وثقافته، وأنه خدم في القوات المسلحة وحصل على وسام شرف قبل تسريحه، وأنه سلك خلال السنتين الماضيتين مسلك المتمدنين البيض وعاداتهم، وأخيراً أن لا يعترض أحد من البيض على دخوله إلى [الملكوت] الأبيض. وعلى القاضي هنا أن يتأكد من كثير من الأمور قبل أن يزيل عنه وصمة السكان الأصليين[٤٤].

كان الخوف على نقاء دم شعب الله الأنكلو سكسوني وراء كثير من التشريعات العنصرية في كل كنعانٍ غزوها، وكان وراء سياسة «تمدين أطفال» كل الشعوب المنذورة للفناء، فهم يعتقدون أن الدم الأبيض أساس الحضارة وأساس المسيحية ولا بد من حمايته من التلوث، كما يقول J. W. Bleakley المسؤول عن «حماية» السكان الأصليين في أستراليا الشمالية عام ١٩٢٨[٤٥]، وبما أن لدم الملونين غلبةً على دم البيض فإنهم تخوفوا من أن معاشرة المرأة البيضاء لرجل ملون ستخلق وضعاً خطراً يهدد نقاء العرق الأبيض في أستراليا، وتعود بذلك سيطرة الملونين على البلاد[٤٦] لهذا أصدروا تشريعاً (١٩٣٣) يحرم معاشرة أيٍّ من السكان الأصليين أياً من غير السكان الأصليين. كما يحرّم معاشرة أي ملون لأنثى نصف بيضاء تجرى في عروقها قطرة من دم السكان الأصليين. كما اعتُمدت إجراءات [قانونية واجتماعية

وطبية] لطرد الدم الملون من الأنثى نصف البيضاء، ولتهيئة الشروط اللازمة ليختفي سكان أستراليا الأصليين من بلادهم نهائياً[٤٧]، ويكتمل بذلك استنساخ فكرة أميركا؛ فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ.

في ١٩٠١ ألقى المدعي العام للكومنولث [الاتحاد] الفرد ديكن Alfred Deaken خطاباً أمام البرلمان استهله بتبشير أعضاء البرلمان بأن «السكان الأصليين عرق يحتضر» وقال بكل تواضع: إن عليهم «في ساعاتهم الأخيرة أن يعترفوا بعدالتِنا وبمعاملتنا الكريمة لهم». ثم رجا الحاضرين بأن لا يكون هناك أي التباس في أن

> البرلمان والأحزاب وكل الفئات الاجتماعية على رأي رجل واحد في أن كومنولث أستراليا يعني أستراليا بيضاء، وأن كل العناصر الغريبة [غير البيضاء] سوف تضمحل diminish. إننا جميعاً عازمون على إحكام تأسيس الكومنولث على أساس العرق الواحد... في ظل التاج [البريطاني] الذي نعتز به ونفتخر[٤٨].

كانت هذه سياسة شعب الله منذ أيام الغزو الأولى، وكان الأطفال أوجع ضحاياها، إذ لم يمض ربع قرن على غزو سيدني حتى بدأ خطف الأطفال وتسليمهم للمبشرين الذين كانوا ألطف «أصدقاء» السكان الأصليين وأكثرهم وداً. كانوا يستنكرون كل عنف جسدي ويدينونه. بذلك كانوا يستحوذون على قلوب وأرواح هذه الخراف الضالة ويستبدلونها بقلوب وأرواح بيضاء متمدنة مؤهلة لأن ترعى حشيش يوحنا البطمي. وكانوا يضطلعون بسياسات الحكومة مثل العزل والاستيعاب والترحيل واقتلاع ثقافات أهل البلاد ولغاتهم وأديانهم لمصلحة ثقافة الإنكليز ولغتهم ودينهم. لقد منحتهم الحكومة كل السلطات اللازمة لذلك، فأقطعتهم حياة هؤلاء الأشقياء وأرزاقهم وحرياتهم ومصائرهم. فهم يديرون مدارسهم ومشافيهم ومزارعهم ومياههم ومجاريرهم وسجونهم، ويتحكمون بلقمة عيشهم، ويستخدمونهم في أعمال السخرة، ويتصرفون بهم تصرف الوصي المطلق[٤٩].

أقدم وثائق سياسة العزل تعود إلى أيام الحاكم مكواير Macquaire (١٨١٦) الذي نصب «منطقة حراماً» حول المستوطنات حرّمها على السكان الأصليين تحت طائلة القتل[٥٠]. كما فرض عليهم العيش في معازل شبيهة بمعازل الهنود الحمر. أما

الأطفال المخطوفون فكان قد أسس لهم قبل ذلك بعامين مؤسسات لتمدينهم واقتلاعهم نهائياً من أهلهم وثقافاتهم[٥١]. وكان مجلس العموم البريطاني في ١٨٣٥ قد شكّل لجنة خاصة بسكان أستراليا الأصليين، من أهدافها «نشر الحضارة بينهم بحيث تنتهي بهم رحلة التمدين إلى قبول سلمي وطوعي للديانة المسيحية»[٥٢] «ودعت اللجنة إلى استخدام القوة لتحقيق ذلك إذا لم تنفع الوسائل السلمية. وإذا لم تنفع القوة فالبديل الآخر هو الإبادة»[٥٣]. the other alternative is extermination.

الهوامش

(١) Anthony Trollope, *Australia*, P. D Edwards and R. B. Joyce (editors) (University of Queensland Press, 1967), pp. 471-472.

(٢) Colin Tatz, *With Intent to Destroy: Reflecting on Genocide*, (Verso, London, New York 2003) p. 76.

(٣) *Encyclopaedia of Aboriginal Australia*, ed. David Horton, (Australian Institute of Aboriginal and Torres Strait Islander Studies, Canberra, 1994) and Colin Tatz, "Genocide in Australia", *AIATSIS Research Discussion Papers No 8* (Canberra, first published in 1999 by the Australian Institute of Aboriginal and Torres StraitIslander Studies), p. 6.

(٤) Leonard Robert Smith, *The aboriginal population of Australia: Aborigines in Australian Society*, (distributed by Books Australia 1980), p. xix.

كان عدد سكان الفيليبين في سنة ١٧٨٨، وهي السنة التي غزيت فيها أستراليا أكثر من مليون ونصف المليون. وهي بحسب إحصاء ٢٠٠٨ حوالى ٩١ مليون نسمة. أي أنها زادت بمعدل ٦٠ ضعفاً. ومساحة أستراليا أكبر من الفيليبين المجاورة بـ ٢٥ ضعفاً. أي إن عدد سكانها الأصليين يوم غزوها كان يجب أن يكون في حدود ٣٧ مليوناً. ولو قدر لهم أن يعيشوا حياة طبيعية ويتكاثروا بمعدل تكاثر جيرانهم الفيليبينيين لكان عددهم اليوم ٢٢٢٠ مليون نسمة. وقد ظل الدستور الأسترالي يحرم نشر أية معلومات عن عدد السكان الأصليين مع إحصائيات السكان حتى عام ١٩٦٤ بينما ظلت الإدارة المعنية بهم تروج الكثير من الأكاذيب والأساطير عنهم. فحين كانت هذه الإدارة تبشر بانقراضهم أظهرت الأرقام تناقصاً حاداً في أعدادهم. وحين بدأت تبشر بخيرات سياسة العزل والاستيعاب انعكست الآية وراحت تشير إلى تزايد أعدادهم.

أنظر المصدر السابق ص : ٣.

(٥) Ibid., p. xxiii.

(٦) Phillip Knightley, *Australia: A Biography of a Nation*, (Jonathan Cape, London, 2000) p. 107.

(٧) Henry Reynolds, *An Indelible Stain The Question of Genocide in Australia's History*, (Viking, Ringwood, 2001), p.11.

(٨) David Markovich BCom (Econ), LLB (Hons), "Genocide, a Crime of Which No Anglo-Saxon Nation Could be Guilty", *Murdoch University Electronic Journal of Law*, Vol 10., No 3 (September 2003).

(٩) Shirly Scott, *Australian Journal of Human Rights*, 2004, AJHR 22, Vol. 10, No. 2).

(١٠) See Raymond et al Evans, *Race Relations in Colonial Queensland: A History of Exclusion, Exploitation, and Extermination*, (Australia and New Zealand book Company, 1975) pp. 75-79.

(١١) هناك مئات الجزائر التي غزاها شعب الله، ليس بينها جزيرة واحدة لم يكنعنوا أهلها أو يصفوهم بالوحوش والهوام والهمج، وبعدها، وأحياناً قبلها، يبيدونهم أو يشتتونهم. إن الكتابة عمّا جرى لشعوب هذه الجزائر بالتفصيل تحتاج إلى دراسة مستقلة وسنوات من العمل الجاد. لهذا سأكتفي هنا بمقالة منشورة في صحيفة بريطانية محترمة تصدر من عاصمة الشعب الإنكليزي المختار عن جزيرة دييغو غارسيا Diego Garcia الاستراتيجية بقلم كاتب أسترالي بريطاني هو جون ريتشارد بيلجر John R. Pilger. وأهمية ما جرى في هذه الجزيرة أنه دار في عصر التلفزيون والمعلوماتية وليس في حقب الإبادة المظلمة بكاتِم الصوت، كما هو حال مئات الجزائر الأخرى التي محيت شعوبها من سجل الوجود. تقول المقالة:

كلما أقلعت طائرات ب ٥٢ من جزيرة دييغو غارسيا لقصف هدف في العراق تذكر الأنباء أن الطائرة أقلعت من الجزيرة غير المأهولة... وكان وزير الدفاع الإنكليزي قد أعلن في السبعينيات «إنه لا يوجد في ملفاتنا سكان ولا إخلاء للجزيرة».

هذه الجزيرة المرجانية الجميلة التي تعج بالحياة والقرى الجميلة والمدارس والمستشفيات والكنائس وسكك الحديد وأنواع الطيور النادرة تعتبر من أجمل جزر أرخبيل شاغوس Chagos. لكن هذا كله انتهى في عام ١٩٦١ عندما وطئت أقدام الأميرال الأميركي شاطىء دييغو غارسيا لتأسيس أكبر قاعدة عسكرية أميركية في العالم. هنالك اليوم أكثر من ٢٠٠٠ عسكري، ومرفأ لثلاثين سفينة حربية، ومزبلة نووية، ومحطة تجسس، وأسواق مسقوفة، وبارات، وملاعب غولف. يسميها الأميركيون معسكر العدالة Camp Justice.

وكانت حكومة هارولد ولسون قد تواطأت في الستينيات مع الإدارة الأميركية على كنس وتطهير sweep and sanitize الجزيرة، كما ورد في الوثائق الأميركية. إن ملفات المحفوظات الوطنية National Archive في واشنطن ووثائق مكتب السجل العام Record Office في لندن تقدم سرداً صاعقاً عن هذا «الكنس والتطهير» الذي يتعارض كلياً مع الكذب الرسمي.

للتخلص من أهل الجزيرة، لفقت وزارة الخارجية البريطانية كذبة تقول: إنهم عمّال عابرون يمكن عودتهم إلى موريشوس Mauritus على بعد ١٦٠٠ كلم، علماً بأن مقابر آباء وأجداد هؤلاء السكان ما زالت شاهدة على أنهم في هذه الجزيرة منذ خمسة أجيال على الأقل. وكانت وزارة الخارجية تهدف من إعلانها «تحويل وضع السكان الحاليين إلى سكان موقتين لفترة قصيرة».

في آب/أغسطس ١٩٦٦، كتب نائب وزير الخارجية سير بول غور-بوث Sir Paul Gore-Booth: «علينا أن نكون حازمين في هذه المسألة... لن يكون هناك سكان أصليون غير نوارس البحر». وفي ذيل هذا الكتاب تعليق بخط اليد كتبه البارون D H Greenhill يقول: «إضافة إلى [نوارس البحر هناك] بعض الطيور التي تواكب بعض الطرزانات [جمع طرزان] والخدم». ولإكمال الكذبة دعا سياسي آخر إلى تصنيف السكان بأنهم «سكان عائمون floating». ليست هناك كلمة شفقة واحدة حول الضحايا. كل الوثائق تشير إلى أن هذه المؤامرة حظيت بموافقة رئيس الوزراء وثلاثة من وزرائه على الأقل.

ثم بدأت الخدع البريطانية تفعل فعلها، فقد بذلت كل الجهود والمغريات والأكاذيب لإغواء السكان بمغادرة الجزيرة.. أما أولئك الذين خرجوا للعلاج فلم يسمح لهم بالعودة. وعندما بدأ الأميركيون بالوصول لبناء القاعدة فإن بروس غرايتباتش Bruce Greatbatch حاكم سيشل الذي عهدت إليه مهمة الكنس والتطهير... أمر بقتل كل الكلاب الأليفة في الجزيرة. هكذا جمع ألفاً من الكلاب وأعدمها بالغازات السامة الأميركية. لقد وضعوها في محرقة حيث يعمل الناس...

أما السكان فاعتبروا ذلك إنذاراً... هكذا بدأ شحن السكان في السفن حيث لم يسمح للواحد منهم بأن يحمل معه أكثر من حقيبة واحدة. لقد تركوا وراءهم بيوتهم وحياتهم. وفي إحدى هذه الرحلات التي صادفت بحراً هائجاً عاتياً، كانت أحصنة شركة جوز الهند على متن السفينة بينما حشر النساء والأطفال في عنبر سماد الطيور. وعندما وصلوا إلى سيشل وُضعوا في سجن انتظاراً لشحنهم من جديد إلى موراشيوس ورميهم هناك على الأرصفة.

في الأشهر الأولى من منفاهم، مات معظم الأطفال وزادت نسبة الانتحار بينهم. ويروي كثير من الناجين كيف مات أطفالهم. ليزيت تاليت Lizette Tallete التي بلغت الستين [كان ذلك في عام ١٩٩٤] تقول إنها فقدت طفلين، وإن الطبيب قال لها بأنه لا يملك علاجاً. أما ريتا بانكولت Rita Bancoult (٧٩٠ سنة) فتقول إنها فقدت بنتين وصبياً. وحين علم زوجها بأنه لا يستطيع العودة إلى بيته أصيب بنوبة قلبية مات على أثرها. وأما الناجون فقد انتشرت بينهم الدعارة والمخدرات التي لم يعرفوها في جزيرتهم من قبل.

بعد عقد من الزمان تحرك الضمير الإنكليزي لتنظيف جريمة «الكنس والتطهير» فدفعت الحكومة [حكومة طوني بلير] البريطانية لكل واحد من الباقين [بدلاً عن حق العودة] مبلغاً يعادل ٣٠٠٠ دولار لم ينفع في تسديد ديونهم.

أنظر:

John Pilger, "Paradise Cleansed: Our Deportation of the People of Diego Garcia is a Crime that cannot Stand", The Guardian, October 2, 2004.

(١٢) في كتابها المزين بالصور الطريفة: «الخارجون على القانون وقطاع الطرق: طائفة اللصوص في إنكلترا، من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر» الصادر في لندن ترى المؤلفة البريطانية جيليان سبراغس Gillian Sprags التي خصصت رسالتي الماجستير والدكتوراه لدراسة اللصوصية الإنكليزية، إن الإنكليز يعتزون باللصوصية. وتكشف المؤلفة التي تُدرّس الآن علم الجريمة في جامعة لَخْبورو Loughborough University عن وجود طائفة أو ملة لصوص في إنكلترا طالما استحوذت على قلوب الإنكليز وإعجابهم. فمعظم الإنكليز، كما ترى المؤلفة، يفاخرون بأن في إنكلترا لصوصاً أكثر مما في كل أوروبا. وتقول إن هذا من فضائل الأمة لأنها برهان على بأس الإنكليز وجرأتهم. وتذهب المؤلفة إلى أن الإنكليز يعتبرون اللصوصية نوعاً من التصوف لأنها من خصال الجنتلمان. وفي هذا السياق الأخلاقي حاك الإنكليز كثيراً من الأساطير المثيرة حول لصوص مثل روبين هود Robin Hood وديك توربن Dick Turpin، وكتبوا ما لا حصر له من قصص الأطفال. أنظر:

Gillian Spraggs, *Outlaws and Highwaymen: The Cult of the Robber in England from the Middle Ages to the Nineteenth Century*, (Pimlico 2001).

(١٣) Colin Tatz, *With Intent to Destroy*, p. 75.

(١٤) *Western Australia Parliament Parliamentary Debates* (Hansard) Vol. 28. 1905, 433, Mr Piesse.

(١٥) Quoted in George W, Stocking Jr. *Victorian Anthropology* (New York: Free press, 1987), pp 79, 96.

(١٦) Henry P. Schaffer, *Aboriginal Advancement to Integration: Conditions and Plans for Western Australia, Aborigines in Australian Society*, (Australian National University Press, 1971). 21.

(١٧) Noel G. Butlin, *Our Original Aggression: Aboriginal Populations of Southeastern Australia*, 1788-1805, (George Allen & Unwin, Sydney, 1983), p. 175; Colin Tatz, *With Intent to Destroy*, p. 76.

(١٨) تعبير «الجنس اللعين» أطلقه اللورد أمهرست Jeffrey Amherst على الهنود الحمر حين أمر الجنرالَ بوكّيه في رسالة خطية (١٧ تموز/يوليو ١٧٦٣) أن يجري معهم مفاوضات سلام يعطيهم فيها بطانيات مسمومة بجراثيم الجدري، وذلك كما يقول في الرسالة: «للقضاء على ذلك الجنس اللعين to extripate this execrable race». انظر:

E. Wagner Stearn and Allen E. Stearn, *The Effects of Smallpox on the Destiny of the American Indian* (Boston: Bruce Humphries, 1945), pp. 44-5.

(١٩) John Goldsmid, *The deadly legacy, Australian history and transmissible disease*, (New South Wales University Press in association with the Australian Institute of Biology) (Kensington, New South Wales, 1988) pp. 29-31.

(٢٠) Frank Fenner (ed). *Smallpox and Its Eradication* (World Health Organization, 1988), p. 240.

(٢١) See Stephen J. Kunitz, *Disease and Social Diversity: the European Impact on the Health of Non-Europeans*. (Oxford University Press, 1994), Colin Tatz, *With Intent to Destroy*, p. 77.

(٢٢) Colin Tatz, *With Intent to Destroy:* p. 78.

(٢٣) Ibid., 79.

(٢٤) Raymond et al Evans, *Race Relations in Colonial Queensland*, pp. 75, 76, 77.

(٢٥) David Quammen, *The Song of the Dodo: Island Biogeography in an Age of Extinction*, (Scribner, 1997), See chapter "Rarity unto Death", p. 259, and especially pp. 353-75; 361-69; 372-75.

(٢٦) Colin Tatz, *With Intent to Destroy:* p. 82.

(٢٧) Ibid., 84.

(٢٨) W. E. Roth, Annual Report for the Chief Protector of Aboriginals for 1905, (Queensland), p. 13.

(٢٩) Human Rights Equal Opportunity Commission, *Bringing them home: National Inquiry into the Separation of Aboriginal and Torres Strait Islander Children from Their Families*, (1997), 30.

(٣٠) Ibid, pp. 28, 29.

(٣١) Aboriginal Legal Services of Western Australia (Inc), *Telling Our Story*, July 1975, 10, 149, 150.

(٣٢) State Archive of Western Australia, Department of Native Affairs, ACC.933, File 427/36, quoted by David Markovich, "Genocide, a Crime of Which No Anglo-Saxon Nation Could be Guilty", *Murdoch University Electronic Journal of Law*, Vol.10, No 3 (September 2003). See also Aboriginal Legal Services of Western Australia (Inc). *Telling Our Story*, July 1975. 205-213.

(٣٣) Peter Read "The Stolen Generations, The removal of Aboriginal children in New South Wales 1883 to 1969" (New South Wales Government, Department of Aboriginal Affairs, Sixth reprint (2007) First published in 1981.

والدراسة مزودة بأرقام وصور مذهلة، ويمكن للقارىء أن يراها على موقع حكومة نيو ساوث ويلز.

New South Wales Government, Department of Aboriginal Affairs

(٣٤) Elizabeth Ann Sommerlad, "Homes for Blacks: Aboriginal Community and Adoption". *Report of the Workshop on Aboriginal Community and Adoption, in Proceedings of the First Australian Conference on Adoption*, 15-20 Feb. 1976, Sydney, 160.

وفعلاً، فإن كل الأطفال الذين نُقلوا إلى عوائل بيضاء صاروا عبيداً. أنظر:

Anne Pattel-Gray, *The Great White Flood: Racism in Australia* (Atlanta, Georgia: Scholars Press, 1998), p. 20.

(٣٥) Charles Frederick Gale, "Report for the Chief Protector", West Australia Parliament, Votes and Proceedings, Vol.2, 1909, p. 9.

(٣٦) Peggy Brock, "Aboriginal Families and the Law in the Era of Assimilation and Segregation, 1890s 1950s", in Diane Kirkby (editor) *Sex Power and Justice Historical Perspectives on Law in Australia* (Melbourne: Oxford University Press, 1995) pp. 133, 142.

(٣٧) *Western Australia Parliament Parliamentary Debates* (Hansard) Vol. 98, 1935-36, 2382, Mr Coverley.

(٣٨) Arena The Hon Franca, "Abuse of Aboriginal Children", The Parliament of New South Wales's electronic site, May 13, 1997.

(٣٩) Susan Allan, "Official Response to Aboriginal Child Sexual Abuse in Australia: More Law and Order", WSWS, May 22, 2006.

(٤٠) David Markovich BCom (Econ), LLB (Hons), "Genocide, a Crime of Which No Anglo-Saxon Nation Could be Guilty", *Murdoch University Electronic Journal of Law*, Vol. 10, No. 3 (September 2003) see 147-150.

(٤١) Colin Tatz, *With Intent to Destroy:* p. 98.

(٤٢) Ibid, 147.

(٤٣) Quentin Beresford and Paul Omaji, *Our State of Mind: Racial Planning & the Stolen Generations* (Fremantle Arts Centre Press, 1998), pp. 47-48.

(٤٤) Citizen Rights, Act 1944, Western Australia, See Colin Tatz, *With Intent to Destroy*: p. 89-90.

وقد ظل هذا القانون سارياً حتى عام ١٩٧١.

(٤٥) John William Bleakley, *The aboriginals and half-castes of Central Australia and North Australia* (Printed and published for the government of the Commonwealth of Australia by H.J. Green, government printer for the state of Victoria 1929), Vol. 2, p. 74.

(٤٦) Quentin Beresford and Paul Omaji, *Our State of Mind,* pp. 47-48.

(٤٧) Northren Territory Administrator's Report, 1933. p. 7, and Colin Tatz, *With Intent to Destroy*: pp. 91-92.

(٤٨) Post and Telegraph, House of Representatives, Vol. 4, 1901, 4851.

(٤٩) Ibid., 82, 83.

(٥٠) Jack. Brook and James L. Kohen, *The Parramatta Native Institution and the Black Town: A History Modern History Series* (Sydney: New South Wales University Press, 1991) 15.

(٥١) Human Rights Equal Opportunity Commission, *Bringing them home: National Inquiry into the Separation of Aboriginal and Torres Strait Islander Children from Their Families*, (1997), 39.

(٥٢) George W, Stocking Jr. *Victorian Anthropology* (New York: Free press, 1987), p. 241.

(٥٣) Andrew Armitage, *Comparing the Policy of Aboriginal Assimilation: Australia, Canada, and New Zealand*, (University of Washington Press, 1995) 5.



انتشار لعنة كنعان الإنكليزية في أرض تزيد مساحتها
على مساحة ١٨٢ جزيرة بريطانية مجتمعة وقد أفرغ معظمها من أهلها

المراجع

BOOKS كتب[*]

Adams, Brook, *America's Economic Supremacy* (New York, Macmillan, 1900).

Adams, David Wallace, *Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experience*, 1875-1928 (Lawrence: University Press of Kansas, 1980).

Allen, Paula Gunn, *The Sacred Hoop* (Boston, Beacon, 1986).

Andrews, *Lancelot, Apospasmatia Sacra or, A collection of posthumous and orphan lectures* (London, 1657).

Armitage, Andrew, *Comparing the Policy of Aboriginal Assimilation: Australia, Canada, and New Zealand*, (University of Washington Press, 1995).

(*) ربما يصادف أن أراجع أكثر من طبعة للمصدر الواحد بحسب توفر هذا المصدر في المكتبة العامة. وربما يصادف أن ألتقط الشاهد الواحد من أكثر من مصدر واحد. وأخيراً، لربما كانت بعض كلمات المصدر مكتوبة بلغة إنكليزية قديمة ومختلفة عن كتابة اليوم.

Armitage, David, *The Ideological Origins of the British Empire* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

Axtell, James, *The Invasion Within: The Contest of Cultures in Colonial North America*, (Oxford University Press, USA, 1986).

Barker, Francis, and Margaret Iversen (ed.), *Cannibalism and the Colonial World*, (Cambridge University Press).

Beresford, Quentin, and Paul Omaji, *Our State of Mind: Racial Planning & the Stolen Generations* (Fremantle Arts Centre Press 1998).

Berkhofer, Robert F., *The White Man's Indian: Images of the American Indian from Columbus to the Present*, (Vintage, 1979).

Berlandier, Jean Louis, *The Indians of Texas in 1830*, (Smithsonian, 1969).

Beverley, Robert, *The History and Present State of Virginia.*, ed. Louis B. Wright, (Chapel Hill, University of North Carolina Press, 1947).

Bibeau, Gilles, Ellen E. Corin (editors), *Beyond Textuality: Asceticism and Violence in Anthropological Interpretation*, (Berlin, New York, Mouton de Gruyter, 1995).

Binder, Gille and David M. Reimers, *The Way We Lived: Essays and Documents In American Social History*. 4th edition, Vol. I, 1492-1877, (New York: Houghton Mifflin Company, 2000).

Bleszynski, Nick Bloodlust, *The Unsavoury Tale of Alexander Pearce, the Convict Cannibal*, (North Sydney, N.S.W. : William Heinemann 2008).

Bohnstedt, John, *The Infidel Scourge of God: the Turkish Menace as Seen By German Pamphleteers of the Reformation Era*, (The American Philosophical Society,1968).

Bowden, Henry Warner, *American Indians and Christian Missions: Studies in Cultural Conflict*, (University Of Chicago Press, 1981).

Bradford, William, *Of Plymouth Plantation*, edited by Samuel Eliot Morrison (New York: Knopf, 1952).

Brown, David, David Farrier, Luke McNamara, and Sandra Egger, *Criminal Laws: Materials and Commentary on Criminal Laws and Process in New South Wales*, (The Federation Press 2001).

Buhite, Russell D. (ed.) *Calls to Arms: Presidential Speeches, Messages and Declaration of War* (Washington, A Scholarly Resource Inc., 2003).

Calam, John, *Parsons and pedagogues: the S.P.G. adventure in American education*, (New York, Columbia University Press, 1971).

Canny, Nicholas P., *The Elizabethan Conquest of Ireland: A Pattern Established, 1565-76* (Barnes & Noble Books 1976).

------*Colonial Identity in the Atlantic World, 1500-1800* (Princeton University Press, 1989).

------*Making Ireland British, 1580-1650*, (Oxford University Press, USA, 2003).

Carter, Robert. G., *On the Border with Mackenzie; or, Winning West Texas from the Comanches* (Washington: Eynon Company, 1935).

Child, Drenda, *Boarding School Seasons: American Indian Families, 1900-1940*, (University of Nebraska Press 2000).

Chrystos, *Fugitive Colors* (Cleveland State University Poetry Center, April 1995).

Church, Thomas, *The entertaining history of King Philip's War, which began in the month of June, 1675 [electronic resource]: As also of expeditions more lately made against the common enemy, and Indian rebels, in the eastern parts of New-England: with some account of the Divine Providence towards Col. Benjamin Church*, (Boston, Printed by Green, 1716).

Churchill, Ward, *Kill the Indian, Save the Man: The Genocidal Impact of American Indian Residential Schools*, (San Francisco, City Lights Books, 2004).

------*Fantasies of the Master Race: Literature, Cinema, and the Colonization of American Indians*, (City Lights Publishers, 2001).

Cohen, Jeremy, "*Be Fertile and Increase, Fill the Earth and Master It": The Ancient and Medieval Career of a Biblical Text* (Ithaca: Cornell University Press, 1989).

Chrisjohn, Roland D.; Sherri L. Young; Michael Maraun, *The Circle Game: Shadows and Substance in the Indian Residential School Experience in Canada*, (Theytus Books Ltd., 1997).

Coleman, Michael. C., *American Indian Children at School, 1850-1930* (Jackson: University of Mississippi Press, 1993).

Cook, Frederick, Compiler, *Journals of the Military Expedition of Major General John Sullivan Against the Six Nations Of Indians In 1779: With Records Of Centennial Celebrations.* (Auburn N.Y. Knapp, Peck and Thomas, 1887).

Ctokett, David, *A Narrative of the Life of David Crockett of the State of Tennessee.* Written by Himself. (Philadelphia: E. L. Cary and A. Hart, 1834).

Dobyns, Henry F., *Their Numbers Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America, (University of Tennessee Press*, 1983).

Drinnon, William, *Facing West*: The Metaphysics of Indian-Hating and Empire-Building (University of Oklahoma Press: (Norman and London, 1997).

Easton, John, *A Narrative Of The Causes Which Led To Philip's Indian War, Of 1675 And 1676*, (1858), (Reprint: Kessinger Publishing, LLC 2008).

Eburne, Richard, *A Plaine Path-way to Plantations*, Louis B. Wright - editor, (London, 1624. Reprint: Ithaca, NY, Cornell University Press, 1962).

Eliot, John and Thomas Mayhew, *Tears of repentance: or, A further narrative of the progress of the Gospel amongst the Indians in Nevv-England: setting forth, not only their present state and condition, but sundry confessions of sin by diverse of the said Indians, wrought upon by the saving power of the Gospel; together with the manifestation of their faith and hope in Jesus Christ,*

and the work of grace upon their hearts. (London 1653) reprinted in 1834.

Ellis, George Edward, "The Indians of Eastern Massachusetts" in Justin Winsor, *The Memorial History of Boston, Including Suffolk County, Massachusetts 1630-1880* (Boston, James Osgood Company, 1885).

Evans, Raymond et al, *Race Relations in Colonial Queensland: A History of Exclusion, Exploitation, and Extermination*, (Australia and New Zealand Book Company, 1975).

Fournier, Suzanna and Ernie Crey, *Stolen from our Embrace; The Abduction of First Nations Children...* (Vancouver, B. C.: Douglas and McIntyre, 1997).

Frawley, David, *Gods, Sages and Kings: Vedic Light on Ancient Civilization*, (Salt Lake City USA: Passage Press, 1991).

Frederickson, George M., *White Supremacy A Comparative Study in American and South African History* (Oxford University Press, 1981).

Goldenberg, David M., *The Curse of Ham: Race and Slavery in Early Judaism, Christianity, and Islam* (Princeton University Press, 2003).

Goldsmid, John, *The deadly legacy, Australian history and transmissible disease*, (New South Wales University Press in association with the Australian Institute of Biology (Kensington, New South Wales, 1988).

Grant, Agnes, *No End of Grief: Indian Residential Schools in Canada*, (Canada, Pemmican Publications,1996).

Greenberg, Kenneth S., *Masters and Statesmen: The Political Culture of American Slavery*, (Johns Hopkins University Press, 1985).

Gunn, Giles, *New World Metaphysics: Readings on the Religious Meaning of the American Experience* (Oxford University Press, USA, 1981).

Haig-Brown, Celia *Resistance and Renewal*, (Vancouver, Canada Tillacum Library, 1991).

Hakluyt, Richard, *The Principall Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation* (Hartford, Hakluyt Society Extra Series, XXXIX, 1965).

Hanke, Lewis, *Aristotle and the American Indians: A study in race prejudice in the modern world,* (London: Hollis and Carter, 1959).

Harper, Kenn, *Give Me My Father's Body: The Life of Minik, The New York Eskimo*, (Steerforth Press (March 2000).

Harrison, William Henry; Esarey, Logan (ed.), *Messages and Letters of William Henry Harrison Volumes 1 & 2; 1800-1811; 1812-1816* (Governors Messages and Letters Series, Indiana Historical Commission, 1922).

Heckewelder, Rev. John of Bethlehem, *An Account of the History, Manners and Customs of the Indian Nations Who Once Inhabited Pennsylvania And The Neighboring States 1819*, (Philadelphia: Historical Literary Committee of the American Philosophical Society, 1819).

Hitchcock, Ethan Allen, W. A. Croffut (ed.), *Fifty Years in Camp and Field: Diary of Major-General Ethan Allen Hitchcock*, U. S. A., (New York: G. P. Putnam's sons, 1909).

Hodgen, Margaret T., *Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, (University of Pennsylvania Press, 1998).

Hoig, Stan, *The Battle of Washita,* (Norman, University of Oklahoma Press, 1976).

------- *Sand Creek Massacre*, (University of Oklahoma Press, 1987).

Illiff, Flora Gregg, *People of the Blue Water: A Record of the Life Among the Walapai and Havasupai Indians*, (University of Arizona Press 1985).

James, William, *Full and Correct Account of the Military Occurrences of the Late War Between Great Britain and the United*

States of America, (2 Vols., London, Printed for the author, 1818).

Jenkins, Minnie Braithwait, *Girl from Williamsburg* (Richmond, Dietz Press, 1951).

Jennings, Francis, *The Invasion of America* (Norton Library, 1975).

Johnson, Broderick H., (ed.), *Stories of Traditional Life and Culture*, (Navajo Community College Press, 1977).

Johnson, Charles S., *Bitter Canaan, The Story of the Negro Republic*, (Transaction Publishers, 1987).

Kellway, William, *New England Company, 1649-1776, Missionary Society to the American Indians*, (London: Longman, 1961).

Kingsbury, Susan M., (editor), *The Records of the Virginia Company of London.*, 4 Vols. (Washington DC, The Government Printing Office, 1906-1935).

Knightley, Phillip, *Australia: A Biography of a Nation*, (Jonathan Cape, London, 2000).

Lawrence, Mason I. Jr., *The language of Canaan, Metaphor and Symbol in New England from the Puritans to the Transcendentalists*, (Harvard University Press, 1980).

Lawson, John, *A New Voyage to Carolina* (1709), (March of America Facsimile Series, No. 35, Ann Arbor, Michigan, 1966).

Leach, Douglas E., *Flintlock and Tomahawk: New England in King Philip's War* (New York: Norton, 1958).

Lestringant, Frank, *Cannibals: The Discovery and Representation of the Cannibal from Columbus to Jules Verne*. Trans. by Rosemary Morris. (Berkeley: University of California Press, 1997).

Linton, Ralph, *Acculturation in 7 American Indian Tribes*, (Peter Smith Pub Inc., 1963).

Locke, John, *Two Treatises of Government*, (ed.) Peter Laslett (Cambridge: Cambridge University Press, 1988).

Loddington, William, Plantation Work the work of this Generation, (London, 1682).

Loeb, Robert Jr., *Meet The Real Pilgrims* (Garden City, New York. Doubleday, 1979).

Lomawaima, K. Tsianina, *They Called It Prairie Light: The Story of Chilocco Indian School*, (University of Nebraska Press; Reprint edition, August, 1995).

Lopez, Andre, *Pagans in Our Midst* (Mohawk Nation: Akwesasne Notes, n.d.).

Loskiel, George Henry, *History of the Mission of the United Brethren among the Indians in North America*, Christian Ignatius Latrobe, translator, (London: The Brethren's Society for the Furtherance of the Gospel, 1794).

Macaulay, Thomas Babington, "Speech in Parliament on the Government of India Bill, 10 July 1833", in *Macaulay, Prose and Poetry*, selected by G.M. Young (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1957).

MacGregor, Roy, Chief: *The Fareless Vision of Billy Diamond* (Toronto, Canada, Penguin, 1988).

Mather, Cotton, *Magnalia Christi Americana Or The Ecclesiastical History Of New England V1: From Its First Planting In The Year 1620 Unto The Year Of Our Lord 1698*, (Hartford: Silas Andrus and Son,1858).

------ *The life and death of the renown'd Mr. John Eliot, who was the first preacher of the Gospel to the Indians in America with an account of the wonderful success which the Gospel has had amongst the heathen in that part of the world, and of the many strange customes of the pagan Indians in New-England* / written by Cotton Mather, (London: Printed for John Dunton ..., 1691).

Mather, Increase, *A Brief History of the Warr with the Indians in New-England From1 June 24, 1675 ... to August 12 1676 ...* (London, Printed by Chiswell, 1676).

McBeth, Sally J., *Ethnic Identity and the Boarding School Experience of West-Central Oklahoma American Indians*, (Washington D.C. University Press of America, 1983).

Miller, J. R., *Shingwauk's Vision: A History of Native Residential Schools*, (University of Toronto Press, 1996).

Milloy, John, *A National Crime: The Canadian Government and the Residential School System, 1879 to 1986*, (Winnipeg: University of Manitoba Press, 1999).

Morgan, Lewis Henry, *Ancient Society*, (Cleveland: World Publishing, 1963).

Namias, June, *White Captives: Gender and Ethnicity on the American Frontier* (Chapel Hill University of N. Carolina Press, 1993).

Palmer, Roy, *The Oxford Book of Sea Songs*, 159 Sea Songs chosen and edited by Roy Palmer, (The Oxford Book of Sea Songs, 1986).

Palmer, William F. et al., editors, *Calendar of Virginia State Papers and Other Manuscripts* (11 Vols., Richmond, Superintendent of Public Printing, 1875-1893).

Parenti, Christian, *Lockdown America: Police and Prisons in the Age of Crisis* (London: Verso, 1999).

Parkman, Francis, *The Works Of Francis Parkman, The Conspiracy of Pontiac and The Indian Uprising*, (New York: Charles Scriber's sons, 1915), Vol. 1.

------ *The Old Regime in Canada*, (Boston, New Library 1908).

------ *A Half-Century of Conflict*, (Boston, Little Brown and Co., 1892).

Parry, J. H., *The Age of Reconnaissance* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1966).

Pattel-Gray, Anne, *The Great White Flood: Racism in Australia* (Atlanta, Georgia: Scholars Press, 1998).

Pearce, Roy Harvey, *Savagism and Civilization: A Study of the Indian and the American Mind*, (University of California Press, 1988).

Philips, Cyril Henry, *The Correspondence of Lord William Cavend-*

ish Bentinck, Governor-General of India, 1828-1835, (Oxford, Oxford University Press, 1977).

Phillipson, Robert, *Linguistic Imperialism*, (Oxford: Oxford University Press, 1992).

Porter, Andrew, "Religion, Missionary Enthusiasm and Empire", *The Oxford History of the British Empire: The Nineteenth Century* (Oxford History of the British Empire., 1999), edited by Andrew Porter, Alaine Low (ed.), Vol. II.

Porter, H. C., *The Inconstant Savage* (London, Gerald Duckworth &Co, 1979).

Powers, Marla, *Oglala Women: Myth, Ritual, and Reality*, (University Of Chicago Press 1988).

Pratt, Richard Henry, *Battlefield & Classroom: Four Decades With the American Indian, 1867-1904*, ed. Robert M. Utley, (New Haven, Yale University Press, 1964).

Prucha, Francis Paul, *The Great Father: The United States Government and the American Indians*, (University of Nebraska Press; Abridged edition 1986).

Quinn, David B., (editor), *New American World: A Documentary History of North America to 1612*, (New York, Arno Press, 1979), Vol. 1.

Rawls, James J. *Indians of California: The Changing Image* (Norman, University of Oklahoma, 1997).

Reynolds, Henry, *Frontier: Aborigines, Settlers and Land* (Sydney Allen and Unwin 1987).

-------- *An Indelible Stain? The Question of Genocide in Australia's History*, (Viking, Ringwood, 2001).

Roosevelt, Theodore, *The Winning of the West* (Lincoln University of Nebraska Press, 1995).

Rowlandson, Mary, *Narrative of the Captivity and Restoration of Mrs. Mary Rowlandson*, (Boston, Mass. Sabbath School Society, 1856).

Ruby, Robert H., and John Arthur Brown, *The Spokane Indians: Children of the Sun*, (University of Oklahoma Press, 1970).

Ruxton, George F. and Leroy R. Hafen (editor), *Ruxton of the Rockies*, (Norman: University of Oklahoma Press, 1950).

Sapir, Edward, *An Introduction to the Study of Speech*, (Harvest Books, 1955).

Schaffer, Henry P, . *Aboriginal Advancement to Integration: Conditions and Plans for Western Australia, Aborigines in Australian Society*, (Australian National University Press, 1971).

Scudder, Horace E., *A History of the United States of America*, (Philadelphia: J. W. Butler, 1884).

Sekaquaptewa, Helen, *Me and Mine: The Life Story of Helen Sekaquaptewa*, (The University of Arizona Press, 1969).

Shaffer, Jim, "The Indo-Aryan Invasions: Cultural Myth and Archaeological Reality," in *People of South Asia: The Biological Anthropology of India, Nepal and Pakistan*. J.R. Lukacs, (Ed.) (New York: Plenum Press, 1984).

Shepard, Thomas, *The clear sun-shine of the Gospel breaking forth upon the Indians in New-England: Or, an historicall narration of Gods wonderfull workings upon sundry ... and of Jesus Christ the Saviour of the world, (London R. Cotesm 1684); John Easton, A Narrative Of The Causes Which Led To Philip's Indian War, Of 1675 And 1676*, (1858), (Reprint: Kessinger Publishing, LLC 2008) Vol. 4.

Shepherd, Major William, *Prairie Experiences in Handling Cattle and Sheep*, (London: Chapman and Hall, 1884).

Shortt, A., and A. G. Doughty (eds.), *Canada and its Provinces*, Vol. ix (Toronto, 1913).

Simpson, W. Brian, *Cannibalism and the Common Law: The Story of the Tragic Last Voyage of the Mignonette and the Strange Legal Proceedings to Which It Gave Rise*, (Chicago and London, Chicago University Press, 1984).

Smith, Andrea, *Conquest: Sexual Violence and American Indian Gen-*

ocide, (Cambridge, MA, South End Press 2005).

------ "Rape and the War Against Native Women", in Ines Hernandez-Avila, ed., *Reading Native American Women: Critical/Creative Representations* (AltaMira Press, 2005).

Smith, Leonard Robert, *The Aboriginal Population of Australia: Aborigines in Australian Society*, (distributed by Books Australia 1980).

Spraggs, Gillian, *Outlaws and Highwaymen: The Cult of the Robber in England from the Middle Ages to the Nineteenth Century*, (Pimlico 2001).

Spurr, David, *The Rhetoric of Empire: Colonial Discourse in Journalism, Travel Writing, and Imperial Administration* (Post-Contemporary Interventions), (Durham, Duke University Press, 1993).

Standing-Bear, Luther, *Land of the Spotted Eagle*', (Boston: Houghton Mifflin Company), 1933.

------*My People, The Sioux* (1928; reprinted, Lincoln: University of Nebraska Press, 1975).

Stannard, David A., *American Holocaust*, (Oxford University Press, USA (November 18, 1993).

Stern, Theodore, *The Klamath Tribe a People and Their Reservation,* (Seattle, University of Washington, 1965).

Stocking, George Jr., *Victorian Anthropology* (New York: Free Press, 1987).

Stone, William L., *Life of Joseph Brant-Thayendanegea Including The Indian Wars Of The American Revolution*, 2 Vols. (New York: A. V. Blake, 1838).

Strong, Josiah, *Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis* (New York: Baker and Taylor, 1866).

Sullivan, John, *Journals of the Military Expedition of Major General John Sullivan Against the Six Nations of Indians in 1779...* (Frederick Cook, Comp., Auburn, New York: Knapp, Peck and Thomson, 1887).

Tatz, Colin, *With Intent to Destroy: Reflecting on Genocide, (Verso, London*, New York 2003).

Temple, Sir Richard, *India in 1880*, (London, John Mukeay, 1880).

Thomas, David Hurst, *Skull Wars: Kennewick Man, Archeology, and the Battle for Native American Identity*, (Basic Books, 2000).

Thornton, Russell, *American Indian Holocaust and Survival: A Population History Since 1492*. (Norman: University of Oklahoma Press, 1987).

Thorp, Raymond W., and Robert Bunker, *Crow Killer: The Saga of Liver-Eating Johnson*, (Indiana University Press, 1969).

Tinker, George E., "Tracing a Contour of Colonialism: American Indians and the Trajectory of Educational Imperialism", Preface, in Ward Churchill's *Kill the Indian, Save the Man, The Genocidal Impact of American Indian Residential Schools*, (San Francisco, City Lights Books 2004).

------*Missionary Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide*, (Minneapolis: Fortress Press, 1993).

Titley, E. Brian, *A Narrow Vision: Duncan Campbell Scott and the Administration of Indian Affairs in Canada* (University of British Columbia Press 1992).

Trennert, Robert A., *The Phoenix Indian School: Forced Assimilation in Arizona 1891-1935*, (Norman: University of Oklahoma Press, 1988).

Trollope, Anthony, *Australia*, P. D Edwards and R. B. Joyce (editors) (University of Queensland Press, 1967).

Underhill, John, *News from America; Or, A New and Experimentall Discoverie of New England*; Containing, A True Relation of Their War-like Proceedings These Two Yeares Last Past, with a Figure of the Indian Fort, or Palizado (London: F.D. for Peter Cole, 1638).

Warner, Charles D., *Mummies and Moslems*, (Hartford, Connecticut: American, 1876).

White, John, *A Commentary upon the First Three Chapters of the First Book of Moses called Genesis* (London, 1656).

Whitewolf, Jim, *The Life of a Kiowa Apache Indian*, (Dover Publications, 1969).

Williams, Robert Jr., *The American Indian in Western Legal Thought*, (New York: Oxford University Press, 1990).

Whipple, Henry B., *Light and Shadows of a Long Episcopal*, (New York: Macmillan, 1899).

Wister, Owen, *The Virginian*, (New York: Viking Penguin, 1988).

Wright, Michelle M., *Becoming Black: Creating Identity in the African Diaspora* (Duke University Press, 2004).

Young, Michelle M., (ed.) *Chronicles of the Pilgrim fathers of the colony of Plymouth, from 1602-1625.* (Boston, C. C. Little and J. Brown, 1841).

Zastoupil, Lynn, (ed.), *The Great Indian education debate: Documents relating to the Orientalist-Anglicist controversy, 1781-1843*, (Richmond: Cruzon Press, 1999).

Zelinsky, Wilbur, *Nation Into State: The Shifting Symbolic Foundations of American Nationalism*, (University of North Carolinia Press, 1988).

DISSERTATIONS رسائل دكتوراه

Putney, Diane T., "Fighting the Scourge: American Indian Morbidity and Federal Policy, 1897-1928," (PhD dissertation, Marquette University).

Green, Rayna, "The Only Good Indian: Images of the American Indian in American Vernacular Culture," (PhD Dissertation, Bloomington: Indiana University)

JOURNALS مجلات مُحكّمة

Acta Ethnographica Hungarica, An International Journal of Ethnography Vol. 47, No 1-2. 2002.

American Indegina, Vol.5. No. 2. 1945.

American Indian Quarterly, Fall 1988.

The ANNALS of the American Academy of Political and Social Science. 37, 1911.

Appleton's Magazine, May 1906.

Cambridge Historical Journal 6, 1938/1940.

Critical Inquiry, 18, Summer, 1992.

Chronicles of Oklahoma, 38, spring 1960.

Joint Forces Quarterly, 38, 2005.

Journal of the Asiatic Society, 11. 1955.

Journal of Feminist Philosophy, Vol. 18, 2, Spring 2003.

Journal of the Folk Song Society, Vol. 2, 9.

Journal of Multilingual and Multicultural Development, Vol. 23, 4, 2002

Military Review, March-April 2005.

New Literary History, 27,1996.

New Maritimes, Mar.£Apr. 1992.

North American Review, Oct. 1873; 33, July 1881.

Review of English Studies, xxxviii, no 15, 1987.

Suicide 92 (Denver: American Association of Suicidology, 1992).

Sydney Law Review, Vol. 27, 2005.

The American Indian Report, Vol. xix, 1 , 2003.

The Western Historical Quarterly, No 3.

William And Mary Quarterly, XXX .October 1973.

GOVERNMENT DOCUMETS وثائق حكومية

The Meriam Report (Meriam, et al), *Problem of Indian Administration*, Report of a Survey made at the request of Honorable Hubert Work, Secretary of the Interior, and submitted to him,

February 21, 1928 (The Lord Baltimore Press, 1928).

The Annual Report of the Commissioners of Indian Affairs, 1856, 1864, 1879, 1882, 1884, 1885, 1886, 1887, 1892, 1893,1901.1916.

Annual Report of the Secretary of the Interior. 1885

Collections of the Massachusetts Historical Society, 1st series, Vol. 1, 3 .

The Congressional Globe and Record 1850-1911 (City of Washington: Office of the Congressional Globe).

Indian Rights Association Papers, 1903.

Proceedings of the Massachusetts Historical Society, first series, 1791-1883; second series, 1884-1907; and third series, 1907-1928.

Proceedings and Addresses of the National Education Association, 1895,1903. (Washington DC: National Educational Association).

Records of the Office of Indian Affairs, National Archives, Record Group 75, (Letter 15559, received in April 20, 1891).

Report of the Indian Rights Association. Box 2, folder 94-95; Box 3, folder 96-104, 1912.

The United States Statutes at Large (the Government Printing Office), Vol. 26.

المؤلف

أستاذ الإنسانيات واللغات الحديثة ومدير البرنامج العربي في جامعة سفُك **Suffolk** ببوسطن.

وهو سوري بالمولد ، فلسطيني بالاختيار.

لـه

٢١ كتاباً ألفه أو ترجمه أو حرره. مِن أول هذه الكتب «**عن الشعر والجنس والثورة**» مع الشاعر الراحل نزار قباني (بيروت ١٩٧١)، وآخرها الطبعة الثالثة من كتاب «*The Open Veins of Jerusalem*» (نيويورك / منشورات جامعة سيراكوس). ومن كتبه باللغة العربية «**أسئلة الشعر**» (بيروت ١٩٧٩)، و«**حق التضحية بالآخر**» (بيروت ٢٠٠٢)، و«**فكرة أميركا**» (الدار البيضاء ٢٠٠٣)، و«**تلمود العم سام**» (بيروت ٢٠٠٤). ومن كتبه بالإنكليزية: *Post Gibran* مع الشاعر خالد مطاوع، و*Culture and Hegemony* مع نصير عاروي، إضافة إلى ثلاث مجموعات شعرية مترجمة إلى الإنكليزية للشاعر محمود درويش.

في أيّار/مايو ١٩٨٣، قدم له ماريّو زاكاري نائب رئيس البرلمان الأوروبي وسام أوروبا

لجهوده في حوار الحضارات.

ومنير العَكش مؤسس ورئيس تحرير «جسور» التي تصدر بالإنكليزية على شكل كتاب بالتعاون مع جامعة سيراكوس بنيويورك، كما أنه يشارك في إدارة أحد أبرز مراكز الأبحاث العربية في الولايات المتحدة Trans-Arab Research Institute.

للإتصال

Jusoor@aol.com

فهرس الأعلام

أ

ب

ف

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ج

خ

س

ش

ص

ع

غ

ف

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

منير العكش

لعنة كنعان الإنكليزية
أميركا والإبادات الثقافية

«لا أظن أبداً أننا سنقهر هذا البلد [الهند] ما لم نكسر عظام عموده الفقري التي هي لغته، وثقافته، وتراثه الروحي».

– توماس مكولاي، مهندس سياسة الإبادة الثقافية للشعوب المستعمرة

على مدى الأربعمئة سنة التي أباد فيها الإنكليز في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة أكثر من 18 مليون «هندي أحمر»، ومحوا من ذاكرة التاريخ مئات الأمم والشعوب، كما فعلوا بعد ذلك بسكان أستراليا ونيوزيلاندة وعشرات الجزائر التي كانت تعج بالحياة، لم يغب عن بالهم أن احتلال الأرض والإبادة الجسدية ليست كل شيء، وأنه لا بد من كسر العامود الفقري لضحاياهم، ألا وهو لغتهم وثقافتهم وتراثهم الروحي. هذه الابادة الثقافية أو «المحرقة الأخيرة للوجود» بتعبير رسل مينز أحد زعماء الحركة الهندية، هي موضوع هذا الكتاب.

سنوات طويلة أمضاها المؤلف، وهو أبرز الباحثين العرب في الدراسات الأميركية، أمضاها في دراسة أخلاق هذه الإبادة الثقافية، وأيديولوجيتها، وأسلحتها، وتقنياتها، وأبطالها، وأبواقها المحليين، ووقائعها المخيفة، اعتماداً على مراجعة مئات المصادر العامة وعلى البحث والتنقيب في صناديق الوثائق الحكومية التي تضم آلاف آلاف الأوراق والتي ترى النور لأول مرة في صفحات هذا الكتاب: سجلات مفوضي المحفوظات الوطنية، ووزارة الداخلية، أو وثائق قرن ونصف القرن من وثائق الشؤون الهندية، أو محفوظات الكونغرس والمنظمات التاريخية وغيرها. إنها شريط مصور من مأساة تعجز كل مخيلات الرعب عن محاكاتها، مأساة أبطالها ملايين من البشر كانوا كما يقول زعيم هندي في إحدى هذه الوثائق: «كشجرة تساقطت أوراقها فكنستها الريح إلى الأبد».

ISBN 9953-21-427-1
9 789953 214276

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS